التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

تأليف الأستاذ
عبد الحليم الجندي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب الثاني والثلاثون
١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى هذا الكتاب صوره لا سيره ، وليس فيه من التفصيل غير ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الامام الأعظم لأهل الاسلام

واذا كان من الرجال من تعتبر بدايته حدثا ضخما فى تاريخ البشريه تطوى آثاره حضاره كامله ؛ أو كان الرجل الشجاع الرأى وحده جحفلا لجبا فليس كهذا الامام مصداقا لهذا الكلام

فالى الجيل الذى يلتمس نفسه ويسره يبحث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالى للحريه والشجاعه والكفاح .

ان أبصارنا فى أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه الى المستقبل والى الماضى معا ؛ لأن الماضى مركز الثقل الذى يحفظ توازننا ، فلا نقبل على المجهول الا وفى أيدينا قدر كاف من المعلوم . و لابد خائض العمر الا اذا نهلنا من مصادرنا وارتوينا . واذا كنا الى اليوم لم نعرف من كنوزنا الزاخره الا حصاة ؛ فلنرجع الى بعض كتب الى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج اذا تحققت المنعه بانهاض القوى الذاتية للجسم الحى

لعل للمترددين مقالة البحارة فى سفينة بالمحيط الأطلسى يستغيثون من بحارة سفينة قرب شواطىء البرازيل . فرغ منهم الماء العذب فصاحوا فى

طلبه ، وأجابهم بحارة المحيط « ألقوا دلوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء ، وكان الجواب دائما .. « ألقوا دلوكم حيث أنتم » حتى اذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذبا فراتا لذة للشاربين ، اذ كانوا قبالة شاطىء نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماءه العذب فى صميم المحيط وهم لا يشعرون

لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزخر الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارىء فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها الا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أو فتى كسيف الاسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الاسلام من ردة المرتدين فكانت يده فى حروب الرده أندى وأجدى من كل غزوه غزاها .

واذا كان نابليون قد فاخر « بقانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقعه السبعين التى أذهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ القانون منه أنه صدر فى عهده ، فكيف بأبى حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين فى الاسلام والامام الأعظم للأئمة وللمشترعين ، فى كل نبضة من نبضات قلبه هداية ، بالعلم وبالقدوه ، الى شجاعة نفس ، وكفاح منصل ، جلب للناس عمله فى بناية الحضارة الاسلامية وحياطتها بما أشاعه فى كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشف لهم الفوارق بين العمل الموقوف لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يقصرون من الكمال ويقصون من الخير فى الحياة الدنيا اذا أرينت لهم بمصباح الفقيه

ولما تعارض الفكر والسلطان ، أو الفقيه والخليفة ، كانت كلمة الفكر هى العليا

ألا ان لنا فى الامام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسيا فى الضحايا ، ونحن فى مفترق الطرق . فلنقتد بهداه ، ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة . ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب

الحضاره العربية السى أوشكت أن تعلن افلاسها فى الحربين الأحيرتين لحلوها من عنصر الروح .

لتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا .

لقـد اعتز الاسلام بأسبابه ، عندما اسـتمسك أبناؤه بآدابه ، فلما صيعوها بعباده الذاب والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .

وبحسب القارىء هذا المثل للرجل العظيم الدى أجـرينا دكره عـلى الصفحاب التالية .

الباب الأول

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام التى لم ينفرط عنها عقد الزمان بعد ، أقبلوا كالفجر الطالع واملأوا آفاق الورى بالنور »

نتزيه

آمل السيد فى تؤده ورزانة ، طويل القامه ، معتدل السب عظيم الهامه ، حسن الطلعه واللحيه ، تعلوه سمره ، فى وجهه أثر من السجود ، لا يلتفت اذا مشى يمنه أو يسره ، يضوع المسك من أردانه على القرب وعلى البعد حتى ليشيع الأرج اذا خرج من داره فيعرف أنه القادم اليك قبل أن تراه .

فاذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباسا عليه بزه فاخره تباهى بذوق صاحبها فىقماشها وطرازها ، كأن فماشاتخير لنفسه أحسن ماالديه، فاجتمع ذوق المشترى وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق ، تعلوه قلنسوه طويلة سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم ، فى زمن كانت فيه ثمانيه أرطال سمن بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم بل الكبش بدرهم .. !

ومن جبة سنجاب الى جبة ثعلب يصلى فيها ، الى جبه فنك « نوع من جراء الثعلب التركى » فى زمن لم يك يلبس الفنك فيه الا الأقيال والدهاقين والسرواب ، اذا ألفيت فيه أو فيما قبله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس أو من على شاكله ابن عبـاس . ابن عم النبى ، ونائب أمير المؤمنين على ، والجد الأعلى لهرون الرشيد .

هذا السيد الذى ينم مظهره عن المقام الرفيع ، ينبئك مخبره عن مقام فى قمه الملأ الأعلى من المخلصين ، مجلس هو الوقار بعينه ، وفؤاد جسور هو الشجاعة فى عنفوانها ، وجنان ثابت لا يطيش لدى القارعه ، اذا سمع اللغو أعرض عنه ، هيوبا لا يتكلم الا جوابا ، حتى اذا دعت الى الحديث دواعيه افترت شفتاه عن ثنايا ناتئتين ثم ابتثق النبع سلسلا من سلسل ، كأن ملكا من الملائكة يوحى اليه ! مضرب المثل فى وفائه ونداه ، وبسطه وايناسه ، وحدبه على أعدائه وأوليائه . لا تلهيه تجاره ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة ، رزقه ربه رزقا حسنا فجعله كله زلفى لله وقربى ، فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه ، فجعله للناس آية فى الدنيا وفى الدين

فمن دلك الدى هو كل دلك .. ؟

انه النعمان بن ثابت المكنى بأبى حنيفة . الدى يبيـن عمله من منطقه ومشيه ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر تردد عباراته الى جوار أساطين المسـجد الجامع فى الكوفة فتردد أصـداؤها فى المسجد الحرام بالمدينة ، وفى المسجد الأقصى ببيت المقدس وفى البيت الحرام بمـكة ، وفى جامع عمرو بالفسطاط . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظائم ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء ، فاذا ذهب الى المسجد احتفل الحضور البـه يلتمسون وقع الدر من فيه ، يطالعهم كل آن بجلائل العلم الذى يحنى له الأفذاذ من العلماء ولو أتيح للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا ــ بعد رسول الله وبضعة من صحبه ــ هو أخلد الرجـال فى تاريخ الاسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار فظلت كما أنزلها الله عصرية فى كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعى فى أحدث الأمم الاسلامية حضارة يتحصل فى كلمة يسيره المبنى كبـيرة المعنى هى : « أرجح الاقوال من مذهب أبى حنيفة » الرجل الذى أعلى الحرية فى كل مكان ، وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى التجـاره وفى الملك ، وفى التصرفات وفى حقوق النساء ، وفى حقوق الرعية . حرية وتسامح فى كل شىء يسموان باسمه فى معارج الخلود . يقاوم صاحبهما طغيان الشرطى وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التالد وطغيان التعصب . ولا تنال منه الهزاهز ولا الفتن . وينشىء مدرسة الرأى فى الاسلام لتكون أم الفقه الاسلامى ومنبعه على مر الدهور .

كان فتى طوالا فيه سمرة منحدرة اليه من وسط آسـيا من أصلاب أجداده فى الأفغان ــ فلقد ولد فى سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بنى تيم ، فهو باسمه سمى ملك من الملوك فى العراق « النعمان بن المنذر » وهو بمولده مولى من الموالى ، لم يتلق العلم فى مدرسة ولا جامعة ، وانما دخل المسجد الجامع ، وتخرج فى مدرسة الدنيا .

وكانت الدنيا فى دلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مـروان وكانت الكوفة

كأنون مسعر . وكان أمير العراق فى طفوله النعمان الحجاج بن يوسف الثقفى . رجلا ما يزال اسمه يجرى فى التاريخ العربى مما يجرى به اسم نيرون فى التاريخ الغربى ، فالنعمان لم يسلخ فى بواكير حياته ليله واحده ولا نهار دون أن تصطك مسامعه بأحاديث هذا الطاغوت الناشبه براثنه فى أعناق جيرته وعشيرته يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم فى العراق عامه والكوفة خاصه — وحمل الطاغيه فى عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل فى سنه ٩٥ شهيدا « مات . ما على ظهر الأرض رجل الا ويحتاج الى علمه » هو سعيد ابن جبير ومن بعد ذلك بعام فى سنه ٩٦ مات أستاذ العراق ابراهيم النخعى مختفيا عن عيونه !

ولما يفع الفتى الموهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قصمه الله جبار السماء فرحل الى الدار الآخره مخلفا فى الدار الفانيه أحاديث لاحت على الحدث الناشىء مخايل النجابه وتعارفها الناس حتى بلغ حديثها قاضى الكوفه وزعيم محدثيها فى عصره الامام الشعبى فلما مر به يوما دعاه قائلا الى من تختلف ؟ قال « أختلف الى السوق » وسمى له سيده فى السوق قال الشعبى « لم أعن الاختلاف الى السوق بل عنيت الاختلاف الى العلماء » قال « انى قليل الاختلاف اليهم » قال الشعبى « عليك بالنظر فى العلم ، ومجالسه العلماء ؛ فانى أرى فيك يقظة وحركه » . ووقع فى قلبه من قوله وترك الاختلاف الى السوق وأخذ فى العلم منذ حداثه الباكرة

بدأ النعمان بدرس علم الكلام وهو علم التوحيد ، والجدال فى العقائد والأمور الدينيه كافه كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه . والجبر والاختيار . وان شئت فقل انه علم التشريح الفكرى للمسائل المسلمة لانكارها أو اقرارها بالدليل العقلى

وكان العراق اقليما مسوقرا يدفع كل شىء فيه الى شبوب الخواطر . وفى الطبيعه البشرية اتجاه غريزى للدفاع عن النفس يدفعها الى الثوره على العسف ؛ مواجهه ان استطاعت ؛ ومن حوالله اذا هى لم تستطع ؛ فتفرع

شخصها من الحسبه فى اتجاهات يظهر لدى الرأى أنها لا تمت بسبب الى الحرب المشبوبه على الطغيان . لكنها فى الواقع كفروع النهر ، تتلاقى حيث المجرى العريض يحمل الفكره الثائره كما يحمل الزورق التيار

ولقد يظهر من ذلك أن الاقبال على الجدال انما هو فى الواقع مثال على انتصال ، اقبال المفكر بطبيعته ، المرن بفطرته ، لم تستهوه هنات النفس ولم تغص فى الخلافات العصبيه أو المذهبيه ولم يتعارف الزلفى لأن تشرب السلطان ، وانما نزل الى معارك العلم واستقام على طريقه طيلة حياته فى بلد كانت السياسه فيه هى الحيز اليومى يطعمه كل كوفى .

وسنرى من بعد أثر هذا التعلم الأول حين راح فى كهولته يصدع برأيه فى شجاعه دونها شجاعه السيوف

قالوا رأى النعمان فى حداثته من الصحابه تسابه رجال وامرأه وقيل خمسة وامرأه وقيل خمسه وامرأتين — منهم أنس بن مالك — وانه سمع منه حديث « طلب العلم فريضه على كل مسلم » وحديث «الدالعلى الخيركفاعله» وحديث أن الله تعالى يحب اغاثة اللهفان وقالوا انه لم يسمع من الصحابه أحدا ، وانما تمحضت حداثته لدراسه « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوه النعمان على حاله بل دفعه الى الأسفار فى سبيل العلم ، فكان يرحل بين البصره والكوفه حتى بلغ فى « الكلام » مبلغا يشار اليه فيه بالبنـــان أو كما قال « كنت أعطيت جدلا فى الكلام ، وأصحاب الأهواء فى البصره كثير ، فدخلتها نيفا وعشرين مره وربما أقمت بها سنه أو أكثر أو أقل ظنا أن علم الكلام أجل العلوم » لكن ما ركب فيه من عقل عملى كان حقيقا أن يغير مجراه وأن يهديه الى طريقه المثلى وللمجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة ، وحقيق بمثله أن ينصرف الى ما ينفع الناس فيهجر المتكلمين الى الفقهاء أو كما قال « فلمـــا مضى مده من عمرى تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا مجادلين وخاضوا فى علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناظـــروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سيماء الصـــالحين قاسية قلوبهم غليظة أفئدتهم .. »

كان فى ذوائه يختار من كل شيء أحسنه . وما دام قد تحىر الدرس فقد كان عليه أن يختار المدرس . وليس ادن الا الحلقة المجاوره لأنها أكبر الحلق ، وأسادها أكبر الأساتذه : أبو اسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفى الأشعرى الذى يعقد جلساته فى المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال « تعلم العلم » قال « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط فى سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها فى الغداه فيخطىء الحفاظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح فى الجدل حتى ليحمر وجه حماد لكن حمادا يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله . قام يوما من مجلسه فقال حماد لجاره « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه . » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد « كنت أكثر السؤال فربما تبرم منى . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبى وضاق صدرى . » .

لم يلبث الا قليلا حتى أحس حماد أنه يرحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بازائه . وطفقا يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكفل زاخر من الرعاية ، فصحت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى أن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة الى أى الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل ولد فتوقع أن يكون أقرب الناس الى قلب الجد هو الحفيد لكنه أجابه : الى أبى حنيفة ولو أمكننى أن لا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت التلميذ نفسه فى نحو الثلاثين من عمره أنه أوتى حظا من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتى الناس مما فتح الله عليه . فخرج يوما بالعشى تنازعه نفسه طلب الرياسة ، ويمم شطر المسجد وأوى الى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى فلم يكد يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد فى حلقته ، فهاجه الذكر ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ

العظم الذى قال عنه ابراهيم النخعي اذ سئل عمن خلف بعده للناس انه خلف حمادا للناس ، فكيف يترك النعمان حمادا ؟

كان حماد آية فى الزهد والورع يفطر كل ليلة فى شهر رمضان خمسين انسانا فاذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوبا ثوبا ..

وانصرف الفتى كاسف البال منكسرا ولكنه كان منتصرا اذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته فى دأب وتعمق وحماسة زادته بسطة فى العلم وسعة فى الفهم . حتى اذا نعى الى حماد بعض أهله بالبصرة عن مالا لا وارث له دونه ، رحل الى البصرة شهران وأناب أبا حنيفة فى أن يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ ــ الصغير ــ يستفتونه فى أشياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير ، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب ، واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، وللاسلام : تلك أنه دون اجاباته ليعرضها على أستاذه اثر عودته . فلما راجعها حماد أقر منها أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين ، وبدأ فقه الجمهور الاسلامى يعرفه معه ، وآنس التلميذ من نفسه ضعفا اذ منعه الحياء العلمى أن يعتد بأنه أصاب ضعفى ما أخطأ ، وتعاقب عليه الجديدان فى حلقة حماد ، وهو يأخذ نفسه بالاستبحار فى العلم وفى الدين ، واشتملت عليه عناية الله تتعهده تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر ، ودار الفلك دورات وانسلخت سنوات ثمان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوما ولا بعض يوم ، بل ان كثيرا من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفا من الليل .

كان يسهر مع جماعة من أصحابه فى دار حماد يتدارسون ، وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح الديك فاذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة « يالك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، ان شر الديكة ما صاح أول الليل »

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه ، وبلغ به استقلاله ، ما بلغ باستاذه جلاله ، أنه لم يكن يجد فى مخالفته له حرجا . خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حمادا : انى على دابة سيور وقد غابت الشمس

ولست على الوضوء . فلما تيسر لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال . سر وانتظر عسى أن يتحقق ، فاذا حسبت ذلك فتيمم وصل وسار الرجل فصادفه الماء خوصاً .

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيمم ما دام يغلب على الظن وجود الماء ، وفى الوقت سعة ، طلبا للكمال بالطهارة الأصلية .

وهى أول فتوى خالف فيها أستاذه .

اكتملت دراسات الفتى المكتمل ، وبلغ نضجه العلمى ، واستوى فى سن الأربعين — سن الرسل — فأضحى يستطيع أن يؤدى رسالته وهيأت له السماء كل الظروف .

ففى سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد الى بارئها واجتمع الناس الى ابنه اسماعيل ، وكان أغلب علم اسماعيل فى التاريخ والأدب فلم يلق الناس عنده كبير غناء فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يجلسونه وان لم يكن قارئا فى الفقه لأنه لقى المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجا فجلس الناس الى أبى بكر النهشلى فأبى فسألوا أبا بردة فأبى ، وخلى بين المجلس وبين أبى حنيفة . فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم فى كل الأبواب نفاذا وعلما بارعا فلزموه وتركوا سواه .

وجاء اسماعيل بن حماد نفسه واخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان منهم من قبل من حماد ، ولم يزل الناس يحلقون اليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكم أمره واحتاج الولاة اليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علوا وغدت حلقته أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها فى الجواب وانصرفت وجوه الناس اليه وأكرمه الحكام والأشراف ، فقوى ذلك بالعلم الواسع والجدة وأسعدته المقادير . وكثر حساده

وظلت فى نفسه ذكريات حماد يرددها منشدا نداه على الناس ويحدوا ه عنده وتقواه لله حتى ليقول « انى لأعود لحماد مع أبوى » . بل انه ليخلد ذكراه فى نفسه وفى داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورهـــا فيسمى ابنه حماد ولده باسم اسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه اسماعيل .

ذلك حماد أستاذه فى الفقه ، وأبوه فى الفكر . وأولئك آباء حنيفة الفكريون :

كان حماد تلميذا لعلقمة الأساتذين جرى اسمه فى التاريخ على أنه راويه ابراهيم النخعى وناهيك بابراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبى عندما نعى اليه « هلك الرجل . انه نشأ فى أهل بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا الى فقه أهل بيته فمن كان مثله .. » وقال . . فقيه أفقه الناس . قيل ومن الحسن « الحسن البصرى » قال « أفقه من الحسن ومن أهل البصره ومن أهل الكوفة وأهل الحجاز » فلقد كان فى الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين ـــ أخذ عن خاله علقمه بن قيس الذي كان الصحابه يستفتونه والذى قال عنه ابن عباس اذ مات .. « مات ربانى العلم » كما أخذ عن ابن أخى علقمة الأسود بن يزيد النخعى وهذان النخعيان أخذا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود ، سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين الى الحبشه والمدينه ؛ وقرين أبى بكر وعثمان وعمر وعلى ؛ وصاحب النبى الذى قال فيه « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » والذى كان أخا فى الفكر والرأى لعمر بن الخطاب .

قال عنه أبو موسى الأشعرى « لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم » . ولما أرسله الى أهل الكوفه بعث اليهم يقول . « انى بعثت اليكم عمار ابن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ؛ وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » وقدر لعمار ومساعديه ٦٠٠ درهم فى الشهر ا ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله . حتى قضى أبو حنيفه فيما بعد أجمل أيام حياته ، وجرى فى خلده وفى مناهجه نهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفه ؛ اذا أبيح لنا أن نستعير هذا التعبير العربى عن أرسطو

.. وبهذا تسبين صلة أبى حنيفة بالصحابة المقربين وبالاســـلام عندما نشأ الاسلام .

سئل الرشيد عن أبي حنيفة تلميـــذه أبا يوسف فصوره له فى احـــدى جوامع الكلم قال . « . قال تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد كان علمى به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطق فى دين الله تعالى بلا عـــلم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيـــا فيما بين أيديهم ، طويل الصمت ، دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهـــدارا ولا ثرثارا .. ان سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، والا قاس مســـتغنيا عن الناس ، لا يميل الى طمع ، ولا يذكر الناس الا بخير .. » قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها

كان قرة عينه فى الصلاه طول الليل يتعبد ويتهجد ويصـــلى ويبكى ويدعو ربه قائلا : « رب ارحمنى يوم يبعث عبادك ، وقنى عذابك ، واغفر ذنوبى يوم يقوم الأشهاد » . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن فى رمضان ستين ختمة ، ختمة فى بياض النهار وختمة فى سواد الليل ، ولطالما داعب فى الناس أحاديث تقواه ، فقيل كان يقرأ القرآن فى ركعة واحده أو ركعتين فى الليل ، وقيل انه كان يصلى العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاما .

سئل عنه جار له شيعى فقال : « لا يسعنى خلاقى اياه أن أقول فيـــه الحق انه لجارى منذ أربعين سنة ما بينى وبينه الا حائط ، ما كان يصبح كل ليلة الا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كسر » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمى الوتد ، روى مسعر بن كدام أنه أتاه فى مسجده ستة أشهر ، فما رآه صلى الغداة الا بوضوء العشاء الآخرة .

كان اذا أراد أن يصلى من الليل تزين حتى يسرح لحيته ، مؤثرا أن يسجد لله وهو فى زينته ، ولو كان مستخفيا فى الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه فى بعض الأحايين اذ ينزع لباسه الذى يكون عليه والناس نيام ، ثم يتعطر ويقوم الى الصلاة

فقيل له انما يلبس الناس هذا اللباس اذا لقوا سلطانا أو اجتمعوا فى مجمع عظيم فقال النزين لله عز وجل أولى من النزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسماية درهم ، أو ألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السخاء اذ هو لم يعلمه من الكتاب الا فاتحة الكتاب فقال له : « لا تستحقر ما علمت ولدى . لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه اليك تعظيما للقرآن » .

كان جم الوفاء لجيرته وعشرته يسهر الليل شوقا بذكر الله وفى جوار داره اسكاف يحيى الليل منتشيا بلذاذات الشراب يعمل طول النهار حتى اذا جن الليل حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها فاذا دار رأسه علا حسه ورن جرسه ، بشعر الشاعر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
كأنى لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتى فى آل عمرو
أحرر فى المجامع كل يوم فيا لله مظلمى وصبرى

وذات مساء فقد الجار المتعبد جاره المغرد وقيل له ان العسس اقتادوه الى السجن منذ ليال ، فصلى صلاة الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد الى دار الأمير — عيسى بن موسى — يسأله المغفرة للجار اللصق . فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة الى ذلك اليوم . وقفل الرجلان راجعين ، هو الى داره والاسكاف الى جواره ، قال لصاحبه وهو يحاوره : يا فتى : هل أضعناك ؟ فأجاب قائلا : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا

كان ذلك الصنيع لفتة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلقة حتى صار فقيها من فقهاء الكوفة .

فلا تساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة فى طلب العفو عن سكير . فالجواب فى السؤال : انه رجل الفقه الذى لا يتحرك فى قوالب من الجبس ، أو فى مقامع من حديد ، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحى

الذى لا يصنع جاره فهذى نفسا كانت ترتع فى الفساد وحسبك هذه الشهادة لتحمل بها عن البداية

وقديما صنع مثله سعد بن أبى وقاص فاتح العراق فى صقع غريب من أصقاع العراق يوم القادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابى الخمر فحبسه سعد وجيء به ليقام عليه الحد فلما التقى الجمعان ناجى نفسه كنواح الحمائم .

كفى حزنا أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقيا

فقال لامرأة سعد أطلقينى ولك — والله — ان سلمنى الله أن أرجع حتى أضع رجلى فى القيد فقبلت السيدة عهده وحلت قيده فوثب على البلقاء ، فرس الأمير ، وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر الجيش ، وخلب لب القائد ، حتى خالوه ملكا من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة باسلامه نفسه فى سبيل الله .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير « كنت أشربها اذ يقام على الحد وأطهر منها فأما اذ بهرجتنى — أهدرتنى باسقاط الحد — فوالله لا أشربها أبدا »

كان أبو حنيفة اذا جمع المال تسابقت كفاه فى تفريقه . ذلك تلميذ سد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة وهذا فقيه فى أسوأ حال . ان مال أبى حنيفة ان لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال . واذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها واذا اكتسى ثوبا جديدا فليكس مثل ثمنه الشيوخ والعلماء .

أصاب رجلا من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى غلبه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها . أن أجدب الغناء وشح الأبناء فمس كبده من ذلك كبد وحرج على عزم السؤال . وقصد الى مجلس أبى حنيفة حتى جلس مليا تقسمه الحاجة ويقعده الحياء ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما أخفى ، وعاد الى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ فى وجهه أشياء تجرى دلائلها

بن قسمته . فتبعه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة في كيس حسبه آلاف درهم ودق الباب وقال « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئا هو لك » . ورجع مسرعا لئلا يرى ذل الأخذ في وجهه . وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدتها خشية أن تكون صدقة دمى — فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس في تلك الأيام بالأعطيات — ولكن زوجته أهابت به « حل عقدتها لعل الله يحل عقدتنا » . فلما حلها قرأ كلمة أبي حنيفة « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة اليك من وجه حلال فلتفرع بالك »

وحبس ابراهيم بن عتبة — أخو سفيان بن عيينة الفقيه — على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتتابا فلما صاروا الى أبي حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاءه رجل فقال ان على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر عني . ويؤخرني بها فكلم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال هي له أبرأته منها ، قال الذي عليه الدين : لا حاجة لي فيها قال أبو حنيفة « ليست الحاجة لك ، وانما الحاجةلي قضيت » .

تلك صدقات ونفحات في المناسبات . لكن العطاء كان يجري جريان الزمان في كل الأيام ، اذ يأمر ولده حمادا بأن يشتري في كل يوم بعشرة دراهم خبزا يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف الى بابه ، وكان يجرى على الكثير من أصحابه جراية في كل شهر عدا ما كان يواسيهم به في عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للمعوزين . لا يخاف عيله ، ولا يبقى لداره ولا لأهله الا قدر نفقتهم والباقي كله طعام للبائس والمعسر . وفي ذلك يقول « ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة الا أخرجته وانما أمسكها لقول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فمادونها نفقة ، ولولا أني أخاف أن ألجأ الى هؤلاء ما تركت منها درهما واحدا »

ونرى كيف كان ثراؤه عريضا لنرى كيف كان سخاؤه عجيبا . بل لنرى كيف كان ادباره عن الدنيا مصدرا للقوة في ذاته وأثرا لها في نفس

الوقت ، كالقوى تولد القوى فسولد منها ، وسترى كيف أخضعت له هده القوة العالم في حياته وبعد مماته فبلغ في الدنيا وفي الآخرة ما شاء بل ما شاء له السماء .

ثم انك لترى الأريحية كلها اذ يهدى اليه : أهدى اليه مديل قيمته ثلاثة دراهم فعوض المهدى قطعة خز فيمتها خمسون درهما . وجاءته هدية من الفاكهة فبعث الى المهدى متاعا مرتفعا كثير القيمة .

وأهدى اليه يوما ألف نعل ففرقها على اخوانه ، ورؤى بعد دلك بيومين يشترى لولده نعلا ... فلما سئل في ذلك قال « ان مذهبي في الهدايا تقويمها بالغة ما بلغت . والمكافأة بمثلها أومثل ضعفها ، وتفريق الهدية بين اخواني . لما قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا أهـــدى الى الرجل فجلساؤه شركاؤه ، واخواني جلسائي فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبي لهم ... وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى : « خذ العفـــو وأمر بالعرف » ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويحب الدعوة . وأرى المكافأة بأحسن منها لقـــوله تعالى « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها » ولقوله تعالى « ولا تنسوا الفضل بينكم » .

وأهدى اليه مره فكافأ المهدى بأضعاف ما أهدى اليه . قال الرجل : لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت اليك . قال « لا تقـــل هذا فان الفضـــل للسابق ، ألم تسمع الى ما حدثني به الهيثم عن أبي صالح يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : من صنع اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئونه به فأثنوا عليه .. » .

بلى . فليسعد النطق ان لم تسعد الحال .. !

رأى على أحد جلسائه سنجابا فأماهم بالخروج فقال له ناولني هذا السنجاب فتناوله وقال : ما أطرفه . وطلب من صـــاحبه بعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب . لكن الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب . سبحان الله أبيعه لك ! هو لك هبـــة مني وتذكرة . قال الاستاذ ان بعته مني بقيمته والا فلا حاجة لي في الهبة ، فان بعته مني بنفسه كان أعجب الي وأفعل

ذلك لأنى محتاج اليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور واشىراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدرا بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل الى الظفر بحملة هده الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم وبالصبر . كان فى المسجد فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه . وقام الى داره فتبعه الرجل يشتم ويصيح حى اذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلا « هذه دارى أريد الدخول فان كنت تسنتم بافى كلامك فأتمه حنى لا يبقى شيء مما عدك حتى لا تخاف الفوت » فاسحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى حل . قال · أنت فى حل .

وقديما كان فتي مهين يسلق بركليس بألسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم فى عمله لا يلقى اليه بالا حتى أوب الشمس الى الغروب فسار الى منزله ، والفتى على أثره يردد سبابه ، فلما دخل بركليس بعث خادما يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته الى داره .

وهده أمه يبجلها ويدللها ، كانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه ! لا تثق بالفتيا الا اذا جاءتها واردة من الخارج .. !

حلفت يمينا واستفته فأفتاها ، فلم ترض عما أفتى فتاها ، وأبت الا أن يفتيها زرعة القاص « الواعظ » فلم يضق درعا ، وحملها الى دار زرعه ، وهنالك قال لها صاحب الدار : أأفتيك ومعك فقيه الكوفة .. ! ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا

وأسر أبو حنيفة لزرعة أفتها بكذا ، فأفتاها .

بل كان يحملها الى دار عمر بن در على ما كان بين الدارين من بعد الشقه « ثلاثة أميال » لتصلى التراويح خلفه ولتسمعوا الى وعظ هذا الزاهد الجليل . ولتدعوا الله كما يدعوه « أتعذبنا يارب وفى جوفنا التوحيد . ! لا أراك تفعل » وهو دعاء يوائم قاعده أبى حنيفة فى الايمان كما سترى

بعد ـى رفه تمص من هدا الملك الكبير ! وأي دار كملك الدار تشع في أجوائها الزهاده والسل والايمان . وأي دوق كدلك الدي يلمس على هدا النحو رصا السده التي حملته وأرصعته وقدمته هديه فاخره للوجود

ولما أوجعه السياط وهو في قبه المحد . معنى بالسكال الدي تصبه عليه ملوك الأرض لم يكد نفتح فاه بالكلام الى حاره الا ليقول عن أمه « والله ما أوجعني السياط قدر ما آلمني دموعها » وقالت له أمه ما حمر علم يسعك هدا الصياع

قال يا أماه انهم يريدونني على الدنيا ، واني أريد الآخره واني أحار عدابهم على عداب الله .

قال نابعه الأدب الديني في فرنسا « بوسويه » في رثاء عبقري الفن الحربي « كوندية » « ألا بعدا لأولئك الأبطال الدين لا اساسه فيهم ! انهم قد ، ... برامسا واعجابنا بكل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست معهم

في أي سلك من الرجال يسلك هدا السيد الرفيع الطرار ؟ لو كان في الاسلام أرستقراطيات وطبقات لكان مكانه في الدروه العليا من الطبقة العليا خلقا وخلقا . نسبا ونطقا صله بالناس وصله بالله

كل أولئك ثم هدا نسبه الأدبي الدي يسمو به الى السابقين من أصحاب النبي ، فهم ادن أجهد الأتباع والأشياع أنفسهم ليخلقوا له نسبا غير أنساب الموالي ، وزعموا له من مسببات الغرور أنه سليل الملوك وأن اسمه أو معناه ورد في التوراه ، وأن النبي عليه الصلاه والسلام قد بشر بقدومه ؟

انما يتفاصل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسلمون سواسيه كأسنان المشط وكالبنيان يشد بعضه بعضا ، وهم سواء في الحج ، وفي الصلاه وفي الزكاه ، وفي الجنايات ، عين بعين وسن بسن ، والجروح قصاص

سوى النبي بين نفسه وبين مولاه زيد ، وأمر أسامه بن زيد على الجيش وهو حدث ، وفي الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص

وعيرهم فلما بويع لأبي بكر قبل الجيش كلم أبو بكر خليفه القوم أسامة في عمر خليفه الغد ، ليأذن له في التخلف ففعل وظل عمر ناديه كلما لقيه . السلام عليك أيها الأمير ويقول « اني لا أدعوك الا به لأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وأنت على أمير »

ولما شرع عمر يستخلف قال لو كان سالم مولى حذيفه حيا لوليته .

في تلك الأمه التي لا تعرف شريفا ومشروفا نهض الموالي بأفدح الأعباء في الحرب والسياسه وفي العلم والفقه .

وفي عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمه وظل عكرمه رقيقا حتى مات ابن عباس فباعه ولده على بأربعه آلاف دينار فقال لعلي « بعت علم أبيك بأربعه آلاف دينار » ! فاستقال علي من بيعه واعتقه !

وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يذكر ومعه مولاه نافع ؛ وأنس بن مالك لا يكاد يذكر الا ومعه مولاه بن سيرين ؛ وأبو هريره لا يكاد يذكر الا ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز !

بل كانت دوله الفقه للموالي في بعض الأمصار ؛ كالبصره حيث كان على رأسهم الحسن البصري ، وفي مكه كان مجاهد بن جبر . وعطاء بن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالي

وفي سوق النجار هذه علا صوت السودان فولى الفتيا بمصر يزيد بن أبي حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقله ، وهو الذي تعلم عليه امام مصر العظيم الليث بن سعد .

ثم من هم الموالي ؟ الموالي هم القوم المنسوبون الى بيوت العرب بعقد ولاء ؛ ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا في الاغلب الاعم من أهل البلاد المفتوحه كمصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن يملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحرارا ، وجرت كلمة الموالي في اطلاقها على أن تشتمل من ليسوا عربا من أهل هذه البلدان لأنهم كانوا يسلمون على أيدي المسلمين ؛ فمن أسلم على يد مسلم

كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا مواليهم ، ولم يك بدعا أن يظهــر الفقه والعلم على يد أهــل هذه البلدان المفتوحة : فيقال ان الفقه بعد موت العبادلة الأربعة ــ أبناء عباس وعمر وعمرو والزبير ــ قد انتقل الى الموالي اذ كان الموالي أهل حضارة رفيعة لم يمسخها الغزو ، لأنه لم يك غزوا بربريا ، وانما كان غزوا فكريا ، فتــح الله به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المفتوحة ، فأنزل رحمته عليهم في شريعته اليهم وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الايمان غدت من بعد تيارا من التفتح الذهني أخرج للأمة ما أخرجت من الآيات وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه في الواقع هو الدين نفسه ، أو القدر الأوفى من الدين وتلاقى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، فمنح العرب الشعوب المغزوة دينهم قيما ، ولغتهم فصحى ، وقدم الموالي من جانبهم أسباب حضارات فاخرة ، وأصول تفكير عميقة ، واشتاع الشريكان أبد الدهر ، فازدوجا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الاسلامية على الانتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعا قوية جديدة الطراز .

واذا كان ثمة وقائع تشير الى التفرقة بين العــرب والموالي فقد صارت حديثا في التاريخ بعد أن توج الازدواج بالاندماج .

سأل هشام بن عبد الملك جليسه في فاتحة القرن الثاني : هل لك عــلم بعلماء الأمصار ؟

قال : بلى ياأمير المؤمنين .

قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .

قال : فمن فقيه أهل مكة قال « عطاء بن أبي رباح » .

قال : مولى أم عربي ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قال « طاووس بن كيسان » .

قال : مولى أم عربي ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال « يحيى بن أبي كثير »

قال : مولى أم عربي ؟ قال . مولى !

قال . فمن فقيه أهل الشام ؟ قال « مكحول » .

قال مولى أم عربى ؟ قال . مولى !
قال فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال « ميمون بن مهران » •
قال مولى أم عربى ؟ قال : مولى ؟
قال . فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال « الضحاك بن مزاحم » .
قال · مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال . فمن فقيه أهل البصره ؟ قال « الحسن وابن سيرين »
قال « مولىان أم عربيان ؟ قال : موليان !
قال . فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال « ابراهيم النخعى » .
قال . مولى أم عربى ؟ قال : لا بل عربى!
قال كادت نفسى تخرج ولا تقول واحد عربى ! .

قال ذلك هشـام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه ، لكن الخليفة الذى كان فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الاسلام قال غيره . فلمـا سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالى صاح فيهم .. · (ماذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون ؟)

والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله (لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب « ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

ووقف رجلان مولى وعـربى على مجلس لبنى العنبـر . والعربى على حمار والمولى على ناقه وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا يكتب . فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا الى العربى ، فقبض يده عنهم وقال لا ولا كرامه ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمولى قبل العربى فأسكتوا ، فانبرى واحـد منهم فقال له بدأنا بالكاتب قبل الأمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار

هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأحـمر هو النظر الذى ينظر به الاسلام الى عنصرى كيانه قد أنطق الله به فتى من العنبر

كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمد الدولة العباسية حتى استقرت بها الأسباب والأولى ترجموا ، وألفوا ، ولقحوا الحضاره العربية بلقاح

الفرس ، واليونان ، والنبطيين ، والكلدانيين . والأشوريين ، والبابليين ، والروم ، والهنود ، وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة اسلامية جامعة .

وفى العهد العباسى كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالى ، كان عمارة ابن حمزة بعد الصوت فى بلاط المهدى فدخل عليه يوما فأعظمه فقال رجال من القرشيين من هذا الذى أعظمه الاعظام كله قال عمارة بن حمزة مولاى فسمعها عمارة فرجع يقول ياأمير المؤمنين جعلتنى كبعض حاشيتك وفراشك . أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى ؟

وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك كافور ـــ الأسود الزنجى كما يقول المتنبى ـــ وأبو المسك ـــ كما يناديه أيضا ـــ كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبى كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان هذان الموليان اللذان بصيران دون مجدهما كل مجد السادة هما اللذان صنعا الاسبانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفى التاريخ قديمه وحديثه ، ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها رمز أعلام التاريخ الاسلامى وحروف الهجاء فى آيات فخاره

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبى حنيفة وأمه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذى سعدت به الدنيا فوضعهم فى التاريخ حيث يوضع

فلا سل اذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما فخار ولدهما اذيقال انهما موليان ، وفاهمافخار هذه الأمة الاسلامية على الزمان. بل قل لثابت ولزوطى ولكل من حاول أن يعض من شيهما مقالة المتنبى لجدته

ولو لم تكونى بنت أكرم والد فان أباك الضخم كونك لى أما

ان هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها برغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب ولئن شاع ذلك النبوغ فى السياسة أو فى القيادة أو فى الفن . فانه فى الفقه ، وللوهلة الأولى . يستوقف النظر ،وبخاصة

فى فجر الاسلام ، ففى الفقه نصوص القرآن والأحاديث والسنن . فكيف تسنى النفوس الوافدة من بعد خصائص الأمة العربية فى سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبز الخلص من بنيها !

هؤلاء الموالى الذين أسلفنا المقالة فيهم . وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته يقولون نحن من الفرس من أصبهان ؛ وهذا ابن حنبل أصله من مرو ، والطبرى من آمل طبرستان ، وابن جريج رومى النسب وربيعة الرأى فارسى الأصل ، والشعبى علامة التابعين كانت أمه من سبى جلولاء . والحسن البصرى كان أبوه من سبى ميسان ولو عمدنا الى الحصر لسقنا الكثرة العالية من أئمة الفقه والعلم ، ولكنا نقتصر على بعض الأمثال ان اللغة نفسها قد سعدت بالموالى مثلما سعدت بأربابها هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه « ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » كان من الموالى ؛ وهذا سيبويه يضع قواعد النحو ! والكسائى وارث علماء البصرة ؛ وتلميذه الفراء كان ديلميا كمهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والفارابى كانوا موالى أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع سيد النقلة الى العربية .. وهو أول من أشار بتجميع الفقه وما زال تجميع القوانين الشرعية الى اليوم أمنية رجل القانون .

نزل الوحى فى شبه الجزيرة كالغيث ؛ وسال من قمتها الى الوديان الاسلامية طرا حسب قدر قراره ؛ واحتمل السيل فى قصابه تلك المدنية الرابية لاتقفها الحدود ولا السدود فتشرف فتغرب بطاح آسيا . وعرب لتصب فى المحيط الأطلسى بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتسبت شبه نهضة الفقه بالكوفة ، ثم تلقى اللواء فى مصر جامع عمرو ؛ والأزهر الأغر ؛ فأمسى الجامع العظيم على حضارة الاسلام ألف عام ليؤديها اليتا فى القرن الرابع عشر والى كل القرون .

ان هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور ، فخلبت لبه قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والاخلاق العامة والزكاة . والصلاة اليومية المعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوى العام الى جوار بيت الله الحرام والمؤتمر الأسبوعى الخاص فى يوم الجمعة فى كل مكان ،

وحرمات البيوت وحقوق المعاملات ، والتعـاون ، وأخلاق السلم والحرب ، ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، دلك وما اليه من خصائص الاسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر ايمانه ، وكلما تغلغل فيه اخلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجبا •

وبهدا تمثلت الشريعة الاسلامية الملل والنحل الشسى فصارت أمةواحدة هى الاسلام ، لا فضل فيها لعربى على أعجمى . ، وانما الفضل بالنفوى .

ولئن كانت النعرة العربيـة ، قد استبدت بهشام بن عبـد الملك فانما جاهلية دمها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « يا أيها الناس ان الله قد أذهب عـكم حمية الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها ، فالناس رحلان بر تمى كريم على الله، وفاسق شقى هين على الله والناس بىو آدم .. » ولقد فاب أمر المؤمنين أن المؤمس موال وعرب وأن الاسلام للعالم كله لا لحزيرة العرب وحدهـا وأن نبوع النوابغ من أصان الدولة وانما هو أفحر النحايا للدين الجديد فى مطلع سعده وفاتحة عهده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيره العرب قد سبقب فاحتفظت بكل شيء ، ولم تبق للناس من دونها شىئا •

فاته أنها أحرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاه والسـلام ، وحسبها هو ولو انه ليس لها وانما هو للدنيا جمعا .

لقد اعتز الاسلام بأهل البـلاد المفتوحة وتألف فى سماواته حضـارة دمشق وبغداد والقاهره والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز الثقل كان دائما فى وسط الجزيرة وحيثما كان المسلمون ولوا وجوههم شطره مبتهلين الى صاحب البيت العتيق بمكة مصلين على صـاحب القبر الشريف بالمدينـة .

الباب الثاني

التــاجــر

« لا تشاور من ليس فى بيته
دقيق فانه موله العقــل »

(الشافعى)

كان أبو حنيفة حرازا يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف . وقديما كان نبي الله ادريس أول من خاط الثياب ؛ وكان الصديق أبو بكر بزازا ، وكثيرون من جلة الصحابة كانوا تجارا .

ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل في التجارة ويقول « أريد الثراء ولكني لا أريده من الظلم » ؛ ويبيع الزيت في مصر ليسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبي حنيفة بألف عام كان اسبينوزا يصنع العدسات .

كان أبو حنيفة تاجرا صناعته الفكر ، ومفكرا يعمل في التجارة ، ومن ثم كان توفيقه التجاري ، الذي انحدرت الينا أنباؤه مع التاريخ . ومرده فضلا الى دراية ذات شعب ، وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر الحديث سموا عن الاعلان ، وهي ذرائع تكفي احداهما للنجاح فكيف اذا اجتمعت لدى رجل كله لباقة ؛ وأناقة ؛ استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم ؛ وقدر لهم مع ذلك أن يجدوا في الأرض مراغما وسعة تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الاغنياء مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم في معرك الحياة بالخروج الى السوق العام ؛ في صميم الميدان ، أو في عرض الخصم ، بالكدح والدأب واللغوب

بهذا حل أبو حنيفة العقدة التي باراتها المفكرون جزني ملسيين . عقدة الفقر الذي عود الناس أن يلازم الفكر ، والمفكر الذي يرحل رحلة الحياة الدنيا جوعان تعسا تهدر المسغبة مرآته ، يقدح فكره ألمعية ولوذعية ولكنه لا يستطيع أن يحيل هذه الهمم الهائلة التي تسن بحس دراهم معدودة ! ويتراءى له بريق النعماء ويعجز عن الدنو منه والدلف اليه فيجالده عنيه مركبات النقص ، ويحيق به المسالك المسادحة ، فينوء بالحياة ملتاثا باءت به الحياة ويخرج منها محروما مقترا عليه في الرزق

وفي حاضرنا كان فقيه الكوفة من أكبر تجار الكوفة ، فلم يك ممن يجلسون الى الأرض ويرفعون أكف الضراعة الى السماء فانالسماء لاتمطر ذهبا ولا فضة ، أو يمدونها الى الأمراء فان مالالأمير ليس ينعش العالم ،

أو برضون أن تنهض حظوظهم العواثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ في حلبة من الحلبات ليروا مبلغ ما تكبو أو تصلى ، أو تجلى .

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم ابراهيم بن الأغلب بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فمن ابن الأغلب عليهم بعطائه فقال أسد « لا عليه انما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقى ... » ولم يكن أسد ليقولها الا وهو القاضي العامل في القيروان ، والفاتح الغازي الذي سار على رأس الجيش في حصاره لسراقوسه بصقلية سنة ٢١٣

عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قرب التقوى من الله ، وكلما اغتناه الحالل عن الحلول أدناه الى الحق وإذا لم يكن الفقه أداه للغناء بداول الدنيا كلها بين أنامله

وأدرك الشافعي ذلك من بعده بنصف قرن فقال « لاتتشاور من ليس في بيته دقيق فانه موله العقل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه الى البأساء والضراء بمراس كان من الرهبنة المصطنعة ، والسبل المؤدى ، في حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياه كأنه يعيش أبدا ، وفي أمة يقول رسولها ان أفضل الكسب (بيع مبرور وعمل الرجل بيده) و (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .

و (نعم المال الصالح للرجل الصالح) كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد — امام مصر — ذا ثراء عريض يصنع الدنانير في الفالوذج فيس أكل من صحبه أكثر بالله دنانير أكثر ١٠٠ وكان صاحبا لمالك ابن أنس امام دار الهجرة ، وكان مالك يقول عنه (حدثني من أرضى به من أهل العلم) ومع ذلك كتب اليه في تثريب يقول (بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق) .

وأدرك صفاف النبل لذع الضربة الموجهة اليها من شمس الصحراء فاستعان الليث عليها بالله ، يدفع عن نفسه مذمة لبس الرقائق أو أكل الرقاق ،

فكتب اليـــه يقول (و'ل تعـــالى   فل من حرم ريبه الله التى أحرج لعـــاده والطيبات من الرزق) •

وعاش الليت فى جاهه وماله كأصحاب البيجان فلم يسع دلك أن يقول عنه الشافعي انه (أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به) •

كانت الكوفة عاصمه العراق ، وكان العراق أثمن جوهـــره فىالتاح ، فيه ست كور ، أولاها كورة الكوفة ، وكان له شأن أى شأن ، فيه النهران يجريان ، بالرخاء والعمران ، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس وحضاره الروم ، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضـــاره الدين الجديد . كما تلاقى رحال من كل رأى يجاهدون فى سبل العلويين وفى سبيل الأمويين وفى سبيل ابن الزبير وفى سبيل بنى العباس ، وفى سـبل الأمة • أو فى سبيل أنفسهم ، فأى جيشان بعناصر الحياة ، ونوازع النماء ، وأسباب القوة ، كانت تجيشه هـــذه الكوره ، وأى مضطرب للفتى المثقف والتاجر الحصيف ثمة ! وبخاصة اذا كان يبغى النجاح بمعناه الانســـانى لا المالى ، وبمعناه الذى أراده الله لا معناه الذى يحصى ويعد بمقدار ما يسح من النقد ، بل همه وكبر مناه أن يسلف لنفســـه عند خالقه قدم صـــدق بما قدمت يداه •

بدأ أبو حنيفه حياته فى التجارة بطبعه الطـــابع العلمى ، فدخل السوق يدرس على أستاد يعلمه التجاره سماه للامام الشعبى يوم وجهه للدرس النفس كما مر بنا ، وهى ظاهره تتراءى لك فى حياه أبى حنيفة فى غير موضع مردها الى ما فيه مزاج جامع بين العلم والعمل ، فيدرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملى محض ، حتى اذا كان فى ريعان حياته قدم اليه رجل تاجر فقال له (أراك تتجر ، التجارة اذا كانت بغير علم دخل فيها فســـاد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب) ولئن كان ما عناه هو العلم العام ، ان الطـــابع العلمى يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناه هو الفقه ولعل الفائدة التى يفيدها التاجر بالعلم العام خير وأنفى فى العمل التجارى

وهكذا دحل الى السـوق مدخلا كريما فأضحى فيـه من المجددين والمجدودين ، احتار لدكانه مكانا من أبرز أمكنة الكوفة فى دار ليست هينه على التاريخ ، هى دار عمرو بن حريث ـ الصحابى ـ يلتقى بها المؤرخ حيث يجد الجد فى حياه العراق ، وحيث يكون للأماكن شأن .

ففى سنة ٨٢ سار ابن الأشعث من البصرة الى الكوفة لقتال الحجاج ، وثار الكوفيون بواليهم ، ومالوا الى ابن الأشعث وسبقت اليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث وفى سنة ١٢١ خرج زيد بن على وخرج أهل الكوفه معه فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث، فهى لا مرية كانت من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفـاتحون وتدور أرحاء المعارك .. وحيث سوق الحرير .

وانك لتتصور مظاهر الذوق فى ترتيب دكانه مما كان عليه فى خاصـة شأنه حسن هيئة ، وبره وتفكر وتعبد ، بل انك لتكاد بعـد هذه القرون والمسافات تتنسم العطر يتأرج من أردانه وزوايا دكانه ، وتتصور النساء اذ أقبلن أو أدبرن ، بائعات أو مشتريات ، يغضضن من أبصارهن ولا يبـدين زينتهن . يدلفن الى الدكان كأنما يعدن الى الدرس ، وينفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كن من الدكان فى المحراب

كان صاحب هذا الدكان يقول (« من وصف خف امرأة صغره أو كبره فقد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلا » ويقول : « اذا قامت المرأه من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد » وكان رحمه الله اذا مشى فى الطريق ، لا يعرف الرجل من المرأه . قال فى وصية لأحد مريديه « .. واذا مشيت فى الطـريق فلا تلتفت يمنـة ويسرة بل داوم النظر الى الأرض .. ولا تماكس بالحبات والدوانيق .. » فـاله من رجل رفيع وتاجر رفيع .. يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه فلا يبخسها بانفاقها فى المسـاومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحبات والدوانق أم بغير الحبات والدوانق .

جاءت عجوز الى دكانه تطلب ثوبا وتوسلت اليه بسنها أن يرفق بها .

قال . دونك هذا الثوب يا أماه ..

قالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لاتسخر مني وأنا عجوز لا حيلة لي ..!

قال : انه لكذلك . لقــد اشتريت ثوبين فبعت أحدهمــا بالثمن كله الا أربعه دراهم وهذه الدراهم الباقية ما أطلبه منك ثمنا للثوب الباقى .

أضف الى هذه الصوره والى آداب التجاره ، أن الحانوت ليس محلا للمدارسة ، وان تولى التلاميذ البيع فيه بين الفينه والفينــه وهكذا تصبح دار بن حريث خالصة للتجاره ، أما العلم فهى دائما فى مكانه لا فى السوق، ولا فى الطريق .

فى ذلك الحانوت يجلس ســيد مكيث غير عجل ، محمود التجارب ، يقبل الناس بقول حسن ،وصفاء المحيا ، مبسوط الطبع ، مسنون الهمه ، ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس ، لايمايل ، ولا يتحيف ، ولا يستكبر ، ولا يســتكف يقصده فقط الثلب فألمه ، ويسر به الرجل فجلس اليه لغير قصد ولا مجالسه ، فاذا قام سأل عنه فان كانت به وعكة وصله ، وان كان به مرض عاده ، حتى يجره الى مواصلته

أما صدق المعاملة والنفره من المماكسة ، فكانما كلمه السر فى دكانه ، لكأنما كانت كل ألواح « الثمن محدد » مرسومه فى مخيلة حرفائه وعملائه قبل أن تشد الى جدر الدار ، فلئن كان صاحب الدكان أســتاذ الاساتذ فى الجدال ، ان لكل مقام مقالا . وليس هنا مقام الجدال .

وهو لايهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الانســان ، بل انه ليقطع أبعــد الاشواط فى مضمار الصفقة ، فلا اعلان ، و لاتشبهة اعلان ، لما قد يكون فى الاعلان من ايهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس فى ذلك العصر حديثى عهد برساله الرسول صلى الله عليــه وسلم ، تأسرهم الكلمة اذا سبقت ولو فى السوق ، فكيف بها اذا خرجت من فم الاستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفى دكانه

طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد أخرج ثوبا ، فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا : صلى الله على محمد ..!

قال أبوه : مه قد مدحته ..

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشترى فى السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد الى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة الى الثوب . وأظهر ما يكون استعدادا لدفع الثمن ، ولكن الشيخ فى عمر محاشة ولا مشاقة ، بل فى سماح واسجاح ، رفض أن يبيع .

وعاد المشترى أدراجه .

وفى ذلك الحانوت بضاعة لاتعرضها الحوانيت الاخرى فى سوق الخزازين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة الى الكوفة ليشترى لبنته جهازا، فسمه الناس على الجهاز فى دكان « الفقيه الخزاز » وان الذين يعرفونه ليحذرون الذين لايعرفونه من المماكسة ، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

واذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشتريا فقبض منه ألف درهم وافر ، وباهى التلميذ بين يدى أستاذه بما صنع رد الاستاذ ما زاد على الثمن ، بعد اذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها .

وكما كان التفكير أداته فى الفقه ، كان الفكر أداته فى التجارة . كان الثمن فى دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف اليه نفقات الشراء والبيع مقيسه بمقياس العدل والعقل ، فكما كان القياس الأعظم فى تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان القياس المنصف فى ثياب الخز فى دار ابن .

حقا ، انك لاتستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجارى قد جاءه عن الفقه أم أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده ، لكن ثمه قدرا منيفا تستطيع أن تقرره بين الجوابين ، هو أن الصدق والحزامة فى التجارة قد هيأ

له من النجاح أسبابا مواتية للتفرغ لدين الله ، فى روحانيه المعهد ، يستقبل تلك اللمحات التى يبعثها الالهام فى الكون كومضات النور . والسعيد السعيد من رآها ، وكانت ملكاته مستحفزه تتلقاها ، كما تستطيع أن تقرر أن التجاره ربطت بين دنيا الفقه ودنيا الناس فى أفكاره ، فغدا فهمه فقه الحياة التى يحياها ، ورحم فيه ضعف الانسان ، وكان التسامح كبرى قواعده ، وتحمل مسئولية المخاطره فصدع بالرأى فى مزاج موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمنقول ، وامتد بصره فشمل المستقبل ووضع لاحتمالاته مايحكمها من الأصول متحرزا — كما قال — من البلاء قبل نزول البلاء .

وكما أثرت فى الفقه التجاره ، أحدث الفقه فى التجاره آثاره . فلئن كانت فى الفقه العصرى مقولات مسلمه (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصح معها العقد وان كانت ستزريها قواعد الآداب ، ان الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليتمم مكارم الأخلاق .

بعث بمتاع الى حفص بن عبد الرحمن شريكه فى التجاره وأعلمه أن فى ثوب منه عيبا فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمنا كاملا لثوب غير كامل — وقيل ان الثمن كان ثلاثين ألفا أو خمسة وثلاثين ألفا — فأبى أبو حنيفة الا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشترى ، ولكنه لم يهتد الى الرجل فأبى أبو حنيفة الا فصالا من شريكه وتاركا .

بل رفض أن يضيف الثمن الى حر ماله وتصدق به كاملا .

ذلك مثله لانصاف المشترى من نفسه ، وهذا مثله اذ ينصف من نفسه البائع . جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم ، قال بكذا . قال انه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف !! بل جاءته امرأة بثوب خز يبيعه بمائة فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة ، مائة ، حتى قالت أربعمائة قال هو خير من ذلك ، قالت تهزأ بى ؟ قال هاتى رجلا . فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم .

وصدقت المرأه أنه لم يتخذها سخريا . وصدقت كذلك أنه لم يكن يريد الاحسان اليها وانما نفع الله به البائع والمشترى

فهو يصف المشترى منه والبائع له ، ويصف من لايبيع له ولايشترى منـه ، كل أولئك ونظائره فى لين وخفض جناح ، وسلاسة طبع وسلامة أسلوب ، فاذا راح يقتضى دينه من مدينه لم يجلس فى ظل جداره !! قالوا انه لايريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن يفىء الى ظلاله اذ يجىء الى داره ، وهو الورع الحق ، لكنه قبل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تصيف الى عسر المدين الحاج الدائن ، اذ يرصده فلا يجرى المطال بالاحتلال وان كان الاحتلال مجرد فىء الى الظلال .

ترى هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزار بمكة الذى وصفوه بأنه كان رجلا وسيما « .. وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته ...»!

ذلك أبو بكر الصديق ، وهذا أبو حنيفة ، وقد كان بينهما تواصل ذهنى يتراءى خلال ذلك التشابه . فى العمل وفى الطباع ، حتى أن أبا حنيفة كان يأخذ بأبى بكر وأفعاله وخصاله

وذات يوم بعث الى فتية يقول لهم . ان أباكم أودع عندى مائة وسبعين ألفا فخذوها ..! ولم يشهد عليهم فانه لم يكن أشهد عليه ، وهو لايريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال .

فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفا ردت لذويها

وازدهرت تجارة أبى حنيفة أيما ازدهار : ان هذا الانفاق الضخم لمحاربة الفقر ونشر العلم كما سنرى بعد ، وهذا التصدق بعشرات الآلاف ، أو التجاوز عنها ، لاتسمح به الا السوق المالية الوطيدة الأركان والسماحة كل السماح ، حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل ان بعض أعداء أبى حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبى حنيفة استعملت فى تقوية ابراهيم بن عبدالله (بن الحسن بن الحسين بن على) اذ خرج على أبى جعفر وانه لهذا حبس أبا حنيفة .

الى هذا القدر بلغت هذه الأموال أن تساعد فى ازالة دولة واقامة دولة ...!

بهذه القواعد التى بسطنا بعضها كانت دار ابن حريث تضرب الأمثال كريمة للناس

انك لاتستطيع أن تقنع الناس بالرأى ولا بالعلم ، فالدنيا مدرسة مكبرة ، والحقائق لاتفهم مصوره ، ولا مجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق ، والناس فى الدنيا كالتلاميذ فى المدارس لن يفهموا شيئا الا اذا صنعوه بأنفسهم ، أو صنع على أعينهم بالرفق وحسن الأداء ، ـ والكلام لايهدى قدر ما يهدى العمل ، وما تهدى القدوة ، والقدوة فى العلم هى أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد أو تصبه من قوالب .

أذن النبى لصحبه وهم على سفر فى الافطار شهر رمضان وبقى هو صائما فلم يقطعوا صومهم حتى عمد الى الفطر، فخفوا الى الاقتداء بفعله وأفطروا ...

ونظر فتيان من أسباط الرسول عليه السلام ـ يجرى فى عروقهما دم الهدى والرسالة الى أعرابى على شاطىء الفرات يخفف الوضوء فقالا لنفسهما ، لو قلنا له غلطت ربما انتفخت أوداجه ، ولا ينقاد الى الحق فقاما اليه ، وقالا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بالوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلى عندك ، فان كان عندنا قصور فعلمنا ، فتوضآ وصليا كما عرفا عن جدهما عليه الصلاة والسلام فثاب الشيخ ورجع عن صنيعته .

ان قاعده الاصلاح فى حل هى أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث فى اصلاح سواه فالنفس هى التى تسمع لا الأذن وفى الناس لجاجة تنبعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم الى الاستمساك بما هم عليه والاستسلام اليه .

خطب عمر بن الخطاب يوما وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون؟ قال سلمان : لانسمع .

قال عمر : ولم ـ يا أبا عبد الله ـ ؟

قال : انك قسمت علينا ثوبا ثوبا ، وعليك ثوبان .

قال : لا تعجل . ونادى : يا عبد الله ! فلم يجبه أحد . قال : ياعبد الله ابن عمر ـ ابنه ـ .

قال : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : نشدتك الله ، الثوب الذى ائتزرت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم .

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع .

ذلك سلمان الفارسى أو النــاس جميعا .. ومع الخليفــة الذى خطب عــدما تولى . ألا وانى أنزلـمن نفسى مــن مال الله بمنزله والى اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف تقرم البهمة الاعرابــة القضم (الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الاكل بأقصى الاضراس) .

وقديما قيل : خير من الخير فاعله . وشر من الشر فاعله .

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هده الأراء فقال : (ان النــاس أحسنوا القول كلهم فمن وافق فعله قوله فذلك الذى أصاب حظة ومن خالف فعله قوله فانما يوبخ نفسه) ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام (ان فى جهنم أرحاء تدور بعلمــاء السوء ، فيشرف عليهم من كان يعرفهم فى الدنيا فيقول ما صيركم فى هذا وانما كنا نتعلم منكم . قالوا كنــا نأمركم بالأمر ونخالفكم الى غيره) .

وقال (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا) .

من أجل ذلك كان الزعماء العــالميون قوما زاهدين ، وخاض القــادة المبرزون معاركهم فى الصفوف الأولى وفى الطليعة . كخالد بن الوليد وعمر ابن الخطــاب ، وعمر بن عبــد العزيز ، وغاندى فى الشرق ، وكروموبل ، وسالازار وديفاليرا فى الغرب .

ومن ثمة تدرك أثر القــدوة فى عمل التاجر الكريم النفس والــكريم الفعــال .

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاما وكان رجلا صالحا روى عن شريكه الحديث والفقه ، ولا ينبيك عن الشريك مثل الشريك ، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمير التجارى للزميل التـاجر . وما أدراك ما فى الضمير التجارى : المحالب المخصبة تقطر من دم الضحايا ، والمخارج ، والحيل ، والسعار المعذب المندفع نحو كل ما هو مادى ومالى ! الى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجاره .

فلنسمع اذن لحاصل التقرير الحسامى عن الشركه حيث يقول حفص (جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم ، فلم أر أحدا أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة) .

ولئن سمعت أحاديث الورع فى مجال الورع فمن العجب حقا أن يباهى الشريك التاجر بورع الشريك التاجر وزهده ونسكه وعلمه ، مجتمعة ، كل أنواع الفقهاء والزهاد والنساك مجتمعين .

ولنسمع اليه مرة أخرى يقول بعد أن شاركا « فى طول ما صحبت أبا حنيفه وخالطته لم أره يغلى بخلاف ما يسر ولم أحدا يتوقى مما لا خطر له مثلما كان يتوقاه ، وكان اذا دخل عليه شبهه من شىء أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله »

ذلك رجل من أقوى الرجال ، يبطن مثل ما يعلن ، ولا يصنع فى السر الا ما يصنعه فى الجهر ، فيرى الله أمامه ولا يرى الستر .

ولئن جاء فى الحديث أن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصدق أو كان من أصول فقه أبى حنيفة أن الشك لايزيل اليقين فان هذه الأصول للناس وليست له . ولو كلفته جميع ماله .

ان أبا حنيفة قدوة للناس فى علمه ، فلكن قدوه للناس فى عمله ،ولأخذ نفسه بالشـدائد ، حتى اذا نقلوا عن الأصل ، وخف الأثر فى النقل ، وصل اليهم ما نقلوه وفيه كل الفضل .

قال لأبى يوسف « ولاترض من العبادات الا بأكثر مما يفعله غيرك فان العامة اذا لم يروا منك الاقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها يعتقدون فيك

السوء وقلة الرغبة فيها ويعتقدون أن علمك لاينفعك ولا يفيدك الا ما أفادهم الجهل الذى فيهم . وكن من الناس على حذر ، وكن لله فى سرك كما أنت له فى علانيتك فلا يصلح أمر العلم الا بأن تجعل سره كعلانيته » .

ولما نهاه الأمير عن الفتيا فانتهى ، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة فى داره فلم يجبه ، فقال يا أبت مالك لا تجيبنى قال « أخاف أن يسألنى السلطان هل أجبت أحدا فلا أستطيع أن أقول شيئا » .

ولقد كانت لديه مندوحة فى أن يفتى ، لكن الرجل القدوة لايرى لنفسه الرخص ولا المادح ، وانما يؤثر فى حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون حرفى الوفاء .

على هذه القواعد وأشباهها قام ذلك البيت التجارى فى دار ابن حريث بضع عشرات من السنين ، تكفى للتمكين لتاجر صيت راكى الأحدوثة نقب فى البلاد ذكره وذكر عروضه من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يحف به الحسن من كل جانب ، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة ، والوجه الصبوح خطاب توصية فيه القبول .

جاءت تكاليف الاسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين عما يسأل الناس عنه

كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر ، ويأتى على أهله الليالى ما يجدون فيها عشاء ، ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهى مسندته الى صدرها ياعائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هى عندى ، قال فأنفقيها ، ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها فلما أفاق قال هل أنفقت تلك الذهب ياعائشة ؟ قالت لا والله يارسول الله فدعا بها فوضعها فى كفه فعدها فاذا هى ستة دنانير فقال : ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يوميا درهمين هما كل المخصصات العمرية ! بهذا استطاع أن يضرب ولاته بالدرة ! ويضرب عامله على البحرين

« أبا هريرة » حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله مابعثناكم لتتجروا فى أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص ، من أين آل اليه المال ويشاطره أمواله .

مر يوما ببناء يبني بآجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعامل من عمالك قال : أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها وشاطره ماله ! ولما أخذ يستحلف قالوا له لو أنك عهدت الى عبد الله — ابنه — فقال « بحسب أهل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد .. ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافا لا لى ولا على » .

لكن صاحب هذه النفس العنيفة يرى فى فحمة الحلك أطفالا جياعا فيحمل اليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم والدخان يخرج من خلال لحيته !!

هذه العمريات التى تذر المفكر فى دهشة المتحير ، وهذا التوفيق الذى سددت به العناية الالهية خطى أبى بكر وعلى وأبى عبيدة وسعد ابن أبى وقاص وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم فى كل فن وضرب ، وما تبع هؤلاء جميعا من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم التاريخ الاسلامى ، ليست الا أصداء متفرقة لصوت واحد ، هو صوت المثل الأعلى من الرسول عليه الصلاة والسلام . مايزال يدوى خلال القرون حتى تقف هذا الكوكب السيار عن أن يدور .. وانما يردد الصدى ذلك الرجع البعيد المدى ، فتهتز له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة لأن الصوت الأصيل الذى يدوى فى الأرض هابط اليها من السماء . تصيب نفحاته من أحاطوا به ومن لم يحيطوا . فانتقلوا من الجاهلية الى هدى الاسلام وعدوا حكاما وحكماء وعلماء ومشرعين وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالا فى الوغى يجدلون الأبطال . ليس ما أحدثوه الا آثارا مما أحدثه الصوت الأول فيهم . فلما صعدت روحه الى بارئها كانت كوعاء العطر اذا فض فدامه فاض العطر فى كل مكان وانتشر !

ما عمر بن عبد العزيز ، ولا المأمون ، ولا أبو حنيفة ، ولا الشافعى ، ولا ابن سينا ، ولا ابن رشد ولا طارق بن زياد وأترابهم فى كل فن من فنون

العلم أو السياسة أو الحرب الا رجال نضرم حدوه الايمان فيهم حرارة الرسالة التى كانت تغمر قلوبهم بالنور •

انما هى الزعامه الصحيحة الملأى باليقين تخلق الناس خلقا جديدا وتنعكس على أنفسهم شتى الانعكاسات ، تحدث الأحداث مقاربة أو متباعده ، فى العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلا تهم المسافه الزمنية والمكانيه ، وانما يهم الايمان الصحيح الذى يخلق القوى العارمة فيتخطى حدود الزمان والمكان •

وسنرى بعد كيف كانت حياة أبى حنيفة قدوه للفحول والأبطال •

كان أبو حنيفه خزازا ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجارا وصناعا •

هذا الامام الخصاف أحمد بن عمر بن مهير ، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبى أبى حنيفة ، كان الخصاف يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ، ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه فى حين يعيش من خصف النعال .. وهذا الكرابيسى يبيع الكرابيس ، أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فاذا على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملى فى « صناعة الأقفال » وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطا ، والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل فى الجص ثم هؤلاء الصفار من بيع الأوانى الصفرية (النحاسية) والصيدلانى (من بيع العطور) والحلوانى الذى كان أبوه يبيع الحلوى ، والدقاق ، والصابونى ، والنعالى ، والثمالى ، والقدورى وغيرهم كثيرون سيشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضاره الاسلامية ، أن هذه الأمة حققت فى العصور الأولى ماجاهد العالم العربى عشرات القرون لتحقيقه، ولما يكد يحققه ، أن ليس ثمة مهن رفيعة وأخرى وضيعه وانما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم ، ويشهدون بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأورثت كل الناس سنه ، وبمبلغ ما أعزت الصناعه فجعلت لها سهمها المسلم فى أسمى الذرى ، فنرى ، فيها ما لا تكاد تراه فى أى أمة أخرى

الفقهاء الصناع والصناع الفقهاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معا ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوبا .

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز ، كان العلماء عنده تلامذه ، كما قال ميمون بن مهران ، وعبد الملك بن مروان الذي قال عنه ابن عمر . ان لمروان ابنا فقيها فاسألوه ، والمأمون عبقري التاريخ الاسلامى ، وعيسى شرف الدين الأيوبى الذى يضع كتاب الرد على الخطيب البغدادى سنة ٦٢١ هـ ينتصح به عن امامه أبى حنيفة

تلك شريعة أمية تسع لجمهور الخلق فى كل الأمم وكل الأعصر فهما وتطبيقا ، يفهمها الاميون ، كما يفهمها الأعلون من الخاصة لأنها (فطرة الله التى فطر الناس عليها) قوامها الصفاء والسهولة والصراحة ، ففى حلبات البحث مضمار للافذاذ وللافراد وللملوك أيضا . كل ميسر لما خلق له ، فلا غرو أن يرقى الى الأوج العلى فيها أصحاب الحرف ، وأن يسود فيها الرجل بهمه لا بمهنته ، فى حضارة لحمتها وسداها الاخاء ، يحب المؤمن بها لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه والمؤمنون فيها كالجسد الواحد ، (اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

وتلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التى نشهدها فى الحضارة الاسلامية تصدر عن أصل عميق يبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الاسلامى وتاريخ الفقه فى سائر الأمم فهنالك يصدر فقه العبادات من الصوامع والبيع ، وهنا يصدره رجل الدنيا وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان وهنالك بين المعاملات والعبادات خلافات أى خلافات ، فلا يتحدث عن العبادات فقهاء كفقهاء الاسلام يضطربون فى أسواق الحياة ولكن قسيسون ورهبانا يستمرئون فى عزلتهم الفاخرة نعمة القداسة ويسترلون فيوض الالهام ، أما الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة حقا ولكنها لا تعرف الرهبنة ولا الطقوس ولا المراسم ، وهى اذا كانت جهادا ضد النفس وضد الكفر فهى أولا وبالذات دين اجتهاد .

الباب الثالث

في المسجد

« الشعلة من الشراره »

وسبن

نحن الآن فى المسجد الجامع • وان شئت فقل جامعة الكوفه ، مسجد بنى فى أعلى مكان من المدينة لسع أربعين ألفا وبيب له ظلة تبلغ مائتى ذراع من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة • مال ميزان النهار ، وأخذت الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة ، يدب عقرباها الى يوم الساعة، تحدد مواقيت الناس • فيفدون للصلاه ويتطهرون بالوضوء يرحصون أطرافهم ويغسلون وجوههم ، ويسعسون بعد ما عادوا فى سبل المعاش اذ سفلون من الدنيا الى حضره الخالق فى ركعات معدودات هنالك تسمع زحلا للناس قد ألفوه بعد كل صلاة . اذ يأوون الى ركن أو يلتفون حول واحده من أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل فى خصوماتهم واسمماء فصاتهم •

هنالك حلقات عده على القرب وعلى البعد . هذه حلقه مسعر بن كدام للقرآن والحديث ، وتلك لابن شرمة يقضى ويفتى ، وتلك لمحمد ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى قاضى الكوفة • وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجمعا •• يكاد المسجد لايخلو من درس، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات فى المسجد الجامع •

وحتى فاتحة القرن الميلادى الحالى كانت الجامعات فى العالم الاسلامى هى المساجد الجامعة ، ففى الحرم النبوى كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفى الحرم المكى كان مجلس ابن عباس الى جوار الكعبة أكرم المجالس • أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واحد • وفى البصره وفى الكوفة ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التى خلع عليها الاسلام غلالات الحضارة ، كانت الفصول الدراسة هى حلقات الدرس فى صحون الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للعزاء فتشتغل مجالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء فى المسائل الفقهية والأدبية والقصصية وما اليها •

ولم يعرف نظام انشاء المدارس لتدريس العلم خاصة الا فى سنة ٣٨٣هـ فى بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفى سنة ٤٠٠ أنشئت مدرسة

نسابور ، وتلبها مدارس قليلة لم تسع لطلاب العلم جميعا ، وعلى هذا ظلت المساجد بيوتا للعلم كما هي بيوت الله .

كانت الى جوار تلك الحلق فى جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبى حنيفة النعمان . لايقبل اليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث ، أو من داره ، أو من اسفاره ، اى من صميم الدنيا .

فى هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبى سليمان الى أن وافته المنية فى سنة ١٢٠ للهجرة ، وعامر بن شراحيل الشعبى حتى اختاره الله الى جواره سنة ١٠٤ ، ومن قبل ذلك جلس ابراهيم النخعى الى سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد النخعى الى نفس العام ، وجلس عبيد ابن عمر حتى سنة ٩٢ ومن قبلهم جلس علقمة النخعى عم الأسود وخال ابراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتى الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ كما جلس شريح بن الحارث الكندى نحو ثلثى قرن يقضى ويفقه الناس الى أن مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأجدع يفتى الناس ويفتى شريحا حتى سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعا جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود الى أخريات أيامه ثم ودع مجلسه الى المدينة حيث صعدت روحه الى الرفيق الأعلى فى سنة ٣٢ .

لم تكن حلقة أبى حنيفة كسائر الحلق بل هى كانت تثير المشكلات فى الداخل والخارج ، وتأتى كل يوم بجديد تجلى فيها طابع التطهر فى الجسم وفى العقل معا ، فلا يستعملون الماء اذا استعمله سواهم . ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبى حنيفة للوضوء حاضا ذات صنابير فسبب هذه الصنابير (الحنفيات) لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير للماء والماء المستعمل غير طهور عند أبى حنيفة .

كان سفيان الثورى يرى جواز الوضوء بماء قد توضأ به الغير فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول انه ماء مستعمل ، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لايتوضأ به لأنه ماء مستعمل فرجع فيه الى قول أبى حنيفة .

فالحنفية التى تفتحها وتقفلها صباح مساء هى الذكرى المحددة لهـذه الحلقة المتأنقة فى طهارتها لاترد المـاء الا صفوا من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء .

واذا كان من المسلمات فى العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تدلى به عدادات المياه وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالا للماء وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هى كالصلة بين النظافة والمـاء ، فأى دوى كان لأبى حنيفة من ألف ومائتى عام ! بل أى طهارة ، وأى حضارة .

واذ كانت النظافة من الايمان فمن كأبى حنيفة فى نظافته وفى ايمانه !.

من أجل النظافة يقول أبو حنيفة ان السواك من سنن الدين ، ويصح الحمية بالاستياك عند كل صلاة ، ووضوء ، وكل ما يغير الفم وعند اليقظة من النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود لينا لا يابسا وأن يغسله المستاك قبل استعماله ، وأن لايستاك وهو مضطجع .

ومن قبل قال عليه الصلاة والسـلام (لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) .

رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثيابا رثة فأهاب بصـاحب الثوب ليبقى بعد أن ينفرط عقد الحضور ، حتى اذا صار الرجل وحده قال له ، ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحتـه ألف درهم قال (خذ هذه الدراهم فغير بهـا من حالك) قال الرجل انى لست أحتـاج اليها وأنا موسر قال أبو حنيفة (أما بلغك الحـديث « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فينبغى لك أن تغير حالك حتى لايغتم بك صديقك) !.

ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل انها لتصور لنا الصورة الحقيقية لهذا السيد السمح وتلك الحلقة الجديرة بأن تسمى حلقة النظافة ، كما هى ولا مراء حلقة الثقافة .

بلى . ان الله سبحانه وتعالى يحب أثر نعمته على عبده والناس كخالق النـاس ـ سبحانه ـ يحبون أن يروا أثر النعمة على من حبـاهم نعماءه . والثيـاب الرثة لاتطمئن ولا تسر . وما لايجمل شكله لا ينظر فى موضوعه ،

فالنفس تحصع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع . وأول ما يبدهك به الرجل منظره ومظهره . ففيم يعرض المتهاونون فى مظهرهم على الـــاس أن يفتحوا أعينهم على القدى ١.

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد لخادمه : أحمل معنا ألف ديار فانى أريد أن أمر بالأصمعى فاذا حدثنى وأضحكنى فضع الكيس فى حجره ، ثم صار اليه فحدثه الأصمعى بكل شىء فلم يصحك . فقال له صاحب كان معه : انه قد أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس من عادتك رد شىء قد أحرجه من بيت مالك قال جعفر . قد وصلنا هدا بخمسمائة ألف درهم . ولم أدخل له بيتا فبل هده الدفعة ورأيت حبة (الجرة الصحمة) مكدرا وعيله برنكان (كساء أسود) منجرد وتحته مصلى وسخ وكل ما عده رث . وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه وأن ظهور الصبغة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه، فعلام أعطيه الأموال ادا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه.١

فرغ الشيخ من صلواته وتسبيحاته ، واحتبى بطيلســانه واستند الى المحراب ، مشرق الديباجة طلق المحيا فى بزته التى عهدناها وأقبل الى الناس فحياهم واذا كان راجعا من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله ، واذا لم يك قافلا من سفره فهو بين ظهرانيهم يسهم فى أمورهم ويتعهـــدهم ويواسيهم ، فاذا شرع فى الكلام انحفل الناس اليه مخلفين حلقـــاتهم ، يصفون حوله صفوفا صفوفا ، فى زحمة لاتسمح للفتى الذى سيصير فى الغداة اماما وبطلا (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلسا الا فى الصف الرابع أو الخامس، أما فى الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيل الاول ، الزملاء القدماء : اسماعيل بن حماد وأبا بكر النهشلي وأبا برده الضبى ومحمد بن جابر الحنفى يجلس معهم بين الفيـــه والفسة أساتذه الحلق المجـــاوره ، مسعر بن كدام — آية الكوفة فى ورعه وحفظه وزهده — والحسن بن عمارة — أستاذ الحلقة القريبة — يجلسان مع أترابهم الى ذلك الذى لاترب له ..

وهؤلاء فى الصفوف الأخرى .. أســـماء لهـــا جرس بديع فى الأذن زفر بن الهذيل ، كان أبوه والى البصره وكانت أمه فارســـية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لســـانه .. ويعقوب — فتى من العامة سيعرف فيما بعـــد

(بأبي يوسف) ـ والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكرى للكوفة عبد الله بن مسعود ، عالم فى اللغة والأدب والشعر والحديث ، وهذا أسد بن عمرو البجلى والوليد بن أبان ثم هذا صف آخر ، فثمة وجوه جديده داود الطائى الذى سيرقى الى الذروه فى العلم ثم يعرق كتبه فى الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاما ، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من ربه • وفضيل بن عياض ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، ويوسف بن خالد السمتى ، ووكيع بن الجراح ، ومالك بن مغول ، وحفص بن غياث ، وعافيه الأودى ، وعلى بن مسهر ، والأخوان مندل وحبان ، ويحيى بن زكريا ، وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة بن حمزة وستأتيك أنباؤهم بعد حين ••

وأخيرا وفى نهاية العمر ، جاء فتى سمين وضاء المحيا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته ثلاثين ألفا ، سينفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ، أبوا أن يقبلوه الا أن يحفظ القرآن فغاب وعاد يقول انى حفظته فى سبعه أيام! لم يكد يجلس الى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقها الشيخ الى جوار ربه ، ذلك محمد بن الحسن الشيبانى •••

وهؤلاء وهؤلاء .. يناهزون الأربعين عددا . حلقه اسلاميه حق • فيها الموالى والعرب ، وفيها أبناء الولاة وأبناء الشعب ، وفيها المخلطون لأب وأم مختلفين عروبة وولاء •

بدأ الدرس وتطارح المتدارسون المسائل ، فاذا كان فى الحلقه غريب جاء وبدأ به فقال له هات ما عندك . ويناظرون فلا يستبد بآرائه بل يطرح مسأله مسأله يسمعهم فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول « لايحل لمن يفتى من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت » ويقول « رأينا هذا أحسن ماقدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » • يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحرارا مع غيره ، فلن يتعلموا الحرية فى الفكر الا اذا مارسوها فى الفكر • ولن يعلموها مع الناس الا اذا تعلموها مع الأستاذ • وهو عندهم خير الناس •

ومن ألف عام قبل أبي حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون : استاذي صديقي والحق صديقي فاذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة .

روى شاهد عيان : كنت عند أبي حنيفة وهو في مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة فسكت ثم ألقى عليه أيضا فأجاب فقال : أخطأت يا أبا حنيفة . فقلت لمن حوله من أصحابه · سبحان الله لاتعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجيء شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت الى أبو حنيفة وقال « دعهم فاني قد عودتهم هذا من نفسي » .

بلى . وأية غضاضة على العالم أن يخطيء أو يخطأ ؟ أليس علي رضي الله عنه يقول (كنت لا أرى بيع أم الولد في زمن عمر .. واليوم فقد رأيت ذلك .) ! وأبدى ابن عباس رأيه في مسألة من مسائل المواريث بعد جوازها (العول) وقيل له · انك كنت تراها في زمن عمر قال . (هبته وكان رجلا مهيبا ..) .

ذلك صنع العالم يراجع أمامه حجة العالم ، حتى اذا بدت له معايبها عاد يصدع برأيه من جديد . والذي يرجع عن خطأ الأمس الى صواب اليوم ولا تسعه الا لانه اليوم خير منه أمس ! ورجوع عمر بنفسه عن خطئه كان مضرب الأمثال . فلم يشفق الشاهد على أبي حنيفة اذ يقول له الغلام مرة بعد مرة أخطأت !

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيرا أخف ففهم ذلك أيضا ؟ والأشياء لا تسمى بغير أسمائها الا في معارض النفاق . والنفاق ليس من دروس أبي حنيفة . واذا لم تسم الأشياء بأسمائها في حلقات الفقه وحلبات الجدال فأين تسمى بأسمائها الأشياء ؟ ان الخطأ ليس الا الخطأ . يسميه كذلك القائل الحر للسامع الحر . وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته وافتعال يصنع الزمان سدى .

قال رجل لعمر بن الخطاب (اتق الله) . فأنكر ذلك بعض الحاضرين. فقال عمر « دعه فليقلهـا لى . نعم ما قال . لا خير فيكم اذا لم تقولوها . ولا خير فينا اذا لم نقبلها » .

ان العظيم الحق لا تضيره كلمة الحق . وانه ليدرك أن عظمته الى جوار عظمة الخالق كجناح بعوضة الى الخلق العظيم الـكواكب . فلعل الحق أن يجيئه من أي ذرة من ذرات هذا الوجود أو أى رجل مهما يكن من الخمول والقدامة ، وهو لن يستطيع أداء رسـالته الا اذا وثق من قدرة الله على أن يصلح الدنيا على يد سواه .

قيل لأبى حنيفة : لايزال هذا المصر بخير ما أبقاك الله فيه فأجاب :

خلت الديار فسـدت غير مسود
ومن البـلاء تفردى بالسـؤدد

وفى أواخر القرن الرابع دعا الناس القيروان على بن خلف المعـافرى بابن القاسى ليجلس فيهم معلما فأبى ، فهدموا عليه بابه اذ أغلقه دونهم فلما رأى ذلك خرج ينشد .

لعمر أبيك ما نسـب المعـلى الى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وصـوح نبتها رعى الهشيم

ثم قال . وأنا والله ذلك الهشيم . وبكى وأبكى ..

فاذا نسينا من المناظر كلمه ، فما أحلم أبى حنيفة ! واذا تدهور صاحب السفينة الى الكلم الجارح فهو يقذف الهرم ، ويسطح الطود الأشم . قال له الرجل يا مبتدع يا زنديق . فقـال غفر الله لك . الله يعلم منى خلاف ما قلت ، وأنى ما عدلت به أحدا مذ عرفته . قال الرجل · اجعلنى فى حل . قال الامام (كل من قال فى شيئا من أهل الجهل فهو فى حل .. وكل من قال فى شيئا من أهل العلم فهو فى حرج ، فان غيبة العلماء تبقى شيئا بعدهم) .

ولقد يطول البحث فى المسألة الواحده أياما وليالى أو شهرا أو أكثر من شهر . فيدأبون على الدرس ويكبون على التخريج . حتى اذا قتلوها بحثا

أثبها أبو يوسف بعد أن يتولاها الفحول بالقبول • أو التفت الشيخ الى من يكتب منهم فقال له (ضعها فى الباب الفلانى •) ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ما تعلموه فاذا أحكموه أخذوا فى غيره ، واذا استعصت مسألة أوغلوا فيهـا وتوفروا عليها حتى اذا قطعوا فيها برأى تهللوا بشرا وصاحوا صياح الفرج قائلين الله أكبر ! الله أكبر ! •

ابتدأوا فى مسألة الحيض فخاضوا فيها ثلاثة أيام متتابعة بالغداةوالعشى فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعـا لله • وكان ذلك ايذانا بأن مسـألتهم قد خرجت •

واذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال « اللهم لا تؤاخذنى » ثم يمضى •

وفى ذات ليلة خرج من صلاة العشـاء ونعله فى يده ، فـكلمه زفر فى مسألة ، فجاريا يتقايسان ، حتى نودى لصلاة الفجر وهما قائمان ، فرجعـا الى داخل المسجد • ورجعا الى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى استـقرت المسألة على قول أبى حنيفة .

ترى لو لم يكن هؤلاء القوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا يقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة فى شرع الله انما هى سجدة من السجدات لذاته وتسبيحة بآلائه •

لقـد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله ـ جل شـأن الله ـ يولون وجوههم شطره فى المحراب أو فى حلقة أبى حنيفة •

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال (من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ، ولم يرسخ فى قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له فى علمه ورسخ فى قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه) •

أليس هو القائل لتابعهم أبى يوسف (••• وان بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم فانك اذا أعرضت كانت معيشـتك ضنكا ») على ما قال الله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشـة ضنكا • » بلى لقد علمهم أن العلم توفيق والهام وعبادة اذ كانت تتشـكل

عليه المشكلة فيمول : ما هدا الا لذنب جبنــه • فيستغفر الله • وربما قام وتوضأ وصلى ركعين واستغفر فنخرج له المسألة ••

أجل وهو الدى طالما قال لهم (ان لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا)• وهذا الذى يقوله الشيخ لــلاميده هو الدى فاله رسول الله من فبل (أفضل العباده الفقه) حرج صلى الله علىه وسلم فادا فى المسجد مجلســار مجلس ينعمهون ومجلس يدعون الله •• فقال « كلا المجلسين الى خير • أما هؤلاء فيدعون الله تعالى وأما هؤلاء فتعلمون ونفمهون الجاهــل .. هؤلاء أفضل • بالعلىم أرسلت » ثم فعد معهم •

كان الطلاب فى الحلعه حشعا فلوبهم ، عالمة أبصارهم بالشسخ ، يديرون المسائل فىعقولهم وألسـسهم سما تكاد آدابهم تشرب من عباراته ، وهو يـتكلم كأن ليس فى المحلس أحد وكله فمهــاء ورؤساء ولــكنهم سكوت حاصعو الرفاب •

قال زفر (ادا تكلم حيل اليك أن ملكا يلقمه ما يقول) ، فمن فاته مر الدرس فكره ، أو صاع من وفمه فره ، فمد نصف عمره ، ان لم يكن كل عمره . مات ابن لأبى يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبى حيىفة شيء لا تدهب حسرته عنه .

ص أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليستبقى لنفسه ســاعة من أبى حنيفة .•! فأية حكسه تلك التى كان ينهل منها القوم وآية نعمى هده التى كانوا يؤثرونها ••! ان المرء ليعجز عن فهم دلك من أبى يوسف الا ادا دكر موقفا آخر له عندما احتمعت له أسباب المجد فكان أصبح تقديرا ادا كان أبعد زمانا ومكانا •• أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه ، حتى ادا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين •

فى تلك الأيام سئل عما يوده فقال (وددت أن لى مجلسا من أبى حنيفة بنصف ما أملك) فيــل ، ولم تتمنى هــذا ؟ فال (فى النفس حزازات كنت أسأله عنها) •

حقا : كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين . شيخنا ليس حاضرا ونكره أن تتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدىء بالكلام .

وقيل لأبي يوسف وهو قاضي القضاه : هل وددت الى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال (وددت الى زهد مسعر بن كدام وفقه أبي حنيفة) . قال الرشيد ما تمناه أكثر من الخلافه ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء ، وأين الخلفاء من الأنبياء .

تلك الرهبنة العلميه ورثها تلاميذ أبي حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم وللدين معا كمثل أبي جعفر النسفي ، يبيت ليلتـه مهموما من ضيق البال ، وكثرة العيـال ، فيقع فى خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويقوم ويرقص فى داره ويقول أين الملوك ! وأبناء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث .. فخبرها فعجبت . !

جاءت القزويني زوجه وهو يلقي درسه فأسرت اليه خبر وفاة ولد له شـاب كان يحضر معه فى كل يوم ولم يحضر معـه فى ذلك اليوم . فأمرها بتجهيزه ولم يذكر للحاضرين شيئا ، حتى فرغ من الدرس على عادته فقـال ان محمدا دعى فأجاب فمن أراد الصلاه فليحضر !

ومن قبل أبي حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقي دروسه وبين سامعيـه أورلينوس أحد عظماء روما . فدخل جنـدى برسـاله من الامبراطور الى أولنوس وخرج الحـاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لـكن العظيم الروماني لم يفض الكتاب الى أن انتهت المحاضره .

أولئك رجال العلم خشع فى محرابه ، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس، فليس كل أستاذ أبا حنيفه أو بلوتارك ، والساعات التى تمنحها العناية الالهية للناس اذ يجلسون اليهما ليست مما يسرف الفتى اللقن فى انفاقه .

وفى بعض الأحايين يطول الجدال فى الحلقة ، ويحتدم وتتعالى الأصوات بلا ضابط ، حتى قال فيهم الشاعر :

قوم اذا اجتمعوا صـــاحوا كأنهمو
ثعـــالب صحت بين النواويس

فاذا تكلم خفضت الأصوات وتصحب الآذان والأذهان فالحلقة قانون غير مدون ولكنه فى القلوب انه « اذا تكلم الشيخ فسمعا وطاعة » . لقــد جاءوا اليه وهم أحرص الناس على لقاه وسماعه • عالمين أن الفقه أرفع العلوم وأولاها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له ان فى هذا المسجد حلقــة ينظرون فى الفقه • فسأل (هل لهم رأس ؟ قالوا : لا • قال . لايفقه هؤلاء أبدا) .

بلى : كيف يفهم النـــاس بلا رؤوس ؟•• وكيف تنتظم الحلقـــات بلا رئيس ؟

سمعهم مسعر بن كدام فى صخبهم ثم نظر بهم سكوتا كأن على رؤوسهم الطير اذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال « ان رجلا تسكن عنـــده الأصوات لعظيم الشأن فى الاسلام • » لكن الاستاذ ينشرح صدره لجهارة تلامذه وجلبتهم، فاذا نبههم الناس على أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغى فى المسجـــد قال « دعهم فانهم لايفقهون الا بهذا » !!

انهم لم يكونوا تلامذ الا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ ، فلسوف تراهم الدنيـــا غدا فحولا دونهم كل الفحول والافذاذ لو شهدتهم حول أســـاطين المسجد الجامع لحسبتهم فى مؤتمر دائم لايكاد ينفض •

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قـــد ارتفعت أصواتهم فأقام مليا ثم قال · هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين • •ثم قرب الى المسجد فقال لأصحابه : يا هؤلاء أرفقوا بالشيخ فانه مع ما هو فيه قد أقام عشر ليال متواليات شهدت الليلة التى مضت منها ••

كان محمد بن أبى ليلى قاضى الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد وكان كبير الشكاه من تلك الحلقة التى تشرح أقضيته ، لكنه كان يلتمس فى الخفاء رضاء الشيخ عن تلك الأقضية ، واذا قدم ابن اسحق صاحب المغازى الى الكوفة جاراه فى المسائل . أما مسعر بن كدام فيترك تلاميذه ويجلس فى حلقة أبى حنيفة فيقول له تلاميذه . نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس الى أهل البدع؟ فيجيب « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علما» .

واذا سأل سائل عن العلم فان للعلم مكانة ، وللمفتى وقارا لا رما لاستجماع الفكر يمنع معه أن يفتى فى عرض الطريق ، قال لسائله مرة « لاتسألنى عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو نائم او متكيء فان هذه الأماكن لايجتمع فيها عقل الرجال » .

وللمرأة احترامها وحياطتها اذا جاءت الى الحلقة تستفتيه فانه ينهض اليها من وراء السارية فيفتيها ، ثم يعود الى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع وبالفتوى ويقول عن الحجاب الذى ضربه بينها وبينهم «انما غرضى أن أحصنها من أحداق الرجال »

واذا قام من الحلقة عاد مريضا أو شيع جنازة . بل انه ليحمل سرير الميت من تلاميذه أو أصدقائه — آية وفاء وتحية وداع — أما دار ابن حريث فالريح تجرى فيها رخاء وعلى يد الله .

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح . فالرجل الذى يقسم حياته بين يدى الله فى داره أول الليل لايقتص منه لنومه الا قليلا ، وبين يديه أكثر النهار فى سنه يؤدى فريضة العلم لعباده ، والذى يخرج عن ماله الصحيح فى سبيل العلم وفى سبيل الله ، انما هو رجل قد طبعه الجد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التى يحملها للناس ولهذا لم ير مستجمعا ضحكا قط ، وان كان يبتسم لما يفهمه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه .. والفكاهة ليست على كل حال من خلائق السادة .

لقد ضحك مره فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوما !.. كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ ، والذى كان

يطبع الجد قسماته وحركاته حتى لبظنه الرائى قد أقبل من دفن والديه ، واذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تخلقا الا له ، ناظره أبو حنيفة فى فتوته ، فظفر به فارداه الظفر بأنه أفحم الزعيم العظيم فضحك ، فرشقه عمرو بنـاصية الطهر قال : يا فتى تتكلم فى مسألة من الشرع وتضحك ! والله لا أكلمك بعد هذا أبدا . قال أبو حنيفة . فانقطع الكلام بينى وبينه رحمه الله وقال انه نادم على ما فرط منه أبدا .. وهكذا عاقبه الله على ما ارداه وما اساق اليـه من المغالاة .

وانه ليلقى درسه فى المسجد ذات يوم فاذا بحية تسقط فى حجره وهرب النـاس ، فما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه ، واضـطرب الدرس ، وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فرارا وملئوا منها رعبا أما هو ، والحية قد سقطت فى حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستبقيا عنانه ، كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد (فلا والله ماتخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير . ثم قال : « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيدا عنه) .

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس لكأنه اذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد فى المحراب بين يدى الله .

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شابه الارتياع للبغتـات والفجاءات . لكن سموه على طيش المفاجأة قد زاده كرامة ، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ فى وقاره وضعا مسرحيا ولا مدرسـيا بل استمر فى درسه كأن لم يقع ما يريب .

اقتحم الخوارج مسجد الكوفة فى احدى غاراتهم عليها وأبو حنيفـة وأصـحابه جلوس فقال لأصحابه : لا تبرحوا . فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم : ما أنتم ؟ قال الأستاذ من فوره « نحن مستجيرون » ؟ قال أمير المغيرين : دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرأوا عليهم القـرآن . فقرأوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم .

وبهذه البديهة المسعفة ، سلمت المدرسه الحنفيه من حبطة معسفــة ، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعملوا فيهم السيوف ، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصبه لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصاير الفقه .

وهكذا جرت على لسان أبى حنيفه تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال ، وجرت فى حلد أمير الخوارج نسمة من نسمات التفتح الروحى ، وتذاكر المتحاوران فى صمت قوله تعالى (وان أحد من المشركين استجـارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وسما الخوارج عن سفك الدماء، وسما أبو حنيفة فى التعبير عن أن يقول : انهم (مشركون مستجيرون) كمـا قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء اذ هم الخوارج برأسه فعصم منهم رأسـه ونفسه . لكن أباحنيفة يقف وما فى الموت شك لواقف ، فيصيب فى العبـارة والاشاره ، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات .

كان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام ، وامتد الوقار من ذاته الى عباراته، واذا حلف صادقا فى عرض كلامه تصدق بدرهم ! ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين دينارا ..

قال جعفر بن ربيع : « أقمت عند أبي حنيفة خمس سـنين فما رأيت أطول منه صمتا ، فاذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى وسمعت له دويا وجهـارة فى الكلام » . وليس يرجى غير ذلك من رجل وهب نفســه للعلم خمسين حجه كاملة أو يزيد . يقرأ القرآن فى كل وقت ، ويبرز فى حلقـات المتكلمين فى صدر حياته حتى اذا بلغ عنفوانها قضى عليه القــدر أن ينهض برسالة من الرسالات التى تدين لها الحضاره الاسلامية بأسباب النماء .

والجهاره والدوى ، والسلاسة والتدفق ، وحسن الالقـاء ــ كانت وما زالت وسيلة المحدث النافذة الى القلوب ، مثلما هى جواز المرور للكاتب والعالم والخطيب . وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد ، من « ديموستين » الى « شيشرون » الى « ابن أبى طالب » الى (ميرابو)، وفى « أثينا » و « روما » و « بيزنطة » ، وفى أسواق (عكاظ)و (مجنة) و (ذى المجاز) و (مكة) و (المدينة) و (العراق) و «مصر» ، وفى قصور الأمراء ، وفى رمال الصحراء ، وفى محافل باريس ولندن وفى كل مكان .

وسيبقى دلك شأن البيان فى كل زمان ، والناس ، دائما هم الناس وكلما غير الزمان وجهه أطهر للدنيا وجهه نصسه باعباره وجها جديدا .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء فالعلم لاينبع من القلب الا عند استجمام فصله واستجماع عفوه .

سئل الشافعي عن مسألة فسكت فقيل له . ألا تجيب رحمك الله ؟ قال « لا ، حتى أدرى أين الفضل ، فى سكوتى أم فى الجواب . »

من أجل دلك ، كان مجلس الشيخ مهيب الجانب (ورأيه لايدفع بالهوينا) كما يقول الشافعي (ولو حدثك عن الساريه أنها من دهب لقام بحجته) كما روى مالك كانت كلماته قطرات من البلور المداب تهب عليها نفحة من منطق الرسول الذى قالت عنه أم معبد (كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن) .

والحصانة الفكرية لا يتيسر لها الجو الصالح الا بالخلو الى النفس بالسكوت ، أو كما قال ابن المقفع (ربما كانت البلاغة بالاستماع) . والدى يتحدث حديثا صالحا لا يتحدث الا لداع ، فالحديث كالماء يتخذ لون الوعاء فادا ألقيت به فى غير مكانه أو فى غير أوانه أو أدليت به الى صخر جامد أو شعور بارد، كان لالون له ولاطعم فيه وهو السلسل العذب ، بل انه انغص به التشارب وتمجه عين الرائى .

ودا أدلى أبو حنيفة بدات نفسه فهو يدلى بها حتى يجمل الادلاء ، ويحدر الافهام ، ويصدع برأيه حتى تعترك الآراء ، وعندئذ يسيل كالسيل اذا اجتاح جنبات الوادى .

قال « لاتحدث بفقهك من لا يشتهيه فتؤذى جليسك . ومن قطع عليك حديثا فلا تعده فانه قليل المحبة للعلم » . وقال فى احدى خطبه .

« ان الكلام كثير ومحكمه يسير وان الكلام لا ينتهى حتى ينتهى عنه وان خير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبى يوسف وهو يمحضه النصيحة .

« من جاءك يستفتيك فى المسائل فلا تجب الا عن سؤاله ولا تضم اليه غيره

فانه ينشوش عليه جواب سؤاله .. ومن ناقشك من العامه والسوقة فلا تناقشه فانه يذهب ماء وجهك » ..

على هذا النحو ظلت حلقه أبى حنيفه ثلاثين عاما تعمل فى مؤتمرها الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها ، يتلقون المسأله فيقسمونها أقساما ويتولون كل قسم أياما وليالى بالتحليل والتعليل ، حتى اذا قعدوا قواعدها راحوا يفترضون الفروض التى قد تقع فى المستقبل ، وتتداولها أدمغتهم كأنما تتناولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسه ، فتخرج أحكامها على أيديهم كالجنين الحى .. وانسرب موجه الافتراض والتفريع فان ما لاتكفى فيه النصوص تنفع فيه الأصول . ولئن صح قول ابن عجلان . (اذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مقاتله) فان حلقة الكوفه كانت تعرف هذه القاعده ولا تحتاج اليها . ومع ذلك سلمت مقاتلها . ذلك بأن الأسئلة لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعضاؤها كثر . ولم يكن الجواب يصدر فور البديهة وانما يصدر بعد البحث فى المؤتمر ولم يك وليد الفكره وحدها وانما كانت تطبق عليه قوانين وضعوها فكيف لاتوجد القوانين الموضوعه ، والعقول الدائبة على البحث ، حلولا للاشياء .. ! ان الضعف الانسانى يجبره طول المران والايمان والتعاون والاخلاص . ولقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبينن العلم وانهم لفاعلون .

ذكر ذاكر أمام أبى حنيفه قول الشعبى (لا أدرى نصف العلم) فرشقه بكلمه لاذعة قال : (فليقلها مرتين ليكون له كل العلم) !.

وجرى حديث هذه الدروس فى شبه الجزيره وفى العالم الاسلامى كافة، وشاركت الخمس والخمسون حجة التى تمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينه فى اذاعه أنبائها ، فالشيخ فى مكة والمدينه فى كل عام تقريبا يناظر ابن جريج فقيه مكة ، والأوزاعى فقيه الشام ، والليث بن سعد فقيه الفسطاط ، بل الليث يعمل على الخروج للحج اذا خرج أبو حنيفة لىناظره .. والشيخ يجلس فى المسجد الحرام يفتى أهل المشرق والمغرب ، وكبار الناس حضور ، لايرى أصبر منه على الطواف والصلاه والفتيا بمكة ، وهو كل الليل والنهار فى طلب الآخره حتى لقد شوهد عشر ليال لايهدأ

الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعلم • والناس يزدحمون حوله في المسجد الحرام من كل الآفاق ، فيجيبهم ويصيبهم كأن المسائل في كمه يخرجها فيناولها اياهم في أدب يأسر القلوب !•

كان يمشي يوما فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق امام الشيعة ـ الذي قيل انهم رووا له ٤٠٠ كتاب ـ ففطن أبو حنيفة له فقام وقال . (يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت ما رآني الله قاعدا وأنت قائم) قال له: (اجلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائي) •

وفي مكة احتاج الوالي الى شرط يكتب له فقال لابن شبرمة وابن أبي ليلى : اكتبا فكان اذا كتب هذا شيئا أفسده هذا حتى اذا قدم أبو حنيفة على الامير قال الامير احتجنا الى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفة : قل لكاتبك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبي ليلى فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدرا أن يقولا شيئا • وقال أحدهما للاخر بعد أن خرجا : أما ترى هذا الحائك جاء في ساعة فكتبه • قال له صاحبه : (لا تقل الحائك فان الحائك عندي من لايقدر أن يكتب هذا القدر ويستروح الى سب العلماء) •

واذا ذهب الى المدينة لقي زعيمها الجليل مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة لايكلم أحدا الا قطعه ولكنه يرفق اذ يكلم مالكا كانا يتدارسان بعد العشاء في مسجد الرسول حتى اذا وقف أحدهما على القول الذي قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة • ولا يزالان كذلك حتى يصليا الغداة في مجلسهما !

قصدا يوما الى الحرم النبوي معا ومالك قابض على يده يتمشيان فلما بلغا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله . وكان مالك يجلس سفيان الثوري دون المجلس الذي يجلس فيه أبا حنيفة • ولا عجب فان سفيان كان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه ، واذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذي يجيب •

ومع دلك كان أبو حيفة يرهق مالـكا بحجاجه . قال الامام الليث : (لقيت مالكا فى المدينة فقلت له : انى أراك تمسح العرق عن جبينك . قال : عرقت مع أبى حنيفه . انه لفقيه يامصرى . ثم لقيت أبا حنيفه فقلت ما أحسن قول هذا الرجل فيك . فقال أبو حنيفة : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقـد تام) .

ومع دلك كان مالك يقول « ما أحلمه » . ولولا حلم أبى حنيفة عليـه لما تركه ينصد عرقا !

ترى أية لحظات فى تاريخ الانسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة من سنا الفكر كانت تتبادلها هذه الـكواكب فى حوار النجم الأكبر الذى مايزال يبعث شعاعه الى الوجود الانسانى ! امام مصر ، وامام دار الهجره ، والامام الأعظم ، فى حوار الرسول صلى الله عليه وسلم !.

فأى رجال .. وأى خيال ..

وهكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ فى اتسـاع الدائره واشتهار المدرسة .

هذا ربيعه بن عبد الرحمن الذى تفقه به مالك ، والليث بن سعد امام مصر ، ومالك ، والأوزاعى ، وابن جريج ، وجعفر الصـادق ، وابن اسحق صاحب المغازى، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى ليلى، وابن شبرمة ، والحسن بن عماره ، وحمزه المقرىء ، والجرجانى عبدالكريم ابن محمد ، وقتـاده المحدث ، وحماد بن زيد امام البصره ، وأبو مقـاتل السمرقندى ، وخارجة بن مصعب امام سرخس ، والنضر بن محمد ، ومسعر ابن كدام ، وعمر بن ذر ، وعمرو بن عبيـد ، هؤلاء الزعمـاء الـكثيرون وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الاسـلامية بالنـور وكانت لهم مع أبى حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواؤهم وآراؤهم بأضواء الكوفة وعلومها بين الحين والحين ، فكانوا يرون فى بريق الشيخ وصفائه بشائر الفجر الطالع أو الفجر الطـالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم فى الكوفة أو فى البصره أو فى مكة أو فى المدينـة خلاصات التفكير الاسـلامى فى كل

أرجاء الامبراطورية الاسلامية الى دراساته ، فيلقحها بلقاح جديد ليطبعهـا بالطابع العالمى الشامل . حتى اذا جادله سـعيد بن أبى حجر دات يوم قال : يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تعاريق من قوم شتى وجدناه عندك جملة ! » .

حقا لقد انتهى اليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبحسبك أن تقرأ ما فات من أسماء ، وأن تتصفح ما فى الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا عنهم من الفحول ، لتجتمع لديك القـائمة الذهبية بمنابع الفقه الاسـلامى وروافده لاتكاد تنقص شـيئا . تلتقى تيـاراتها فى مدرسة الكوفة منبعـا أو مصبـا ..

لقد كان رمز النضوج الفكرية وكان العراق بقعة الكنوز المباركة ، فيها أسلمت دولة بنى أميـة روحها ، ومنهـا استمدت دولة العبـاسيين ودولة المفكرين روحا جديدا أمدها بأسباب الحياة .

الباب الرابع

الفكر

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

قرآن كريم

ارتفع الفكر الاسلامي في هذه الحلقة الى أسمى ذرا الادراك ، بينما كان العالم المعروف يسدر في جهالات القرون الوسطى ، فجاء هذا الأستاذ الفرد ، بما لم يجىء به العلماء الكثر من قبل ومن بعد ، سواء في الشرق أو في الغرب ، يشيع في الناس مقولاته كما تشاع الأنوار معلنا آيات السماح واليسر والحرية . تسامح بين الانسان وأخيه الانسان ، وتسامح بين المخلوق والخالق ، ثم حرية في الآراء والأشياء لايحدها الا العقل والعدل وعمارة الدنيا .

حرية في الدنيا ومغفرة في الآخرة اذا تخفف أولاهما وقام الأمل في أخراهما كانت الحياة جديرة بأن نحياها والآخرة حقيقة بأن نرجوها ولا نخشاها ـ فليست الحياة نكالا للاحياء ، ولا الآخرة جحيما مروعا ، وانما الدين يسر ، وعلى الناس ألا يقنطوا من روح الله ، وألا ييأسوا من مغفرته للخطيئة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال « رحمة مهداه » ما خير بين أمرين أحدهما أيسر الا اختار ما هو أيسر . وان لنا في رسولنا الأسوة الحسنة .

وهذا الأستاذ الشديد في حق نفسه ، الرفيق في حق الناس ، اذا خير بين التيسير عليهم والاعنات لهم فان خياره في اليسر بلا مراء .

فعقيدته في الايمان أنه يتم (بالتصديق بالقلب والاقرار باللسان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر) .

فاذا صدق قلبك بالله وأقررت بايمانك بلسانك فلتعلم أنك مؤمن ولا بأس على ايمانك اذا لم تقم بالأعمال التي أوجبها الدين أو التي دعا اليها، أو اذا ارتكبت وزرا غير الشرك بالله سواء أهملت الفروض كالصلاه والزكاه أو عمل الخير عامه أو ارتكبت المعاصي .

واذا ارتكب الانسان كبيره من الكبائر ـ كالقتل أو الزنا أو السرقة ـ فلا يفقدن الأمل في عفو الله فهو اذا استغفره قد يغفر له ، ولا أحد يستطيع

أن يتيقن أن الله معـذبه عليها بل هو ما زال من المؤمنين (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون دلك لمن يشاء) •

بل ان الأجمل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة مادام قد أدى الشهاده فدلك كما يقول الأستاذ (أفضل لحصلتين : أما واحدة لأنه مؤمن . والاخرى لا تستيقن أن الله معذبه عليها البتة •• والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفره أفضل لحرمة هذه الشهاده .. وجميع ما أمر الله به من فرائضـه فى جنب الاقرار بهذه الشهادة والتصديق بها أصغر من البيضة فى جنب السموات السبع والأرضين السبع ••)

أما الشرك فظلم عظيم لايغفره الله ، وفيما عداه يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان .• ومن قال لا اله الا الله فقد عصم ماله ونفسه وحسابه على الله •

وعسى الله أن يتوب على الناس •

ولئن (خلق الانسان ضعيفا) ان عليه أن يعمل صالحا فى الدنيا ويتوب عن الخطايا مستبقيا على نفسه نعمه الايمان آملا فى الغفران يوم الحساب .

تلك مقولات أبى حنيفة وهذا تسامحه ، فى حين كان الخوارج يقولون حول الكوفة والبصره وفى كل مكان انه لا ايمان لمن لم يعمل ما أمر الله به ، فترك الصلاة كفر ، وعدم الصيام كفر ، ولا ايمان لمن صنع ما نهى الله عنه • فالقتل كفر والزنا كفر ، وأما المعتزلة فكانوا يقولون ان من لم يعمل بما أنزل الله فاسـق : لا هو مؤمن ولا هو كافر ! فى حين كان هؤلاء عنـد المعتزلة والخوارج فسقة أو كفارا ، كانوا عند أبى حنيفة مؤمنين يجمل الدعاء لهم ، والرجاء فيهم والأمل فى أن يتوب الله عليهم ويهديهم سواء السبيل ــ وهم جماهير المسلمين غير المعصومين ــ وعلى ذلك قال مقولته الجامعة (أهـل القبلة كلهم مؤمنون ولا يخرجهم من الايمان ترك شيء من الفرائض) فلا كبيرة مع الاستغفار . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

ولم يذهب مذهب جهم بن صفوان فى القول بعـدم وجوب الاقـرار بالايمان باللسان لما فيه من انعدام البيان وانتفاء التقة • ولم يذهب مذهبـه

فى الجبر وهو قوله ان الانسان مسير لا مجبر محكوم عليه بأعمال الطاعة أو المعصية بل كان يقول (لاجبر ولا تفويض ولا تسليط • والله لايكلف عباده ما لا يطيقون • ولا أراد منهم ما لا يعلمون . والله أعلم بما نحن فيه . والصواب الذى عنده •• ونحن مجتهدون ولكل مجتهد نصيب) •

ذهب مالك والشافعى وابن حنبل مذهب أبى حنيفه فى أن ترك العمل بالأوامر الدينيه لايكفر المؤمن ، فالناس يعاملون تارك الفرائض ويزوجونه ؛ ويرث منهم ويرثونه ، لكن الأئمه المذكورين مع ذلك قالوا ان الايمان يقوم على التصديق والاقرار والعمل أيضا ! فانه داخل فى الايمان ! ثم قيل ان الايمان باق مع فوات العمل ! مع أن العمل لو كان ركنا وانتقص ، انتقص الايمان وزال !

ومن أجل ذلك راح البعض يفسر العمل فقال ان من أجزاء الشىء ما لاينعدم الشىء بانعدامه كالشعر واليد والرجل للانسان والأغصان للشجر واذا انعدمت بقى الجسم حيا ! وقيل ان العمل ثمرة الايمان تبعه وتوابع الشىء قد تطلق عليها اسمه على سبيل المجاز ! وراح بعض آخر يقول ان العمل المطلوب •• هو عدم العمل •• أى عدم ارتكاب المكروهات مثل السجود للاصنام .! أما ابن حنبل فقال بكفر تارك الصلاه دون غيرها من الفرائض '

ويرى أبو حنيفة أنه لاتفاوت بين الناس فى الايمان لأن الايمان لايزيد ولا ينقص ! لايزيد بعد اذ كمل ، والزياده ليست اتماما للايمان لأنه من دونها بلغ الكمال وهو بمجرد أن صدق المؤمن بالله وأقر بايمانه . ولا يزيد اذا تكرر الاقرار •

فلا تجف اذن منافسه الناس فى ميدان الايمان ، ولا تجف ترسهم . فكل مؤمن ككل مؤمن .

وما دام الدين لله • والغفران مأمولا منه فعلم يقول الناس بكفر الناس ان ذلك كله متروك لله سبحانه ، واذا كان اللازم فى الايمان الاقرار والتصديق دون العمل ، فحساب الناس عن الأعمال مرجأ الى يوم الحساب •

وعلى المسلمين أن ينظروا فى أمورهم وأن يذكروا الله فى حساباتهم ولا يتعرضوا للنفس .

ولذلك فليس من رأى الأستاذ الخوض فى أمر قتله على وعثمان فتلك دماء طهر الله منها يده — على حد تعبير الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز لما سئلا عن قتلى صفين — فليطهر من الخوض فيها لسانه ، والله وحده يعلم أى الفريقين كان على صواب . أو كما قال أبو حنيفة عمن يخطئون من المسلمين عموما « .. لكنا نرجو لهم ونخاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) حتى يكون الله سبحانه وتعالى يقضى بينهم ، وانما نرجو الله لهم لأن الله عز وجل يقول انه لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . ونخاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم) .

ومن أجل ذلك نسبوا اليه (الارجاء) وهو ما يترجمه المستشرقون بالفرنسية (بالتأجيل) وفى الانجليزية (ترك الأمر لله وحده) .

كان بالمسجد يوما فدخل عليه طائفة من الخوارج شاهرين السيوف فقالوا : يا أبا حنيفه نسألك عن مسألتين فان أجبت نجوت والا قتلناك . قال أغمدوا سيوفكم فرؤيتها يشغل قلبى . قالوا وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل باغمادها فى رقبتك ! قال سلوا اذن . قالوا جنازتان بالباب احداهما رجل شرب الخمر فمات سكران والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت فى ولادتها قبل التوبة أهما مؤمنان أم كافران ؟ فسألهم من أى فرقة كانا ؟ أمن اليهود ؟ قالوا لا . قال من النصارى ؟ قالوا لا قال : من المجوس ؟ قالوا لا — قال ممن كانا ؟ قالوا من المسلمين قال قد أجبتم .

قالوا هما فى الجنة أم فى النار ؟ قال . أقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام فيمن هو شر منهما (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) وأقول كما قال عيسى عليه السلام (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) .

فنكسوا الرؤوس .. وانصرفوا .

انصرف الخوارج بعد أن راعهم برباطة جأشه وانتزع منهم بجداله القوى الاعتراف بأن مرتكبى هاتين المعصيتين مسلمان • وأضاف أن الله يغفر لمن يعصى رسله ، فالعصاه عباد الله والله يغفر لمن يشاء .

وجرى جمهور المسلمين على هذه القواعد فى جملها وتفصيلها وما يزالون •

فأى ضمان للرقاب كان دلك الضمان ، فى وقت كان الشك فيه فى الايمان مهدرا للدماء •

أيا ماكان الرأى فان لأبى حنيفة ــ وقد تبعه جمهور الأمة وأهل السنة ــ هده البد العليا على المسلمين اذ آمنهم من خوف ، ولم يقض مضاجع المنقين مىهم ، ولم يقض على أمل غبر المنقين فى يوم الحساب ، وبهذا حبب الحياه للاحياء ، ولم تحتوشهم زبانية العذاب فى الحياة الدنيا ، قبل أن تستقبلهم بالمغفره ، ملائكة الرحمة فى الحياة الآخرة •

وبعد فما هو طابع فلسفة أبى حنيفة ؟ ما عنوان تلك الحياة الذى يحصل فيه كتابها ؟ وما مفتاح هذه الشخصية الذى تديره فى بساطةفتتمكن من كل ما وراءه ؟••

طابع تلك الفلسفة ، وعنوان تلك الحياة ومفتاح هده الشخصية هو التيسر ، والتسامح والحرية •

حرية وتسامح وتيسر بين نفسه وبين تلاميذه ، وبين نفسه وبن الناس، وفى الأقوال والأفعال والاموال • والعبادات والآراء • وفى البيع والشراء • وفى كل الاشياء •

كان تلاميذه يخالفونه لمجرد أن يخرجوا ما عنده من كنوز ، سئل أبو يوسف يوما لماذا قضى برأى أبى حنيفة وقد كان يخالفه فيه فقال : كنا نخالفه لنستخرج ماعنده •

وكما كانوا يحاولون أن يستخرجوا ما عنده من الكنوز ، كان يريدهم على أن يخرجوا ما عندهم لتقوى شخصياتهم وتنمو ملكاتهم وتفيد الحلقة من نبوغهم •

ففى ذات يوم انتهى معهم الى رأى فى مسألة ــ وكان تلميذه عافية الأودى غائبا ــ فقال لا ترفعوها حتى يحضر عافية لنسمع رأيه فيها .

ولئن كان أفلاطون قد علق على باب مدرسته (لايدخل علينا من ليس له عقل هندسى) فان أبا حنيفة طالما قال (اللهم من ضاق بنا صدره فانقلوبنا قد اتسعت له) .

ولقد طالما قال (علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) .

افتتح أبو يوسف وزفر عنده مسألة من حين طلعت الشمس الى أن نودى بالظهر ، فكان اذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر عندما نودى بالظهر .. فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال لا تطمعن بالرياسة فى بلد يكون هذا بها ..

وبهذه الحرية التى كانت لهم من أنفسهم ومع الأستاذ اختلطت ذواتهم بذاته ، فمكنت للمدرسة أسباب النجاح . قال رجل : أخطأ أبو حنيفة . فقال آخر : كيف يخطىء ومعه أبو يوسف وزفر ؟ ثم عدد بقيه من التلاميذ وقال . من كان هؤلاء جلساؤه لم يكد يخطىء لأنه ان أخطأ ردوه

وكثيرا ما تجد فى المسألة الواحده أربعه أقوال لكل من أبى حنيفة وأصحابه أقوال فيها وقد ترجح آراؤهم رأيه .

فى هذه الحلقة كان الأستاذ يقول منذ أكثر من ألف ومائتى عام ما لم يقله الناس الى اليوم فى انجلترا وفرنسا ! وما يزال فقه المذاهب الباقية يعارضه ــ ان من حق المرأه أن تجلس على كرسى القضاء .. قاضية فيما تقبل فيها شهادتها !..

كان يقول ان من حق المرأه الحره البالغة أن تزوج نفسها ممن ترغب . بكرا كانت أم ثيبا ، دون تدخل وليها ، لأن ذلك تصرف منها فى خالص حقها ــ ولئن كان لوليها حق الاعتراض فى حالة عدم كفاءة الزوج ، ان أبا حنيفة يفقد هذا الحق بعد جواز استعماله اذا حملت الزوجة حملا ظاهرا أو ولدت.

وكان يقول ان البكر البالغة لا يجوز لأحد أن يجبرها على الزواج بينما تجبره المذاهب الأخرى .

في هذه الحلقة كان الشيخ الجليل يقول ما ينفرد به الانجليز اليوم في شرائعهم من أن الحجر على السفيه أو ذي الغفلة غير جائز لأن في الحجر عليهما اهدارا لآدميتهما . بينما يرى غيره الحجر صيانة لأموالهما تمسكا بقوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) — أما أبو حنيفة فيشرح رأيه بأن مالك المال انسان حر بالغ عاقل مكلف بكل التكاليف الشرعية ، ولم يسقط عنه شيء من الواجبات فكيف يمنع عنه ماله ! واذن فالنص يريد أن يكون منع المال عنه تأديبا له ، والانسان في أول أحوال البلوغ قد يفارقه السفه لقربه من زمن الصبا ولكن بعد تطاول الزمن به لابد من أن يستفيد رشدا فحسبه حبس ماله عنه حتى يصل سنه الى خمس وعشرين

أما عن الحجر على السفيه بعد البلوغ رشيدا فيقول : لا أحجر عليه لأن النص انما ورد بمنع ماله عنه لا بالحجر عليه في التصرفات وأما قياس الحجر على منع المال فهو قياس الأعلى على الأدنى . اذ غاية منع المال عنه ابطال نعمة زائدة والحاقه بالفقراء ، والفقر لا ينافي الأهلية ولا الانسانية ، أما الحجر عليه فهو الغاء عباراته بعدم ترتب آثارها عليها ، وفي هذا ابطال ولايته وأهليته والحاقه بالبهائم ، وتجريده من نعمة أصلية من أكبر النعم وأجلها وهي الشأن الذي يمتاز به الانسان عن الحيوان

وامتدت ظلال الحرية عنده فتعدت منطقة الفقه الى عالم الاقتصاد فلئن كان العلماء المحدثون قد دفعوا الطول لحرية التجارة في العصر الحديث ، ان مبادئهم لم تكن خافية على أستاذ الكوفة ، الذي يأبى التدخل في قانون العرض والطلب ، ولا يجبر التسعير الجبري على الناس ووجهه قوله كما روى الشافعي هو « سد باب التحكم على الناس في أموالهم التي لهم حق التصرف فيها كيف شاءوا » . قال عليه الصلاة والسلام (لا تسعروا فان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق) والثمن حق العاقد اليه تقديره .

ولا سعى للامام (الحاكم) أن يعرض له الا اذا تعلق به صرر للعامه ؛ لكن الأسناد اد يعرض على أن ينحكم الحاكم فى أثمان العروض يعرض على أن يحكم أصحاب العروض فى العروض ، فلا يسح احتكار الأقوات ، اذا أضر هذا الاحتكار بالناس أو صيق عليهم .

ولا ينفـرد الناس بعطفه على أقواتهم بل يتسل عطفه فوق الحيوان . فتلك حاله دفاع عن المصلحه العامه يفصل فيها النظام على الحريه كما يفصله فى حاله الفتنه فلا يسمح ببيع السلاح خشيه الأذى .

وتناهت به الحرية الى أن أصبح عدو القيد حيثما وجد القيد و ذلك ما ذهب اليه فى نظام الوقف باعتباره قيدا لحريه الناس فى تداول المال .

فلقد ذهب الى حد القول ببطلانه ومن نسبوا اليه أنه يجيزه قرروا أنه يجيزه فى ثمره العين الموقوفه لا فى العين نفسها ؛ فانها لا تخرج من ملك صاحبها وتؤول الى ورثته بعد مماته . وأن الواقف لا يلزمه الوقف فيجوز له أن يرجع فيه حال حياته . وأن لزومه فى شأن الثمره كلزوم النذر ، يبتغى به من نذره ثواب الآخره ، ولا يمكن اجباره عليه بحكم القضاء

لكأنما كانت بصيرته تخترق العصور من خلال الحجب ، وترى الرأى الحى الذى تأوى اليه أفئده الناس بعد قرون وقرون

ويطول بنا السرد لو رحنا نقصى وقائع التيسير فى تفكير أبى حنيفة فلنقتصر على بعض الامثال .

بين الكتاب العزيز فرائض الوضوء حيث قال « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاه فاغسلوا وجـوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » .

فاذا طبق أبو حنيفه هذه الآية لم يحملها غير مـا حملت من الفروض الأربعه وهى غسل الوجه وغسل اليد ومسح الرأس وغسل الأرجل .

أما عيره فقالوا ان على المنوصىء أن ينوى أنه سينوضأ قبل أن يتوصأ. وأنه ادا غسل عضوا قبل أن ينوى ، وجب عليه أن يعود فيغسله بعد أن ينوى . أما هو فلا يجعل النية فرضا ، وعنـــده أن الرجل اذا دخل الماء فصد النظافة فعم الماء أعضاء الوضوء صحت صلاته ، لأن الصلاة تتوقف على الطهـــارة وقد تمت له الطهـــارة .

وقالوا ان على المنوضىء أن يتبع ترتيب الآية . الوجه فاليد فالرأس فالرجلين ، أما هو فلا يرى دلك فرضا .

وقال قائلون ان على المتوضىء أن يتابع عسل العضو بغســل العضو الذى يليه قبل أن يجف العضو الدى تم غسله . لكنه لا يرى ذلك فرضا . ولا كراهة عنده ادا لم يتابع الغسل فلربما ينسى المتوضىء . ولربما يفرغ الماء فيعمد الى احضار غيره ويجف فى ابان دلك العضو المغسول .

وبينما ينقــض الوضوء فى المذاهب الأخــرى بمجرد لمس النســاء والأجنبيات ، بشهوة عند البعض ، وبغير شهوة أى لمجرد اللمس عند البعض الآخر ، يرى الحنفية أن الوضوء لا ينقضـــه اللمس وانما تنقضـــه المباشرة الفاحشة ..

تلك نظرات الأستاذ المسماح ، يخفف على الناس أعباءهم ، ويكفيهم خطر اعادة الوضوء فى كل وقت ، وخطر فراغ الماء ، فى أزمنة وأمكنة لم يكن فيها الماء ميسورا كما نجده الآن .

وكما يسر الأستاذ على المتوضئين يسر على المصلين .

فهو لا يكلف من يصلى بأن يرفع يديه اذ يفتتح الصلاة ، وهو يجيــز أن تفتتح الصلاة عنده بعبارة « الله أكبر » بلغة أجنبية وان كان المصــلى قادرا على النطق بها باللغة العربية . لأن المطلوب هو تعظيم الله . وهو سبحانه وتعالى يعظم بكل لسان . بل هو لا يشترط فى الافتتاح لفظ التكبير نفسه ، بل يصح بالتسبيح كقول المصلى « سبحان الله » أو بالتهليل كقوله : « لا اله الا الله » .

وهو وحده من الأئمة الذى أباح قراءة القرآن فى الصلاة باللغة الأجنبيه مع ندرة المصلى على قراءتها بالعربية ـ ولو أنه قيل انه رجع عن ذلك الرأى .

وكما يسر على المصلين المقيمين ، يسر على المسافرين . فأوجب عليهم أن يقصروا الصلاه الرباعية « ذات الأربع ركعات » وأن يجعلوها ركعتين . ولم يكتف بتجويز ذلك لهم كغيره بل أوجب عليهم التيسير ايجابا .. وحقيقة مذهبه فى دلك أن الله لم يشرع فى السفر الا ركعتن فلا يلزم المسلم أن يصلى أربعا ، ولو نوى أن يصلى أربعا لا يقع فرضا الا ركعتان والباقى نافلة

وتجاوز التيسير عنده العبادات لينجلى فى أبهى مجاليه فى المعاملات . لقد انعكست أشعة الفكر العملى على كل فرع من فروع مذهبه وغدا (المعروف عرفا كالمشروط شرطا) وصارت « العادة محكمة » حتى اذا عمد تلميذه محمد الى وضع أحكام الصباغة لم يقتصر على تطبيق قواعد الفقه بل قصد الى الصباغين يدرس معاملاتهم بين ظهرانيهم .

وتوج الأستاذ سماحة الرأى وسماحة النفس بسماحة اليد البيضاء ، فجعل من ذاته ومن حياته ملتقى يتجمع عنده وتصدر منه المعانى الرفيعة فى النظم السياسية والاجتماعية المسيطرة فى القرن العشرين للميلاد . اذ كان وهو التاجر العريض الثراء يخرج عن أكثر ماله للفقراء . ولا يستبقى لنفسه منه الا قدرا محددا (أربعة آلاف درهم) هو مقدار نفقته . وما عداه لا يراه حقا لنفسه بل يراه من حق الناس . وبهذا سبق الفيلسوف الروسى تولوستوى بأحد عشر قرنا . وأضاف الى سماحة الفكر والنفس اشتراكية الأستاذ الذى لا يخص بماله تلاميذه ، بل يشرك فى أمواله الناس جميعا ، معلما لهم أن ما يصيبونه منه ليس الا حقا لهم وان كان الله يجريه على يديه .

كان أسلوب الأستاذ الفكرى هو الأسلوب العلمى الحديث واليك بعض الامثال :

فالنوايا فى فقهه كالبواعث فى الفقه ليست هى الأسباب . والأحكام تبنى على الأسباب لا على النوايا لأنها ليست ظاهـره . فاذا ساءت النية وظلت خافية ؛ وحسن السبب وبرر للأعين ، فان التصرف يصح شرعا فى أمور الدنيا . وبهذا تجرى الأحكام على المعلوم لا على المجهول وعلى اليقين لا على الريب . وعلى الحرية لا على التحكم .

وان من قواعده أن اليقين لا تزيله الشكوك .

فاذا كان زواج المتعة محرما شرعا لأن المقصود به استمتاع الرجل بالمرأة مدة من الزمن على غير ما يرمى اليه الزواج الصحيح من ارتباط الزوجين رباطا أبديا فقد ذهب البعض الى ابطال الزواج اذا كان قصد المتعة فيه مضمرا عند العقد لكن الأستاذ يرى البحث فى النوايا مخاطرة تكتنفها من الأخطاء قدر ما يحدق بها من الأخطار واذا كان قصد المتعة خافيا عند العقد فكيف يتأكد منه الناس !

ولهذا أباحه وان نوى الرجل أن ينهى زواجه مدة نواها مـا دام لم يذكرها فى العقد

ومن الأحكام الشرعية أن المرأة اذا طلقت طلاقا بائنا لم تحل لزوجها حتى تتزوج من سواه ثم تطلق منه يريد الله بذلك أن يهذب أنفس الناس ويبين لهم أن الطلاق أبغض الحلال اليه فلا يستعمل الا عند انقطاع الأسباب وأن على من خارت بالطلاق يدفع مثلما اندفع فترقت حبه الزواج الثانى والتزويج من الزوج ، وقبول الزوجة أن تعود اليه ، وهى احتمالات آخرها أعسر من أولها ، يتنقل فيها المطلق من مجهول الى مجاهيل ، تعـذبه فكرة انتقال الزوجة على هذا النحو الذى تفزع منه الطبيعة البشرية .

ولكن ما القول اذا اتفق (الطرفان) والزوج الجديد على أن يكون الزواج الجديد طريقا للوصول الى الزواج القديم وأن الزوج الجديد ليس الا (المحلل) الذى يعقد على المرأة فتزوجها على أن يطلقها لتعود الى الزوج القـديم .

هل سحقق فى هذا الرواح قصد الشارع . أم هو عير مقصود لداته وانما مقصود به داب السد القديم ؟

فى هده المسأله دهب أئمه الفقه مداهب شى وبحسبا أن بعرض بعضا منها .

قال أبو يوسف : ان زواج المحلل فاسد ولا يحل للروجه أن تعود للروح القديم . وقال محمد ان رواح المحلل صحيح لكن الزوجه لا تعود للزوح الأول لأنه سنعجل ما أخره الشرع فعامل سقيض قصده

وقال مالك : ان زواج المحلل فاسد ويعاقب الروجان عليه ويعاقب الشهود ان علموا . وقال ابن حنبل ان الزواح باطل .

أما الشافعى فله رأى وسط بين الآراء انتهى اليه بعد أن قدم الى مصر قال : اذا ورد عقد رواح المحلل مطلقا بلا شرط فيه وكانت نية الروح أن لا يمسكها الا قدر ما يصيبها لتحللها لزوجها الأول فان الزواج صحيح ولا تفسد النية شيئا منه لأن النية حديث نفس وقد ينوى الشخص الشىء ولا يفعله أما ان تزوج الرجل بشرط أن ينهى الزواج بالدخول واللمس لتحلها من زوجها الأول فهذا العقد باطل .

تلك آراء الأئمة فى التحليل مختلفة كما ترى وهى من قديم ليست محلا للاتفاق

أرسلت امرأه الى رجل فروجته من نفسها لتحلها الى زوجها فأمره عمر ابن الخطاب أن يقيم معها ولا يطلقها وأوعده ان هو طلقها أن يعاقبه

أما الامام الشعبى فقال · لابأس بالتحليل ان لم يأمر به الزوج .

وأما الليث بن سعد ـ امام مصر ـ فرأى رأيا رشيقا قال . ان تروجها ثم فارقها لترجع الىالأول فان بنالثانى دلك للأول بعد دخوله بها لم يضره.

وهذا الاحسان الكريم الذي يشير به الليث قد روى مثله عن أبى الشهداء وشهيد كربلاء حتى لنحيل للباحث أن صنيعه قد ألهم الليث فكرته جميله ومفصلا . قالوا ان الحسين بن على لم يروج أريب بنت اسحق

رغبة في مالها أو جمالها . فلقد كانت زوجة عبد الله بن سلام اد خدعه معاوية فأنفذ اليه الرسل أن سيزوجه من بنته ، وأفهم عبد الله أن بنت أمير المؤمنين لا ترضى أن تكون لها ضرة ، فطلق أرينب في انتظار بنت الخليفة ! ثم مضى رسول آخر الى أريب في العراق يخطبها لولي العهد يزيد بن معاوية — وكانت قد شغفه حبا فلجأ الى أبيه يستشفيه فدبر له الأمر على ما نرى — حتى ادا بلغ الرسول العراق لقي الحسين ، فقال له الحسين اد عرف رسالته : انى كنت عزمت على الرواج منها وأردت الارسال اليها ولم يمنعني من ذلك الا سؤال مثالك . فاخطب رحمك الله علي وعلى يزيد ولتخير من اختاره الله لها فلما عرض الرسول الأمر عليها قالت (اختر لي أرضاهما لدلك ، قال : انما عليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك وانما أنا ابنة أخيك . فلما لم يجد بدا من القول قال «ابن بنت رسول الله أحب الى » .. فاختارته وساق الحسين اليها مهرا عظيما . وبلغ معاوية ما كان من فعل رسوله قال : من يرسل دا بلاهة وعمى يركب من أمره خلاف ما يهوى ، ولقد كنا بالملامه منه أولى حين بعثناه .

وكان عبد الله قد استودعها قبل الطلاق بدرات مملوءة درا ، فاحتاج اليها بعد أن أهدره معاوية ، وقصد الى الحسين يعلمه خبر ودائعه . فلما أخبرها الحسن قالت : هي عندي بطابعه الذي طبعه عليها ، قال الحسن لعبد الله : ادخل عليها وتوق مالك . قال : أو تأمر بدفعه الى جعلت فداك . قال : لا حتى تقبضه منها كما دفعه اليها ، فلما دخلا عليها أخرجت البدرات وقالت له : هدا مالك فشكر لها ، وخرج الحسين ففض عبد الله خاتم بدره ، فحثا من الدر حثوات . وقال خذي فهذا قليل مني لك . واستعبرا جميعا أسفا على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذي سمع منهما فقال: . أشهد الله أنها طالق ثلاثا . اللهم انك تعلم أني لم أستنكحها رغبة مني في مالها ولا جمالها ولكني أردت احلالها لبعلها . ولم يأخذ مما ساق اليها في مهرها قليلا أو كثيرا وحاولا أن يرداه اليه فلم يقبله وقال : الذي أرجو عليه من الثواب خير لي منه . فتزوجها عبد الله وعاشا متحابين حتى قبضهما الله اليه .

تلك آراء الأئمة ، لكن رأى أبى حنيفة أن العقد صحيح على الاطلاق ولو شرط فيه أنه (عقد للتحليل) أى صرح فيه بأن الزوج يتـزوج المرأة ليحلها لزوجها الأول .

تنحصر مطاعن خصـوم أبى حنيفـة فى هذه المسألة فى أنه يستمسك بظاهر النص حيث تقول الآية . « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ويقولون ان الآية يراد بهـا مؤدى العقد وهو الاسـرار لاحرفية العقد وهى مجرد عمله .

لكن ثمة أمورا متفقا عليها تضيق بها شقة الخلاف ويبين منها ما يعمد اليه أبو حنيفة من التيسير والتعمير والاصلاح ما استطاع .

فالقبح الذى يستقبحه خصوم أبى حنيفة فى المحلل يستقبحه أبو حنيفة بقدر سواء ، والعقد عنده مكروه كراهة التحريم ، ثم ان دخول الزوج الثانى بالزوجة واجب عنده لأن الرسول عليه السلام قد أفهم بذلك امرأه ترافعت اليه فى الموضوع وذلك رأى الصحابة والتابعين ولم يذهب أبو حنيفة فى مسألة المباشرة ــ المس ــ مذهب شرذمة قليلين على رأسهم سـعيد بن المسيب لم يوجبوها ، فذلك مذهب لا يخفى أنه فى غاية المجانة والفضاحة ولو قضى به قاض لا يعتد لوقوعه باطلا ولا ينفذ بالتنفيذ .

فلم يبق الا الشرط المقرون بالعقد وهو شرط فاسد عند أبى حنيفة ، والشروط الفاسدة عنده تفسد عقود المعاملات المالية ولا تفسد غـيرها من العقود كعقد الزواج ، وانما لكل امرىء ما نوى وقد سلك الطريق المفضية الى الزواج فى ظاهر الشرع .

ثم ان المحلل غايته أنه نوى الطلاق اذا وطىء المرأة وهو مما ملكه الشرع اياه . كما لو نوى المشترى اخراج المبيع من ملكه اذا اشتراه ، أو نوى فى عقد الشراء اتلاف المبيـع واحراقه ، أو اغراقه فلا يقـدح ذلك فى صحة البيع ، ولو اشترى عصيرا فى نيته أن يتخذه خمرا ، أو جارية وفى نيته أن يكرهها على البغاء . أو سلاحا وفى نيته أن يقتل به معصوما ، فكل ذلك لا أثر له فى صحة البيع .

فالمسك نصريح النص ليس احتيالا ، والكراهة الدينية شيء وانعقاد العقد القانوني شيء آخر ، والدين لله ، والدنيا لنا .

واذا طبق الفقيه النص تطبيقا يحتمله ظاهر النص وصريح اللفظ ، فليس ذلك احتيالا كما يحتال أرباب الحيل الممقوتة ، مثل التحايل للربا ، أو لمنع الصدقات . كمن يعطي الرجل بأن يهب ماله لآخر اذا أوشك العام على الانتهاء ثم يسترده اياه فلا يتم عام على المال في يديه ولا تستحق عليه الزكاة . وكالارتداد لفسخ الزواج أو ذلك الساخر الذى حلف ألا يأكل رغيفا أو قطفا من العنب أو قمحا فأحل نفسه من اليمين بأن أكل الرغيف الا لقمة ! والقطف الا حبة . ! وطحن القمح وأكله خبزا فذلك هزل بارد لا يستساغ

وبحسب أبي حنيفة فخرا أن التاريخ لم يرو عنه أنه سخر براعته في التخريج والتكييف لخدمة سلطان أو نصرة ذي جاه

قال الشعبي . (لا بأس في الحيل فيما يحل ويجوز ، وانما الحيل شيء يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج به الى الحلال . فما كان من هذا ونحوه فلا بأس به) وحصر سفيان الثوري مجلسا فلما أراد الخروج منعوه فحلف أن يعود ، ثم خرج وترك نعله كالناسي لها فلما خرج عاد فأخذها وانصرف

ورأت امرأة عبد الله بن رواحة زوجها على جارية له فذهبت وجاءت بسكين فصادفته وقد قضى حاجته فقالت لو وجدتك على الحال التى كنت عليها لوجأتك ! فأنكر ، فقالت فاقرأ ان كنت صادقا . قال

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا !

قالت الساذجة آمنت بكتاب الله وكذبت بصري !!

وبلغ ذلك النبي فضحك ولم ينكر عليه هذا الحيل باظهار القراءة لما أوهم به زوجته أنه قرآن تخلصا من غضبها لفهم أنه ليس جنبا حتى لا يقرأ القرآن الا المطهرون

ولئن ثار البعض على الاحتيال ، فكم فى فقه أبى حنيفــه من الأصول التى تثور فى وجه الاحتيال . وكم باهى الفقهاء بالحيــل فى حل مشكلات الايمان

وحسبنا أن نستعرض أحد المخارج التى أدهش بها الليث بن سعد بلاط الرشيد . قالوا ان هرون الرشيد جرى بينه وبين زوجته كلام فقال لها « أنت طالق ان لم أكن من أهل الجنة » ثم ندم واستحضر العلماء من شتى الأقطار فلما اجتمعوا سألهم فاختلفوا . وكان فى آخر المجلس شيخ هو الليث بن سعد سأله فقال اذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم ، وأمر باحضار مصحف ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل الى سورة الرحمن فلما انتهى الى قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : أمسك يا أمير المؤمنين ثم استحلفه بالله قائلا : انى أخاف مقام ربى فقال . ياأمير المؤمنين فهما جنتان لا جنة واحده ! . قالوا فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر — ولا جرم كان الستر يحجب كواكب القصر ! — فقال له الرشيد : أحسنت وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له باقطاع الجيزه ، بل ولا يتصرف أحد فى مصر الا بأمره .

ورووا من حيل أبى حنيفه أن رجلا أتاه بالليل فقال أدركنى قبل الفجر والا طلقت امرأتى قال وما ذاك ؟ قال : تركت الليله كلامى فقلت لها ان طلع الفجر ولم تكلمينى فأنت طالق ثلاثا وقد توسلت اليها بكل أمر أن تكلمنى فلم تفعل — قال الشيخ اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر فلعلها اذا سمعته أن تكلمك واذهب اليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن . ففعل الرجــل وجلس يناشدها وأذن المؤذن فقالت طلع الفجر وقد تخلصت منك . ! قال : قد كلمتنى قبل الفجر وتخلصت من اليمين

أما مخارج أبى يوسف فكانت غذاء شهيا للرواه وسنرى فيما بعد بعض ما قدموا الينا منها .

فى فتره معاصره وضع كتاب أسماه صاحبه (كتاب الحيل) نسبه خصوم أبى حنيفه الى أبى حنيفه وقابله الرأى الفقهى فى كل مكان بالاستنكار لما فيه من مخارج تؤدى الى الكفر الصراح .

ومن المقطوع به أن أبا حنيفة أو أحدا من صحبه لم يضعه فان مذهبه ومذهب صحبه أن من يأمر بالكفر كافر .

ولم يذكر أحد من تلامذته أو رواة مؤلفاته كتابا له من هذا القبيل ولا روى ذلك أحد من الثقات .

قالوا (ما وضعه الا ابليس) فقال عبدالله بن المبارك : « الذى وضعه أبلس من ابليس » وابن المبارك ــ كما قد علمت ــ تلميذ أبى حنيفة .

***

كان الأسلوب التعليمى لأبى حيفة يضاهى الاسلوب التعلبمى فى أحدث الجامعات من حيث النحليل والنعليل ، وتأصيل الأصول ، وترتيب النتائج مع التجرد العلمى ، تجرى فيه الطبيقاب العملية على وقائع حبة تنطبع فى الذهن وتنضبط فى الوصف ، لأن العمل وحده هو الذى يثبت العلم ويثبته ولهذا أنشئت نظم (الأقســام) فى الجامعات لندريس النطبقــات ، وهذه الدراسات العملية فى القانون تقابلها دراسة الشريح فى الطب . ودراســة المعامل فى العلوم وما اليها .

ولعلك لا تجد قضية كقضية (أم عمران) بين القضــايا التى يتدارسها الطلاب فى معاهد القانون ، استعرضتها مدرسة أبى حنيفة أيما استعراض ! شهدت الواقعة ، وشهدت المحاكمة ، ثم تولتها بالبحث ، والنقد ، وتناولت الحكم الصادر فيها بالتعليق الدقيق .

كانت بأم عمران جنة وكانت بازاء جامع الـكوفة فمر بهــا رجل فتناوشا فقالت له : يا ابن الزانيين .

وكان القاضى فى المسجد قد سمع السب . فأمر الرجل أن يدخل أم عمران عليه فى المسجد فأدخلها ، وأقام عليها حدين ، حدا لأبى الرجل وحدا لأمــه .

وعرفت حلقة أبى حنيفة هذه الواقعة وهى على قيد أذرع من المحكمة فى المسجد الجامع فلم تهن فى انتقاد القاضى . وقلب استاذها له الأمــور اذ رد

قضاءه الى الأصول ، أو ان شئت تعبيرا عصريا فقل أخذ « يكيف الواقعة » و « يناقش التطبيق » وقال :

. أخطأ ابن أبى ليلى فى ستة مواضع .. !

الأول : أقام الحد فى المسجد و لاتقام الحدود فى المساجد .

الثانى : وضربها قائمة والنساء يضربن قعودا .

الثالث : وضرب لأبيه حدا ولأمه حدا ولو أن رجلا قذف جماعة كان عليه حد واحد .

الرابع : وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما .

الخامس : والمجنونة ليس عليها حد .

السادس : وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان .

فالجنون كمانع من موانع العقاب ، وتعدد العقوبات ، وتعدد الجرائم ، وطريقة المحاكمة ، واختصاص المحكمة ، وقضاء القاضى بعلمه ، ومكان التنفيذ ، كل أولئك أمور تكاد تكون أم الكتاب فى الفقه الجنائى ، وثبت الى خيال التسبخ فور البديهة فى مكان الحادث ، وفى وقت وقوعه ، فعلمها تلاميذه .

كان ذلك شأن أبى حنيفة فماذا كان شأن القاضى ؟

وهو من هو فى تاريخ الكوفة : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، صاحب الرأى والأستاذ الاول لأبى يوسف ، وثالث ثلاثة من جلة الفقهاء كانت تلمع اسماؤهم فى سماء العراق عامة وفى الكوفة خاصة ، شريك النخعى وسفيان الثورى وهو :

انه لم يقرع الحجة بالحجة ولكنه راح يقرع باب الأمير .

وشكا للأمير فأمر الأمير أبا حنيفة بألا يتعرض لقضائه .

لكن أعداء العالم كأوليائه فى الحاجة اليه سواء فقد امتنع عن الفتيا أياما حتى قدم عليه رسول من ولى العهد يستفتيه فى مسائل فقال : أنا محجور على،وعاد الرسول الى الأمير وقال الأمير : قد أذنت له فقعد فأفتى

سأل رجل أبا حيفه عن فتح خوخة في حائطه فقال . افتح مـا تشئت . ولا تطلع على جارك وشكاه الى ابن أبي ليلى فمنعه فعـاد الى أبي حنيفه فقال افتح فيه بابا ، فمنعه ابن أبي ليلى ، فعاد الى أبي حنيفه فقـال . كم قيمة حائطك ؟ قال : ثلاثه دنانير قال اهدمه ولك على الثلاثه فجاء ليهدمه فرفعه الجار الى ابن أبي ليلى فقال ابن أبي ليلى : يريد هدم حائطه وتسألني أن أمنعه ؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت في جدارك فقال الجار . كان فتح الخوخة أهون على !!

وهكذا حاور القاضي والخصوم بين يديه حوارا عمليا أخضع الأشخاص كالأشياء والآراء لسلطانه .

وفي ذات يوم اجتمع الفقهاء لدى الأمير يستفتيهم ، فأدلى كل برأيه ، وأدلى أبو حنيفه برأيه ، وأدلى الحسن بن عماره برأيه ، فقال ابو حنيفه . أخطأنا وأصاب الحسن .

وقال الحسن : لو شاء أن يفتي قوله ويردني من قولي لأمكنه ، فعلمت أنه ليس أورع منه

بهذا وأمثاله كان الحسن يأخذ بركابه وهو يقول « والله ما أدركنا أحدا تكلم في الفقه أبلغ ولا أصبر ولا احضر جوابا منك وانك لسيد من تكلم في الفقه في وقتك غير مدافع ، وما يتكلمون فيك الا حسدا »

الباب الخامس

التلاميذ

« العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت اذا أعطيته كلك من اعطائه البعض على غرر » .

(أبو يوسف)

آلت الى أبى حنيفة رياسة الحلقة وهو فى الأربعين بعد أن ظل عاكفا على أستاده قرابة عشرين عاما سبقتها دراساته ورحلاته ، فادا علم تلاميده علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة . وان أول ما يعظهم به هو داته ، ولقد أخد نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للافتاء . فليأخدهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهنى والاستعداد الروحى .

مرض أبو يوسف مرضا أشفق عليه منه فكان يتعبده حينا بعد حين ، وسار اليه آخر مرة فرآه مقبلا بعد أن أبل فرجع ثم قال « كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك لموتن معك علم كثير . » فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبى حنيفة ، وقصد اليه الناس يتحلقون حوله ، وافتقده الشيخ فعلم جملة الخبر . فطوى السنين القهقرى واسترجع الذكر نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه فى نحو الثلاثين فى ضحوة العمر . والدهر صفو والزمان غلام ، يوم غره الغرور فحمل ثم حال ، فعزم الانفصال من أستاده ، وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم يتخل عن تلميذه ، ودعا اليه صديقا سيره اليه بحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول فى رجل دفع الى قصار « وهو الخياط الذى يقصر الثياب » ثوبا ليقصره بدرهم ، فصار اليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره ثم ان صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فرده اليه مقصورا فهل له أجر ؟ فان قال له أجر قل أخطأت . وان قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب فى صباه يعمل عند قصار صبيا « وكان أبوه على ما قيل خياطا » ولعل هذا سر اختيار السؤال ، فاذا عجز الأستاد الحدث عن الجواب فى مسألة له بها من كل ناحية عهد ، فحسبنا للعلم الذى يدعيه .

ومشى الرسول يحث الخطى الى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ يجيب ، قال له أجره . قال أخطأت فأطرق مليا ثم قال لا أجرة له قال أخطأت .. وعميت الأنباء على المفتى فأبلس ، وأسر الندامة لما رأى الخطأ . وانطلق من مجلسه انطلاق السهم الى الرمية الى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة أظن ما جاء بك الا مسألة القصار .

قال أبو يوسف : بلى .

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتى ، وقعد مجلسا يتكلم فى دين الله ، وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب فى مسألة من مسائل الاجارات !!

أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمنى .

أبو حنيفة : ان كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه وان كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه .

أبو يوسف : !! .

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليبك على نفسه . . !

وبكى أبو يوسف على نفسه مدرارا وعاد الى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة (اعلم ان العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لابد منه فى المفازة مع الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير) أو قوله (من تكلم فى شىء من العلم وتقلده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت فى دين فقد سهلت عليه نفسه ودينه وقوله (من طلب الرياسة فى غير حينه لم يزل فى ذل ما بقى) ولذكر قول النبى عليه الصلاة والسلام (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار) .

ولما تقدم حماد بن أبى حنيفة يوما ليصلى بالناس أخذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره ، وقدم غيره ، فقال حماد : ياأبت تفضحنى ! قال « بل أردت

أن تفضح نفسك فسمعك اد لو صلب فقال قائل أعدوا صلاتكم خلف هذ' فسطر في الكتب ويبقى عاره الى يوم القيامه ! »

ولما أخذ يعلمه وجهه الى دراسه علم الكلام حينا ثم صرفه عنه فحدثه حماد بقوله (ألست كنت تأمرني به) قال « بلى وأنا اليوم أنهاك عنه » قال « ولم » ؟ قال يابني ان هؤلاء المختلفين في أبواب الكلام ممن ترى كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوه والاختلاف » ثم قال « كنا نجتمع وكأن الطير تخفق على رءوسنا وقد بلغني أن قوما يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام واننا همه أحدهم أن يظفر من صاحبه بشيعه يشنع بها عليه فاذا بلغ الكلام هذا الحد فتركه خير» وفي عباره أخرى من عباراته «كنا ناظر وكأن على رءوسنا الطير مخافه أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم »

واذا كانت هذه نظره أبي حنيفه الى العلم وأهل العلم وهذا انصافه للعلم من نفسه ومن ولده . فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم .

كلا بل انه ليصف بدا الى أناديه عليه فيهديه ، ويجادله بالتي هي أحسن ، لا بعوارض الكلم ، ولا بمواجهة ثقه في نفسه مواجهة المسيرى لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه ، ليكون في حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد كان هذا الصنع الذي صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لقيه الأستاذ الموفق يهدى فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ لكان محتملا أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدي ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان النسخ فظا غليظ القلب ، ولم يتكر تلميذه ذلك المكر الجميل .

وما أعظم ما تؤتي حسن التعبير من ثمرات رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ؛ واستدعى آخر فقال له تكون أطول أهلك عمرا فأعطاه وكرمه وقربه . .

عاد أبو يوسف الى الحلقة بعد أن تعلم فى هذا الدرس جماع علومه فأضحى يقول (العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت اذ تعطيه كلك ، من اعطائه البعض على غرر) .

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم ولو حاولنا أن نستقصى مظاهر هذا البر لكنا كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة . وبشىء آخر هو الطريقة المثلى للاقناع هو الذى يحدث الجرس الأخاذ ، والرنين النفاذ ، ويجتبل الصعاب بسائط . هو تقديم العلم فى وعاء من الحب ، وخروج الكلام من القلب الى القلب واستيلاء المتحدث من قوره على الروح .

وليس يستطيع ذلك الا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع فى طاقتها أن تبعث الى أنفس الناس شعاعا دافئا دافقا كأنه الكهرباء .

قال الحسن البصرى للواعظ الذى تعرف نفسه من كلامه « ياهذا . ان بقلبك لشرا أو بقلبى »

وعمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس كما تجلت فى مناهج الدرس فستر على تلاميذه بالقصد والرفق ؛ والصبر والترفع فلم يكن يؤكل فى حلقته لحم الصديق ولا لحم الخصم وسما عن مساوأة خصومه الى الاستغفار لهم . فملك ألباب تلاميذه وبهر أبصارهم ، وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان يستقيان من ماء التسامح ، وأن المؤاخاة فيهما وفيهما أدنى الى الهدى من الملاحاة . وأن النصيحة صدق فى التسامح قبل أن تكون قدحا فى الغائب ، وأنها على كل حال لغة على المعاب

ويتواضع الأستاذ لله فرفعه فى أعين الناس وتلاميذه ، وبصروا منه بما يبصر به المقربون ، وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء . وأعزهم الله به وأثره بقرباهم و « لا وحدة أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثورى ياأبا عبـدالله ما أبعد أبا حسفة عن الغيبة ـ ما سمعته يغتاب عدوا له ! قال : هو أعقـل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل · يـكلمون فيك ولا تتكلم فى أحد ! قال « هو فصل الله يؤتيه من يشاء » .

ومن بعد دلك ببصع قرون قال الحـكيم الفرسى لا برويـيـر « ان التواصع بالسبة للشحصية كالظلال بالسبة للصورة توضحها وتظهرهـا وتجليها »

ولما سئل الفارابى . أنت أعلم أم أرسطو ؟ قال « لو أدركته لكـىـ احسن تلامبده » وفال · « قرأت السماع لأرسطو اربعـين مرة وأرى أبى أحتاج لمعاودته » .

قىل لأبى حنىفة اتق الله ، فاتىفض وطأطأ رأسه ثم قال « يا أخى جزاك الله حىرا ، ما أحوج الىاس فى كل وفـ الى من ىذكـرهم الله تعالى وقـ اعحابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .

ولم يدخل عليه داحل وخاض فى حديث الىاس الا فطع عليه حوصه

وكان يقول (اياكم ونقل مالا يحبه الىاس من حدىـ الىاس عفا الله عىن قال فىا مكروها ورحم الله من فال فىا حىىلا تفقهوا فى دين الله ودروا الىاس من حديث الىاس وما فد احتاروا لأنفسهم)

فيل له هدا الدى تفىا به هو الصواب بعىىه فال « ما أدرى عىى أن يكون الحطأ بعىنه » .

وقال يهدـ تلميده يوسف السمى فبل حروج يوسف الى البصره (.. ومن مرض من احوانك فعده بىفسك وتعاهده برسلك ومن ىـكلم فيك بالقبيح فـكلم فىه بالحسن والحمىل . وأفش السلام ولو على فوم لئام) ثم كشف له عن السحر الذى يسحر به الفقىه مىاظـريه فال (ومتى جمع بينك وبين غىرك محلس ، أو ضمك واياهم مسجد ، وجرت المسائل

أو خاضوا فيها بخلاف ما عدك لم تبدلهم منك حلافا ، وان سئلت عنهـا أخبرن بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا . فان سمعوه منك عرفوا مقدار دلك ومقدارك . فان قالوا هذا قول من ؟ فل بعض الفقهاء . فادا استمروا على دلك وألفوه ، عرفوا مصـدارك وعظموا محلك . واياك والحقد وان غدروا بك . وأد الأمانة وان خانوك)

قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه اياه . ويقول اشكر الله تعالى فانما هو رزق ساقه الله اليك .

كان هذا الخميص الصائم الذى لا تجد فى داره الا البوارى يفـرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ، ويبعث البصائع الى بعداد فيسرى الأمسعه ويجمع الأرباح لتسرى بها حوائج المعلمين ، يعوتهم ويمونهم ، ثم يدفع اليهم الدنانير قائلا « أنفقوا فى حوائجكم ولا تحمدوا الا الله سبحانه وتعالى فانها أرباح بضائعكم . مما يجريه الله لكم على يدى .. »

فلنختصر فى السرد ولندع عنان الحديث لأبى يوسف حيث يقول :

(كنت أطلب الحديت والفقه وأنا رت الحال ، فجاءنى أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال لى يا بنى لاتمدد رجلك مع أبى حنيفة فان أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج الى المعاش . فقصرت عنه كثيرا فى الطلب وآثرت طاعة أبى . فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهـد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال . ما شغلك عنا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى . فجلست ولما انصرف الناس دفع الى صره وقال استمتع بها فاذا فيها مائة درهم . وقال لى : الزم الحلقة فادا فرغت هذه فأعلمنى . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت) .

كان أبو يوسف فى نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع جاء الى الحلقة تاركا حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليـلى وقد قصصنا من قبل بعض آثاره

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب المجد جميعا : العلم الديني ، والعلم الدنيوي ، وأموال تكاد لا تحصى . ووظيفة دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هرون الرشيد .

فلنرجع النظر الى روايته مستمرئين . فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله (لا حسد الا في اثنين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) وبهذين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد ، فسخ المال في سبيل الخير ويقضي بالحكمة ويعلمها ، سخا ليس له أول ولا آخر . وتعليما يكاد تضيق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يمسه بالسخاء ، أريحيا مرهف الحس . يدرك وحي الغيب ودخائل النفس يعطي من فوره ، ويعطي في الميعاد . وقديما قال الحكيم العربي (خير الخير أوحاه) . وأقدم منه قول الرومان (ان من يعطي فورا يعطي مرتين) والبدار في ذاته فضل ، ثم هو يعطي في غيبة الناس فلا يشهد على العطاء الا نفس صاحبه ، في أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه عن مهانة الابتذال .

وأي رشاقة كرشاقة اليد العليا وهي تدفع المال الى اليد الأخرى دون رنين أو التماع . فتقدمه في صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب في اسماع يسكر البصر ، كل أولئك وهو مع تلمسه له لا بأس عليه ان هو خلع ثياب الحرج من تأبيه لكن الغريب عنده كالغريب ، وكذلك الذي ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها ! وكذلك الجليس صاحب الثوب الخلق ، وذلك المدرس الذي لا يجلس في ظلاله ! يصنع الصنيع دائما في استخفاء وعلى استحياء ، وفي تلطف كتلطف الملبس يقطع بأنها السجية المطبوعة لا السجية المصنوعة ، واذا شكر أنكر الشكر ونقله الى شيخه حماد .

قال أبو يوسف (وكان يعولني وعيالي عشرين سنة واذا قلت له ما رأيت أجود منك ، يقول كيف لو رأيت حمادا . وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه) .

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصي بين الأستاذ ورواده .

قال لأبي يوسف ينصحه (وأقبل على متفقهك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة في العلم) وتلك النصيحة هي الصنيع الذي ظل يصنعه طوال حياته ، لا ينفك يسأل عن المريض من تلامذته حتى يبرأ . وعن الغائب حتى يرجع ، وعن عسر المريض وعسر الغائب ، لم يعرف عنه أنه اختص ولده حمادا بعطف كما اختص تلاميذه قال عصام : (لم يكن لأحد من الخلق كما لأبي حنيفة على أصحابه وكان الذباب اذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه) .

والذي صنعه مع أبي يوسف في مرضه والذي صنعه معه لما جلس للفتيا لم يك الا أمثالا مسوقة العواقب . ففي واحدة شد أزر فتى كان يومه يسر غده . وفي الأخرى دعاه الى الاستزادة من العلم ، فأوتي منه بسطة سمت به الى أرفع الدرا من أئمة الفقه عامة ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه اليد بقوله : (اني لأدعو له قبل أبوي وسمعته يقول أني لأدعو لحماد مع أبوي).

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه بينما سوى أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه وكلاهما على الانصاف لأن أبا حنيفة علمه على رغم أبويه . وعلى النحو الذي كان يدركه أبو يوسف بقوله : (تغمد الله أبا حنيفة برحمته ، وجازاه خيرا ، فانه أطعمني الدنيا والآخرة اطعاما) .

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطائه ان الحديث نفسه ليثني بمقدار ما كان يتوخاه من اخفاء ـــ والوقائع التي سردنا من قبل تنم عنه وتقرره ـــ فكم من التلاميذ لم يعلنوا أياديه لقد أعلنها الحسن بن زياد اذ كان يلازم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن، وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم ، وأعلنها يوسف ابن خالد السمتي واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه وان كان فقيرا أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صبا من العطاء حتى يتعلم ، فاذا تعلم قال له قد وصلت الى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام وأجمعوا

أنه كان معروفا بالافضال على كل من جمعنهم به الأسباب . ورواية أبى يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مرارا ، ويسره اسرارا ، غير ممنون ولا مجدود ، ولا مصرد ، مما لا يقع الغله .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل ، ولوقع أجره على الله لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء. ويزيده سموا أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها فى ثواب الآخره ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالانفاق ، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم . فالانسانية العليا هى المبدأ والمنتهى والأمل المشتهى لا حسن ثواب الدنيا ولا حسن مآب الآخـرة .

ويرتفع الفضل الى سماء ما طاولتها سماء اذ يصنعه صاحبه ليمكن الذين أعطاهم من أن يلفوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى ، نعنى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ .

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهره الأولى فى حياة أبى حنيفة ، وهى قيام مدرسه كبيره منظمة ، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يحمل أعباء تلاميذها الماليه مثلما يحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده فى الانفاق وفى التهذيب ، فى اخلاص للعلم كأنه العباده .

جاء اليه رجل بكتاب شفاعة ليحدثه فقال (ما هكذا يطلب العلم ، قد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه لا تكون العالم له خواص لكنه يعلم الناس ويريد الله بعلمه) .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفه خلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العليم بأن ثروه المفكر هى الفكر ، فاذا خلف المفكرون من بعدهم أفكارا فقد أنجبوا ، أما ما يخلفون من عروض وأمـوال فهى كسائر ما يخلف الموتى من العروض تتناهى فى النقصان بقدر ما تتناهى فى التداول والتعامل وأما الفكره فهى النور تتناهى فى الانتشار كلما تداولتها الأنفس ، وتتناهى فى الازدهار كلما أرهقها الأذى ، فلا على صاحب الفكر

اذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل مادا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاه والسلام بأنهم معاشر الانبياء لا يورثون ، وان ما يتركونه صدقة للعالمين فادا سأل عمن تجيء مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشذود فى السؤال .

اىما يبقى الفكر ، ويبقى الدكر ، والفكر والدكر لايفنيان كما يفنى المال ويزول ، وان حصل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى ، الاكما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد اد تطوى عليهم أجفان الثرى

اىما الفكرة شيء الهى فهى كائن حى لا يموت . وهى الجوهر الحر الدى يورث . ويدفع الضريبة عنه الموتى والأحياء على السواء ـ ولا يخلد المفكر الا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع والأتباع ، ولهدا كان تلاميذ أبى حنيفة قطعا من نفسه ، ربط بينها وبينهم كما ربط بينهما وبين أستاذه فى شجرة النسب العلمى ، بذكرهم مع أصوله وأستاذه كلما مثل بين يدى ربه قال « ماصليت صلاة منذ مات حماد الا استغفرت له مع والدى وانى لأستغفر لمن تعلمت عليه علما ، ومن علمته علما » .

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان الا من البوارى . وهو هو الدى يوزع الدنانير آلافا مؤلفة وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عيال ، قال : الله تعالى للعيال . وانما قوتى أنا فى الشهر درهمان .. ثم قرأ « وفى السماء رزقكم وما توعدون »

أما الظاهره الثانية فهى أن الرجل الكبير يعنى ، أول ما يعنى ، بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب وفى تاريخ مصر الحديثة خلد جمال الدين الأفغانى بغير مؤلفاته ، وبتلاميذ سموا الى أرفع درا المجد فى ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبى كما كان محمد عبده فى الاصلاح الدينى وسعد زغلول فى الاصلاح السياسى وابراهيم الهلباوى فى المحاماه ، مع قليل من

الرحال والمؤلفات ، هم السحل الذين حصر التاريح فيه تركه الرعيم الفكرى العظيم الوارد من الأفغان أو من ايران ، وورود آباء الامام الأعظم .

ولأن سى الرحل الكبير رحلا كبيرا حرر على الوحود السرى من كل آثاره ، فكيف اذا بنى رحالا كبارا عظماء

فلعل النفس الانسانيه حــر ما عبرت به يد القدره الالهيــه عن الله سبحانه والرحل الصالح سى المسالك ويهيم المذاهب ويشرع الشرائع وسى الرجال من حديد .

ان من الرحال من كان أحـــدى على الانسانيه من احـــدى القارات الخمس

لقد كان أبو حنيفه ملهما عندما احتضن أبا يوسف ومحمـــدا ورفر والحسن وباقى الجماعه وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم . فى جهد يومى متصل ، يهدف الى غايه كبرى ، تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع فى النهر الجارى ، فيربو الوشـــل ، وتتسبح الحقبات من الماء فيصايا زاخرا كالسيل العرم ، ترحم البحر وتعلو وحودها فى أحلى محالله ! .

بهذا استطاع الرحل المفرد أن يصبح أمه وحده : وأن يجعـــل من الضعف الانسانى قوه غارمه ، ومن العمل الفردى عمل فيلق ، ومن الجهد اليومى جهد زمان ، وبهذا أحدثت الصحه الفرديه طنينا فى ســـمع التاريخ وأنغاما فى فم الزمن .

بهذا بلغت مدرسه أبى حنيفه أوجها ومهدت لها الدوله الجديده . فاذا بالمدرسه تخرج الحكام الكبار باسم القضاه الكبار ، فيضعون أيديهم على مصادر التشريع الاسلامى فى تسيير نطاق الدوله ، وغدت الأسماء التى تلوناها قبل . يتحلق أصحابها حول الشيخ ، سجلا بأسماء القضاه الكبار والفقهــاء الفحول وبدأت حركه التدوين على طراز الانتاج الضخم الذى بدأه محمد فى كتبه وجرى على غراره الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة فى الزمان كله . واذا بالمدرسه تخرج نساكا وزهادا الى جـــوار الحكام .

فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويالها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلا الى السعاده فى الدنيا ، لا تنلا محضا أو رهبانية خالصة ! وبهذا أقبل الناس على ارتياده فى سبيل الله ، ومن أجـل الحياة ، مدفوعين بالدافـع الربانى والدافع الانسانى معا .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدوله الاسلامه فى أزهى عصورها حضاره ؛ أعظم رحالاتها جداره ، نعنى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا فى عين الدولة وأعين الناس ، اتجاها فكريا جديدا هو الاتجاه المفرد الجـدير بالاسلام



كأن العناية الالهية قد كشفت لأبى حنيفه القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف فى قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة (لكأنى بك قاضيا) ! وهى النبوءه التى قال عنها الرشيد فيما بعد (لعمرى ان العلم يرفع دنيا ودينا) وترحم على أبى حنيفة ثم قال « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف فى السابعة والثلاثين عندما توفى أسـتاذه كما كان أرسطو فى السابعة والثلاثين اذ مات أفلاطون . واذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك . فان رياسة زفر للحلقة بعد أبى حنيفة لم تغضب أبا يوسف ، لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم فى حلقة أبى حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدى والهادى والرشيد ، وبلغ مجده أوجه فى عهد الرشيد اذ نقلت له عن النظام الفارسى وظيفة قاضى القضاة أو عالم العلماء (موبذان موبذ) . كان هـو الذى يوصى الخليفة بتعيين القضاة فى شتى أرجاء الدولة وكان يؤاكله ويحج معه ـ عدلا له على بعير ـ ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكبا بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد (جاءت به معتجرا ببرده) وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر

كان معه كأرسطو مع الاسكندر ، تلميذين فى عمر الورود لأساذين فى حريف العمر كتب له فى كتاب الحراج يمول : (وقد كتبت لك ما أمرب وشرحه لك وبينه فنفقهه وتدبره وردد فراءته حنى تحمظه ، فانى قد احهدب لك فى دلك ولم آلك والمسلمن نصحا .)

وبلغ مں التراء أن قدرب تركته بملوبين . وصلى علبه الرشيد عد ما ماب وأمر بدفنه فى مقابر فريش حيث دفں مں بعده ولده الأمين ثم زىده أم الأمين

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق فى قراءته . سمعه سامع فقال: لو شاء الله أن يجعل العلم فى جوف طىر لفعل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثا فى السماع الواحد ثم يقوم فيملها على الناس !

أتيح لفقه أبى حنيفة على يد أبى يوسف ما يتاح للمذاهب السياسيه أو الاجتماعيه أو العلمية من النجاح اذ يهيىء لها القدر رجالا فى دست الأحكام وهى ظاهرة تولاها المؤلفون الغربيون فى السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض .

وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقها رسميا بالقضاء وبالافتاء ، وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه فى كراسى القضاء . حتى صار الناس فى بغداد يسمون مذهب أبى حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبى حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة ــ كما عبر أحد خصوم أبى حنيفة ــ (لأن العلم والسلطه حصلا معا)

أو كما قال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بدايه أمرهما بالرياسة والسلطان ، الحنفى بالعراق والمالكى بالأندلس .

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفى لقاحا جدد شبابه وأكسبه المناعة ، هو اللقاح العملى الذى يتجاوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثه وفقهاء الأمصار وبعد أن قطعت الدولة أكثر أشواطها فى الحضارة .

وفرض أبو يوسف سلطانه فى كل مكان حتى انه ليجعل ابـــه يوسف قاضيا على الجانب العربى من بغداد واماما للحجيج عندما حـــج الرشيد وفى صحبته أبو يوسف . كان شريك خصم أبى حنيفة يحج فى نفس العام وسأل عمن يصلى بالناس ، فقالـــوا له يوسف بن أبى يوسف قال : الآن طاب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه وياله من سلطان عـــلى صاحب السلطان ! كان اذا حزبت الأمور فزعوا اليه فلا تقف أمامـــه المشكلات أو المستحيلات .

زعموا أن زبيده غاضبت هرون الرشيد ــ فحلف الرشيد يمينا بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى بلد يدخل فى ولايته ، فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله فى نفسه ، والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حبا وشغفها ، فأظلمت الدنيا فى عينيه ، والظلام فى عين الرشيد هو العمى فى أعين البلاط .. ! فاشـــتد الخطب وفدح الأمر ، وكلما مالت الشمس فى الأفق ، ودنت حمرة الشفق ، سرت فى أبهاء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ودارت أعين الحاشية كالذى يغشى عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر الله ؟ ..

ألا ان نصر الله قريب . ان فقيه البلاط بين رجال البلاط ! يا أبا يوسف أفتنا فى أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين !

فليأت أبو يوسف بالخـــوارق . قال .. فلتبت زوج أمير المؤمنـــين بالمسجد .. فانه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد ..

والله سبحانه وتعالى يقول (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) .

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لامامة المسلمين فصلى الرشيد ركعتين وسلم ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فان أمـــير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهل مكة : ياأبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت فى صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبهت الرجل . لكنه اسمر يقول : نحن مهبط الوحى وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت الينا فى الشعاب والأودية فاستقرت عدنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف فى حضرة الخليفة .. !

أفلم يكن الرشيد على حق اد يقول « هاتوا لى مثله » !

حوصم اليه أمير المؤمنين الهادى فى بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له . لكن الحق كان لحصمه . قال الهادى لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر الذى تتنازع اليك فيه ؟

قال أبو يوسف : حصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين ان شهوده على حق . قال الهادى . وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبى ليلى يراه قل الحلفة أرد البستان عليه .. !

لكنه اد يحتال ليرد الهادى بستان الرجل اليه لا يحتال من أجل من دونه . شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوما فرد شهادته فعاتبه الخليفة قائلا : لم رددت شهادته ؟ قال · سمعته يقول أنا عبدك ، فان كان صادقا فلا شهادة للعبد . وان كان كاذبا لكذلك .

بل انه ليحلف الرشيد فى قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد ! مع ما كان من تسامى السروات ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات اليه

جلس الهادى يوما للمظالم وبجواره عماره بن حمزة ، فوثب رجل وتظلم من عمارة فى شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم — ادعى أنه غصبها منه . قال الخليفة لعماره ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال : ان كانت الضيعة لى فهى له ، وان كانت له فهى له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا . كتبت أم جعفر الى أبى يوسف تقول ما ترى فى كذا ؟ وأحب الأشياء الى أن يكون الحق فيه كذا . فأفتاها بما صادف هواها ، فبعثت اليه بحق فضة وفضة . فيه حقاق مطبقات ، فى كل واحده منها لون من الطيب ، وفى

جام دراهم وسطها جام فيه دنانير فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها) قال أبو يوسف (ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن ..)

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتحرج عن قبولها أو لكافأ المهدى بأضعافها .

وفى سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : اللهم انك تعلم أنى لم أجر فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا ، وقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، كلما اشكل على جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه) وعرف الناس وصيته . .ر ١. مائة ألف لأهل مكة ، و ...ر..١ ومائة ألف لأهل المدينة ، و ...ر..١ لاهل بغداد و ...ر ١. للبلد الذى جعل صبى القصار أستاذا للرشيد يهب مئات الآلاف ! يعنى به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيبانى فلم يكن من الحلفاء كأبى يوسف ومع أنه تتلمذ على أبى يوسف بعد وفاة أستاذهما ، فقد كانت بينه وبينه وحشة فى آخر أيام أبى يوسف حتى وفاته ولى قضاء الرقة للرشيد ثم عزل ثم عاد الرشيد فاستقصاه وأدناه :

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبى حينفة وأبى يوسف وفقهه هو فى كتب هى السجل التاريخى للمذهب ، أما الكتب المنسوبة الى أبى حنيفة (العالم والمتعلم وكتابه لعثمان البتى عن الارجاء والفقه الأكبر ووصية أبى حنيفة ان صحت) فهى تدور حول العقيدة ، وأما كتب أبى يوسف فقد قيل انها بلغت أربعين كتابا لم يصل أكثرها الينا ، وبحسبه شاهدا على عبقريته كتابه « الخراج » الذى كتبه للرشيد يبصره بالحكم جوابا لطلبه ــ وأما كتب محمد فهى المعروفة بظاهر الرواية السير الكبير والسير الصغير (فى فقه الحرب) والجامع الكبير (وهو فى التفسير والأصول) والجامع الصغير (وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة) والمبسوط أو (الأصل) وسمى كذلك لسبقه

الـكتب الأخرى فى التصنيف والزيادات وزياده الزيادات والكيسانيات والرد على أهل المدينة (وهو كتاب رواه الشافعى) وقد قرىء أكثرها على أبى يوسف .

واذا كان الفقه الحنفى قد دان به الثلثان من أهل الاسلام ، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقى أوربا وبقاعا من روسيا وأصبح مذهبا رسميا فى مصر ، أو كان نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دب فيها الحياة فان لهذه الكتب الصغرى فى عددها تلك اليد الـكبرى فى آثارها .

ان المبسوط وحده يقع فى ستة أجزاء كل جزء ٥٠ صفحة من ذوات القطع الكبير ..! كان الفقه بحاجة الى الصون فحماه محمد بذلك السور المنيع الذى تتألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق .

وكان عمل أبى يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازما للفقه عند النشأة الأولى ليأتلف العلم مع العصر ، ومع الواقع ، ولتحمله الى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لازما ليوجه الفقه فى طريق الخلود فتراه العصور جميعا .

ولما عين محمد فى القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضى القضاة » أن يكون فى الرقة بعيدا عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان ، اذ هيأ له نجاه من رحمة العاصمة ولجاجة الحكام ، فتفرغ للعلم حتى عهد فى أعماله الشخصية الى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف وكان يحيل أهله على الوكيل ويقول (لا تسألونى عن حاجة من الحوائج فان فيها شغل قلبى وخذوا ما بدالكم عن وكيلى فانه أفرغ لقلبى) .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهرى بجمع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجه عن مؤلفاته (هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر) .

رحل محمد الى المدينة فى حكم المهدى (سنة ١٥٨ الى سنة ١٦٩) ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطا » وتعتبر روايته للموطا

من أجود رواياته واختلط بالكسائى فى عهد الرشيد فعلمه الكسائى اللغة وعلم الكسائى الفقه .

قالوا : جلس الكسائى يوما يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضى القضاة فقال للرشيد هذا الكوفى قد استفرعك وغلب عليك . فقال الرشيد · يا أبا يوسف انه ليأتسى بأشـيـاء يشتمل عليها قلبى . لكن جـواب الرشيد عن الكسائى لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبى يوسف يقول : ياأبا يوسف

هل لك فى مسألة ؟ فقال « نحو أم فقه » ؟ فقال . بل فقه ! فضحك الرشيد حتى فحص برجله وقـال للكسائى : تلقى على أبى يوسف فقهـا !! قـال الكسائى : نعم . يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق ان فتحت الدار (وفتح الهمزة فى أن) قال أبو يوسف اذا دخلت طلقت قال أخطأت ياأبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال الكسائى : ان قال أن وجب الفعل الطلاق وان قال ان فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لايدع أن يأتى الكسائى الى الرشيد .

ولما حشر الشافعى الى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمـل محمد فى انقاده وتوثقت بينهما عرى الود فبهر له .

وقف رجل على الشافعى فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل ياأبـا عبد الله خالفك الفقهاء قال (وهل رأيت فقيها قط الا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فانه كان يملأ العين والقلب . وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسـن) وقال فيه (كان محمد اذ أخذ فى المسـألة كأنه قرآن ينزل . لا يقدم حرفا ولا يؤخر) وقال (ليس لأحد على منة فى العلم ما لمحمد على)

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد الى منزله ويخلو به الى آخر الليل .

قرأ الشافعى كتب محمد ، بل حمل منها وقر بعير كما قال . فتعلم منها فقه أبى حنيفة وفقه الأقدمين فها هو ذا محمد تلميذ أبى حنيفة ينهـل من

مالك ويهل منه الشافعي الذى علم ابن حنبل، فتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة ، ويروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفقهة والناس جميعا .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الايوبى أن عالما يهوديا كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وانما نسبها لنبى أشهد انه على حق . فأسلم .

قال الملك . ان هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه ومسائله معروفة ، فان من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالما بارعا بستة علوم أولها الكتاب العزيز والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب ، ومن لم يكن مجيدا لهذه العلوم لم يعرفه الا تقليدا .

أقبل الرشيد يوما على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا الا محمدا ، ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآذن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال « كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها . انك أهلتنى للعلم فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال (من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار) وانه انما أراد بذلك العلماء .. » قال الرشيد صدقت يامحمد

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويالها من عقيدة ! لكن الأسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما فى حضره الرشيد وضد الرشيد .. وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء ... !

لقد كان الرشيد حفيا بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العلم

على : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعدم وقوفه كفرد من رعاياه ، يعدل تماما موقف محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم .

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه « السير » بعث الأمراء — أولاده — لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل ابن يحيى البرمكى من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به يحيى من معقلة ، وتوسجب المودة بين يحيى والرشيد زمانا حتى رفع السعاة عن يحيى مايريب ، فسيء به وضاق به درعا ثم حبسه وهم به يريد قتله ، لكن العهد كان مسئولا ، و (المسلمون عند شروطهم) كما قال الرسول عليه الصلاه والسلام فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد محرجا ودعا محمدا واقرأه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد يجادله وهو لا يتحول !

بل قال محمد .. ما تصنع بالأمان ، لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا !

وطلب الرشيد فقيها آخر هو أبو البحترى فقرأ الرجل العهد ، وأفتى بنقض العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وان شئت فقل مايه فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضى القضاة !

ذلك أبو البحترى الذى احتصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب »

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئا ؟ قال : حدثنى .. عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام ..!

وقف محمد هنا فى وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد ..!

ولم يقف هناك اذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء .. وهناك رضى الرشيد لأنه آثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا . وهنا لم يرض لأن مصلحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد . وكان هرون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته ما رأى .

صنع الرشيد ذلك مع انه كان يبعث الى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع الى الفقهاء وكان انعامه على العلماء اغداقا ، يعهد بأولاده اليهم بل كان يخدمهم . وفد عليه أبو معاويه الضرير وجيء بالطعام فأكل بين يديه. وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال : لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية « أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك ياأمير المؤمنين فى الآخرة » .

وفى سنة ١٨٩ مات محمد بالرى وهو فى صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائى فى نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد (دفن اليوم اللغة والفقه) .

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة يجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما « الصاحبان »

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدما فى مجلس الامام وبقى طيله عمره مشتغلا بالعلم ولما عرض القضاء عليه أبى فأكره على القضاء واختفى ، وهدمت داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل . ولم يخض الغمار الى الدنيا فلم يتعرض الى ما تعرض له الصاحبان (أبو يوسف ومحمد) .

كان أقيس الحنفية . وكان أكبر التلاميذ سنا فرأس الحلقة لما هوى النجم ولما مات فى الثامنة والأربعين من عمره خلفه فى رياسة الحلقة أبو يوسف

شك رجل فى طلاق زوجه فسأل شريكا القاضى فقال · طلقها ثم راجعها وسأل الثورى فقال ان كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، ثم جاء الى زفر فقال هى امرأتك حتى تتيقن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أستاذه أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ ثم شك فى الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال أما الثورى فقد أتاك بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل قلت : لا أدرى أصاب ثوبى بول أم لا . فقال · بل على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبى حنيفة حتى بعد أن مات ..

شهد النضر بن اسماعيل وحماد بن أبى حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر . فقال لأنه يبيع الصلاة (اذا

كان اماما فى المسجد يتقاضى فى الشهر دينارين) فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء (اذا كان قاضيا بأجر) فأجابه شريك فاذا شهدت عندك فلا تقبل شهادتى !!

وجمع حماد جماعه وأتوا شريكا فلما بصر بهم قال : وراءك ياحماد . لست كالنصر . أنت وأبوك تزعمان أن ايمان شر أهل الأرض كايمان خير أهل السماء ..

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة ، ويأتى بالدليل من غير حشو فاذا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يناظره مره وهو مسند الى اسطوانة المسجد منصبا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول · هذه أبواب كثيره اركض فى أيها شئت وانتهى الأمر بأبى يوسف الى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة الى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الامام الأعظم : (هذا الامام من أئمة المسلمين فى حسبه وشرفه وعلمه)

وفى سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه الى لقاء امامهم فى الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤى فقد تتلمذ بعد وفاه الامام على أبى يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب (المجرد لأبى حنيفة ، وأدب القاضى.والنفقات والفرائض والوصايا . والخصال) وعمل فى القضاء وفتح عليه أبواب السماء برزق منهمر فأضحى ـ وهو الذى كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبى حنيفة لسمر بناته ـ أضحى له مماليك يكسوهم مما يكسو به نفسه .

كان يخشى الله فى فتواه · أفتى رجلا فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفا لديه فاكترى مناديا يقول : ان الحسن أخطأ فى تلك المسألة حتى عاد اليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل الى الحق

وكان اذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فاذا قام من مجلس القضاء عاد الى ما كان عليه من الحفظ !! فاستعفى من القضاء

وفى سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبى حيفة فقد دتولى فضاء الكوفه فعداد كلها فالبصرة ، وتحرج اسه اسماعيل عليه وعلى أبى يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقى ببغداد وبالبصرة والرقة .

وتحلى يوسف بن خالد السمتى للعبادة .

أما الأحوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشحصهما المهدى اليه من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيهما مندل — وكان أصغر وأشهر — قال مدل موجها نطر الحليفة . هدا حبان

ويحيى بن زكريا مات قاضيا على المدائن للرشيد

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ، دكروا من مناقبه أنه كان أحد الدين قال لهم أبو حيفة أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى ..

وتولى حفص بن غياث للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاما وقضاء بغداد عامين فحبس المرزبان وكيل زبيدة فى دين ! .

كان جالسا للقضاء فجاءه رسول الحليفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ الخصوم : فلما فرغوا لبى دعوته .

ولما عينه أبو يوسف فى قضاء الكوفة بعث الى أهلها يقول : ياأهل الكوفة أشروا دفرا لكتبوا نوادر قضاياه .

وأما عبدالله ابن المبارك فكان اماما فى الفقه وبطلا فى المعارك . كانت أمه خوارزمية ، وأبوه تركيا وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ .. ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلى : يروى عنه الامام أحمد بن حنبل . تولى القضاء للرشيد ببغداد وواسط .. وقيل تزوج ببنت الرشيد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائى أرفع الناس صوتا فى الحلقه يمطع الى العباده ويخرج من الدنيا فى حياته ! .. أرسلت اليه بدرة فيها عشره آلاف درهم يستعين بها على الدهر فاعادها لمصدرها ، وردها الرسل مع بدرة تماثلها وغلامين قال لهما . ان قبل البدرتين فأنتما حران فذهبا اليه فالا · ان فى قبولك عتق رقابنا قال انى أخاف أن يكون فى قبولها وهق رقبتى فى النار . رداها اليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطينى أنا . .

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده اسماعيل ابن حماد (أصحابنا ستة وثلاثون رجلا . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار الى أبى يوسف وزفر) .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة فى مذهبهم ! وفى سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير فقيل وقيل ..

وقيــل بالتخييــر فى فتــواه ان خالف الامــام صــاحباه

وقيل من دليله أقوى رجح .. والمفتى ذى اجتهــاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبى حنيفة وتلاميــذه . جاءوا الى الحلقة غفــلا مغمورين . منهم الحماة والعراه : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمدا للفقه الاسلامى، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التى حملها اليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حملوه منها عنصرا أساسيا فى نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بمــا فيه من طابع عملى وعمق فكرى . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو يتحدث عن اغترار المتعلمين بالعلم · (.. قال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا ، وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القــرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيا وما هو الا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام الا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان ..)

كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالنور الذى سيجىء . يدركـــون وهم بحذاء أستادهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسون وهم معه ما نحسه نحن الآن معهم ، وما كان يستشعره (مشيل أنجلو) عندما كان يقــرأ هوميروس فيقول (كلما قرأت هوميروس نظرت الى نفسى لأتحقق مما اذا كنت قد ارتفعت عشرين قدما فوق الثرى !)

الباب السادس

في العراق

« الناس سواسيه كأسنان
المشط لا فضل لعربى على
عجمى انما الفضل بالتقوى»

حديث شريف

وبعد فانا لا نفهم حياة أبي حنيفة اذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة ، فالانسان ابن آبائه واقربائه . وأرضه وسمائه وأشياء ليست أعصابه التي يحس بها أجزاء نفسه فحسب ولكنه يفكر بما في حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

ان هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها .. ! وما أصغر ذلك الشيء البديع المسمى بالانسان الى جوار تلك الأشياء الجليلة التى تسمى بالدنيا . وان كانت من دونه ليست هى الدنيا .

در قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول فى التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايع الناس عليا . واندلع لهب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحه والزبير ومعهما أهل البصرة وأظفر الله عليا فى واقعة الجمل فارلب جوشه فى صفين جند الشام اذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه حتى اذا افتر له ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف محكما كتاب الله . ووصل على التحكيم فخذله الحكمان . وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسائله « لم حكمت فيما هو حق لك ؟ » وهزمهم بالنهروان . وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة . وأخفقت المؤامرة فى عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فوق أعناق الزعماء) الحسين بن علي وعبدالله ابن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله ابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر) ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار الى معاوية .

ثم قال : فان هلك فهذا وأشار الى يزيد .

ثم قال : فمن أبى فهذا وأشار الى السيف .

قال معاوية . اجلس فانك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فلك لغة السيف . والسيف أصدق انباء . ولما تولى يريد ثارب المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرماح . وبعثت التسيعة (أنصار على بن أبى طالب) من أهل الكوفة الى الحسين يبايعونه فسار اليهم مع أهله ، فقتل هو ، واخوته ، وأبناء عمه فى كربلاء

وفى سنة ٦٤ سارت جنود الشام الى مكة تقاتل عبدالله بن الزبير . اذ بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن . أما الشام فولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه عبدالملك بن مروان . وولى عبدالله الزبير على الكوفة المختار ابن عبيد ثم عزله بأخيه مصعب بن الزبير ودعا المختار ابن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل . وسار عبدالملك بن مروان بجيشه الى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفى ، فما هو الا أن التقوا فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت الى عبدالملك ، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبدالملك ! .

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبدالله بن الزبير بمكة فأخذ يبرى الرقاب حتى سالت الدماء الى أبواب المسجد والسكك ، وخرج عليه ابن الأشعث ومعه العلماء ، ومنهم الشعبى فقيه الكوفة ، وسعيد ابن جبير فقيه البصرة ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى . وتزاحف الجمعان فى دير الجماجم . وانتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعفا عمن عفا عنه كالشعبى وأهدر دم من أهدر دمه كابن جبير فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك الى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما وسع من رقعة الاسلام فى افريقيا .

وفى سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفى سنة ٨٩ فتحت صقلية وفى سنة ٩٣ خفقت أعلام الاسلام على سواحل الأطلسى فى الأندلس . ووقف موسى بن نصير فى ربوعها يفكر فى فتح أوروبا..فأشاروا عليه بالتلبث : فمكث يقول : أما والله لو انقادوا الى لقدتهم الى رومية !

وفى الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفى ولاية هشام بن عبد الملك ثار ريد بن على بن الحسين فقتل . وفى سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل فى خراسان .

وفى سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارت الثائره بين بنى أمية واتتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكد يهزم الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم فى خرسان ودخل مروفى سنة ١٣ نيسابور سنة ١٣١ وجاء رسله الى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس) سنة ١٣٢ وكان التيار فى الكوفة يجرى نحو أولاد على بن أبى طالب فحوله أنصار العباسيين الى بنى العباس . وهرب مروان الى مصر حيث قتل .

وفى سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبى حنيفة بثمانى سنوات .

فى هده الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الاسلامى وبلدانه أما المدينة فغنية بتاريخها عن التعريف وأما البصره فقد أمر بانشائها الفاروق عند ملتقى دجلة والفرات (سنة ١٤ ــ ١٧) لتكون معسكرا تلتجىء اليه الجيوش من برد الشتاء فبنى أبو موسى الأشعرى مسجدها من اللبن وسرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها الحضارة وفى سنة ٣٦ وقعت فى ضواحيها وقعة الجمل ، وفى سنة ٥ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفى (سنة ١٧ ــ ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبى وقاص بعد موقعة القادسية أن يبنى الكوفة فأقيمت فى موقع صحى على الفرع الغربى للفرات لا يفصل بينه وبين المدينة جسر ولا بحر ، وصارت ملتقى الطرق ومفترقها بين الشرق والغرب ، وبنى سعد مسجدها فى وسط المدينة وبنيت الى جواره دار الأمارة . فلم يكد ينتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياما وأكواخا وعمرها أقوام من كل جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكد تبنى حتى سرت فيها روح الشغب فعثر عمر ولاتهاون السنوات الأخيرة لحكمة ثلاث مرات .

كانوا أول أنصار على ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحوا من عشرين عاما (سنة ٧٥ ــ ٩٥) ولم تذق الطمأنينة بعد دلك حتى ادا ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيدين عن الكوفة وشغبها وشقاقها ، وهي قصبة الاقليم فى عهد بنى أمية ، وعاصمة الدولة فى عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن ، وعمرها والبصره بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليتسعوا الحضاره الاسلامة العربية فى الاقليم . لكن العراق صنع بالوافدين اليه وبنى أنسلوهم ما يصنع الاقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عربا وان كانت تحمل حضاراتهم وتحصينهم الطابع المشترك الأعظم . طابع الاسلام

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبي وقاص الى عمر قائلة انه لا يحسن أن يصلى !! وشكت البصرة أبا موسى الأشعرى لأن له غلاما حارا (عادرا) هو كاتبه زياد بن أبيه اذ كان له مائده ويردون وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله .

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم واليا .

وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محاربا فى صفين وهو فى التسعين . وشكوا المغيرة بن شعبه . وطردوا سعيد بن العاص

ولما قدموا على عمر يشكون سعدا ــ قال « من يعذرنى من أهل الكوفه ــ ان وليتهم التقى ضعفوه وان وليتهم القوى فجروه » . قال رجل « أنا أدلك ياأمير المؤمنين على القوى الأمين » قال . « من هو » قال : (عبدالله بن عمر) (ابنه) قال : « قاتلك الله : فمنذ اليوم لا أسميك الا المنافق » وقال « المغيره ياأمير المؤمنين ان التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره » ــ قال « صدقت فأنت القوى الفاجر .

فاخرج اليهم » . وفى فسة ابن الأشعث بدل رجال الشورى نصحهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيرا فكتب الى الخليفة : (والله ان أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون الا قليلا حتى يخالفوك ولا يزيدهم دلك الا حرأه علبك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا اليه فقتلوه ان الحديد بالحديد يفلح)

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم العليان ، قرنا وربع قرن من الزمان واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظلوا يرون خلافة الأمويين غصبا وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة على فاتخذوا فى الكوفة والبصره مراكزهم الرئيسة : وما يزال لهم بضعة عشر من الملايين فى العالم الاسلامى كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون انه وصى النبى على المسلمين . وتطورت الفكره فصار منهم من يقول انه معصوم ، وغلا البعض فألهوه ، وانشعبت الشيعة شيعا وأفراقا حار بها بنو أمية حربا ضروسا ، ففتلوا أولاد على وأسباطه كل قتلة .حتى كان الأمر الأموى يقول لان يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل على !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة ممنزتين بأهل بيت الرسول .

وفى عام مائة كانت ظلال الأمويين آخده فى الانحسار . وشرعت الريح تجرى رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بنى العباس . فألف على ابن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبى وكانت الكوفه مقر احدى الشعبتين ومقر الشعبة الثانية خراسان ، فلما دخلت جيوش أبى مسلم اقليم العراق كانت الكوفة قصبة المدافعين كما كانت مخبأ الثوار .

بويع لأبى العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولوية المظفرة لقواده . فأخذ يعمل فى ظمأ لا يرتوى ليكون جديرا فى التاريخ باسمه

(السفاح) وراحت سيوف العباسيين تحصد الرءوس وتقذف الجماجم ، ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور .

بدأوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، وانثنوا الى قبر عبد الملك ، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثلة ثم وجدوا ضالتهم فى قبر ابنه هشام . فألفى السفاح جثه لم تبل بعد فضربها بالسياط .. وصلبها .. وحرقها . ثم ذراها فى الهواء !.

فى هذه المجزرة التى ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر سباحة الى افريقيا ، لم يكد يطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . عبر البرزخ الى أسبانيا سنة ١٣٩ ليمكن فى اثنين وثلاثين عاما لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد . فأنشأ — على المعبر الحربى — رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب وأن ينقل خلال البحار) والأجيال ، تلك المدنية التى ازدهرت فى فجر التاريخ فى أثينا واسبارطه وفارس وروما وبيزنطه ، فانبعث حركة الاحياء العلمى RENAISSANCE من مرقدها بعد أن مرت فى طريقها — كالرسالات وكالبرد المائية والهوائية — بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما اليها .

ولقد يخيل الى الناظر أن هذه القلاقل كادت تنزف دم الأمة ، لكنها فى الواقع كانت اهتزازات الجسم الذى يحاول أن يستقر ، ليستمر ، وامتحانا لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر ، فثبتت على الامتحان ، وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما فى ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة .

كان القرن الأول استجماعا لقوى الأمة ، واستعدادا لعهدها الجديد ، فلقد أدت الامبراطورية السياسية التى وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هى حسبها ، وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجىء وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التى ألفها كيان الأمة الا كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الاسلام نفسها فى الوجود ،بأسلوب جديد .

واذا كانت دولة بنى أمية قد نشرت ألوية الاسلام بالغزو فقد كان على الدولة الجديده فى وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الاسلامة بفتوحات الفكر ، وأن تبعث بآثارها فى مهاب الرياح الأربع .

فتعالوا اذن أيها المفكرون ، واحدا اثر واحد ، واسكبوا فى تيار الحضاره الذى لا يتوقف الا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من السور . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب الى الابتكار . وليكن منكم الغواصون فى أعماق الحكمة والعلم ... لقد دنت فتره انتقال وأنتم همزة الوصل . فصلوا الماضى بالحاضر . وقولوا كلمة الفكر . ان كلمة الفكر هى العليا .

انطلقت العقول الاسلاميه ظمآى تكاد تموت من الصدى . بدأت بالترجمه . فنقل الى العربية من اليونانيه والسريانية والفارسية والنبطة والهندية . ولئن صح أن اسطفان وماريانوس وابن ابجر قد ذكروا العرب فى أواخر أيام بنى أمية بالعلم اليونانى حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن ابجر رئيسا للمصلحة الطبية ، وأن خالد بن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ان هؤلاء لم يكونوا الا طلائع الركب الضخم ، الذى بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم الى العالم الجديد فى عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيبا للمنصور ولبيمارستان جند يسابور .. ثم توالت الأسماء ترى : قسطا بن لوقا وسيد النقلة . روزبه (ابن المقفع) ينقل كليلةودمنه وخداينامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذرى . ينقلون من الفارسية . ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية . وابن وحشيه ينقل من النبطية كتبا فى الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل فى كل مكان ليجيئوه بالكتب ليعربوها . وجاء المأمون بعده يصنع أكثر مما صنع . واتصل الروح العلمى الى وجوه الدولة واذا بيت كبيت بنى هاشم المنجم فى منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن اسحاق وحبيش بن الحسن وثابت

بن فره ، يدفعون لهم شهريا خمسماية دينارا للترجمة والتعريب كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسي (الكتب الفارسية) وابن ماسويه من جامعة جند يسابور للقسم اليوناني (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ولنشر ما تتضمنه المترجمات من علوم . وأنفذ الى بلاد الروم سلما صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهم ليبحثوا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف الى ثروة الأمة التى كان ينحصر تراثها العلمى ـ فى الجاهلية ـ فى علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب الى فيثاغورس واقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط وأرسطو ، والى النظم السياسية والادارية . وانطلق الفكر الاسلامى فى حريته الى أبعد الحدود حتى لنرى بينا كبيت (أبى الجعد) فيه ستة اخوة . اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب عنى الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة وأضيفت الى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبى بشر متى بن يونس ويحيى بن عدى واسطفان بن باسيلى ينقلون السريانية الى العربية . وعلى بن زياد اليمنى واسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية . ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق الى المغرب . فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم . ولم تبق الترجمة سبيلا للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فاذا بابن الهيثم يبيع فى كل عام نسخا ثلاثا من نسخة هى (اقليدس) و (المتوسطات) و (المجسطى) بمائة وخمسين دينارا يعيش منها طول العام .

لم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التى وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التى يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها فى جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد فى سنة ١٤٨ مرضا ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه

(حورج أو جرجس) من جامعة جند يسابور وأبل على يديه فانزله وعلماء جند يسابور أرفع المنازل في بلاطه ، وورث حفيده جبريل هـذه المنزلة فى بلاط الرشيد حفيد أبى جعفر . واذا كان جرجس أول من ترجم للمنصـور فان أبا حنيفة قد أنهى رسالته فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمة للعقول .

فالفقه الاسلامى الذى دوى صوت امامه فى النصف الأول من القرن الثانى كان أثرا للوثبة الاسلامية الخالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وان المرء ليتساءل لمـاذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كـل العلوم ؟

والجواب عن ذلك أن الحضارة الاسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها الى ذلك التخليد عمارة أو نحتا أو تصويرا كما صنع الرومان والمصريون واليونان . فتلك كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الاســلامية التى يحويها كتابها من شريعة وعقيدة ، فكان طبيعيا أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الاسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت الى حلقة الكوفة أصوات الفقهـاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلســان الزعيم الفكرى الذى قدرته العناية الالهية لنصرة الدين . وتلك هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التى عاصرت فى تحضرها وظهورها حياة أبى حنيفة العلمية ، وهى قيام الدولة العباسية ، ثم انبعاث تلك الفكرة التى خلدت بها الحضارة العباسية نفسها بانشاء المدينة التى لم ير مثلهـا الزمان الى ذلك الزمان « بغداد » .

ليست مصادفة تلك التى جعلت بالعـراق حلقة أبى حنيفة كالجامعة فى النصف الأول من القرن الثانى بالكوفة حيث كان محمـد بن على بن عبد الله بن عباس وابنه ابراهيم الامام من بعده يمهدان للدولة الجديدة فى الكوفة وفى خرسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس .

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ،

وآ ن يعمد أبو جعفر الى الاستفاع به فى المدينه الجديده فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ، ويساهى الرشد فى الأعجاب به فيكلل بالمجدهامات تلاميذه .

لست هذه كلها مصادفة ، ولكنها رواية الزمن مصلة الحلقات والظواهر ، يسطرها بالوقائع ، ويترك للوقائع الكلام . وانها يد العناية تحرك الانسانة نحو مصايرها المحتومة . تريد لرسالة الاسلام أن تصل بن عهدى الحضارة .

كان حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثا فى التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضى فى ظلام الليل المكاثف ، فحملت الحضارة الاسلامية الى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى . ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق فى الغرب سنة ١٤٩٣ الا بعد أن كانت دولة اسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينة فى الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٩٣ . واذا كان فتح المسلمين للقسطنطينيه يؤرخ بدء عصر النهضة والاحياء RENAISSANCE فى العصور الحديثة ، فأى مجد للاسلام ذلك المجد ! وأين منه أى مجد سياسى وفتح حربى !

هذه النصره التى نصرت بها الدولة العلم فى المائة الأولى من حكم بنى العباس ، لم تكن لها مشابه فى العهد الذى كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .

كان السفاح وأبو جعفر فى العهد الذى عاشه أبو حنيفة فى حكميهما ، فى شغل بالحرب مع خصومهما .

فالنهضة التى نهضها أبو حنيفه نهضها وحده . ولحساب الله لا لحساب أحد . وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم فى عهد المنصور أو تولته أيدى الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ، ان الفقه الاسلامى كان له من أصالته وتطور شريعته ومميزاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسة ، وخصوبة تربته ووفرة منابعه ، افاق ألواح

جوستيبان الاثنى عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت الى ألواحهم أو شرائعهم أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقى الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص الديباجة . تجمعه العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب الكريم وسنة الرسول .

رعم بعض المستشرقين أن هناك « آثارا لا تنكر INDJABIE » من تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الاسلامى ! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبى حنيفة حاصة ، والفقه عامة ، واذا كان لأبى حنيفة بصر بالفارسيه ، أو كانت تحيط به تقافة منحدره من المحيط الجغرافى والاجماعى الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فانه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات فى حياته مع اتساعها وطولها وكثره الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه فى حلقته وفى سائر الحلق بالمسجد الجامع اسلاميا صراحا فى منابعه وسواقيه ، لم يأحذ عليه أحد من حصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشىء أجنبى أو عالج أثرا أجنبيا .

واذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام . فلا أثر للفرس ولا للرومان فى الشريعة ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثر الا بعد ان تقدم الخصوصيات المتشابهه التى يستند اليها الزاعمون فى الأصول والفروع . وفى اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه الينا القائلون بوجود هذه الآثار «التى لا تنكر» . كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتناقش موضوعا ، كما يقول رجال القانون .

وليس بسائغ أن يلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة فى مظاهر التفكير ، ليقال من جرائها بتشابه الفقه فى الشرائع فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشرى توافق العقل . واذا تشابه العرف فى البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات .

ومن المسلم أن صله الترجمة العلمية المؤكده باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر فى عهد أبى جعفر أى بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبى حنيفة

قد بلغت أوجها فى مسجد الكوفة ، وكان أستادها فى أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاما .

أما (الشافعى) فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة ، حتى اذا انتقل الى بغداد ومصر فى خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التى ادعاها المستشرقون . والـذين تتبعوه فى دراسـاته ومقولاته يدركون كيف كانت كلها اسلامية خالصة .

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة . وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة .

وفى سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاى ما قرره مؤتمر واشنطن اخيرا فى سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الاسـلامية مصدر للقانون مستقل عن مصـادر اليونان والرومان .

لم يكد المنصور يلى الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حـربا ضروسا فى العراق وفى كل مكان ، كأنما كتب القلق على هـذا الاقليم حتى ولو صارت اليه مقاليد الأمور .. وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على ذاته !

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !

وما لكفة الخير فيها ترى غالبا أرجح ! انها قد تكون ثورة جهـال فيظهر فيهـا العلم ، أو ثورة على الحـق فيخرج الحق منها أبلج وضـاح الجبين كالشمس بعد انفراج السحاب !! ولقد تكون ثورة دهماء فتتكشف عن انتصار المعانى الرفيعة فى الحرية أو فى الدين أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك ..!

ان الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائما . أو كما يقول الشاعر :

(وحسبك داء أن تصح وتسلما) .

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شيء ، من الكفر والايمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم : ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح . ولا عجب أن تنجلي تلك المتناقضات عن تحرير أوربا ، فأنشأت الثورة ايطاليا وألمانيا ، وأطلقت الفكر الانساني من عقاله ، وجمعت بين الدين والتقدم . وأعلنت حقوق الانسان ومكنت للتقدم الصناعي والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل .

فاذا رجعت الى العراق رأت عيناك مصداق ذلك . بلدا يثور قرنا من الزمان ، على نفسه حينا وعلى غيره دائما ، دون أن ينصب معينه . بل ان الثورة لتقويه ، وتزكي أنفس الناس فيه في رقعة منبسطة من الخصب والحضارة وامتزاج العناصر . تبدأ من الجنوب الشرقي للصحراء السورية عند الحدود الفارسية الى جبال حلوان ، من عبدان الى الخليج الفارسي . فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ، حيث ترتبط في نشاط تجاري بآسيا الوسطى وبالهند وشرق أفريقيا وشواطىء البحر الأحمر . يعمرها مع المسلمين فرس يدينون بالزارادشتية أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزارادشتية والهندية والمسيحية ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية الى الاقليم منذ غزوات الاسكندر . وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جند يسابور في كوزستان استمرت المدرسة ثلثمائة عَام رغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الاسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رحال من سوريا في نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لأبقراط وجالينوس ودسقوريدس واقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم الى السريانية . كما ساعد أهل حران على التواسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحي وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كانت مدرسة جنديسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التي وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

فى هـذه البقاع ترعرعت حضـاره يانعـة تكتنفها ديانات متتابعة . الزرادشتيه تسبق المسيحية بنحو ستة قرون . واليهودية فى الشمال تسبق الزارادشتية بنحو تسعة قرون . ثم المسيحية تنزل قبل الاسلام فى شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى . كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا فى تلك القرون العشرين .

وكان العراق محسوبا على فارس وموصولا بها على الوجه الذى بينة بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة اقليمه ، فجمعت فيه اخلاط من المدنيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيره العرب . وأرهف حس بنيه ذلك الانفعال المستمر فى حدة وعرام لم يشهدهما بلد اسلامى ، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن الا أن تسكن النفس سكونها الأبدى .

واذا عاشت الجماعة فى انفعال وانبعاث مستمرين برزت ـــ كالفرد ـــ ملكاتها الى الوجود فاستثمرت كل ما فى كيانها من قوة وفتوة .

ومكن لتلك النزعات فى نفوس أهل العراق دين يحبب الجهاد فى سبيل الاعتقاد .

احتفظ العراق دائما بشخصيته حتى ان عمر لما دون الدواوين كانت لغة ديوان العراق هى الفارسية الى أن نقله الحجاج فى سنة ٧٨ الى العربية ومع ذلك ظلت الحسابات بالفارسية ، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوسا . أما فى خراسان ـــ وكانت تحكم من العراق فقد كان نصر بن سيار أول من نقل الكتابة الى العربية من الفارسية فى أواخر أيام بنى أمية ، ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيهـا بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها الى العربية . كما غدت مركز حركة علمية تجلت فى علم الكلام وفى الاعتزال . على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصرى وقـد قيل ان الحكمة التى رزقها جاءته منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبى فكانت أم سلمة تناوله ثديها اذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا جديد وبقى العراق جوهره التاج ومفخره الخلفاء حتى ان المأمون بعد نحو قرن من خلافة بنى العباس لباهى به عجائب الكنانة !

جلس فى تواضع العالم بين اخوانه العلماء ــ وكان يسميهم اخوته ــ اذ قدم الى مصر فى أول سنة ٢١٧ وقال : لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر . فلو رأى العراق وخصبها ؟ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فان الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته !!.

الباب السابع

في الكوفة

« يخرج الحديث من عنـــدنا شبرا
فيعـــود في العـــراق ذراعـــا »

ابن شهاب الزهرى

اعزت الكوفه بداتها كما اعرت برجالاتها . كانت لا تزال تذكر أيام حعلها أمير المؤمنين على قصبة الحلافه ، وتدكر عبد الله بن مسعود وناهيك بابن أبى طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعونى فيذهب الى على فادا قال له على : ألا أرسلت الى ؟ قال عمر « انى أحق باتيانك » . ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة « أنت أعلمهم وأفضلهم » . بل كان عمر يتعوذ من معضلة ليس أبو حسن لها « على » .

وكان ابن مسعود أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله . كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفا دونه حتى داع المصحف العثمانى .

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا . قال « يأهل الكوفة . أجزعتم أن فضلت عليكم أهل الشام . وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » ولما قدم على الى الكوفه قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلقا ولا أرفق منه ولا أحسن مجالسه ولا أشد ورعا قال على « ناشدتكم الله . انه لصدق من قلوبكم » قالوا « نعم » قال « أشهدك اللهم انى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه . فقيه الدنيا عالم فى السنة » .

وترسم خطى ابن مسعود فحول يتصدرهم علقمة النخعى وكان أشبه الناس به . وتلاهم أفذاذ فى طليعتهم ابراهيم النخعى فكان يفتى وينبسط للفتوى ولا يخاف ابداء الرأى ، ثم جاء حماد بن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة وراوية ابراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج والأمويين والعلويين قد خلفت فى الفقه آثارا كالجراح ، اذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصره على ، وأخذ خصومهم يختلقونها . لنصرة مخالفيه . أبى بكر مرة . وطلحة والزبير مرة ، وبنى أمية مرات . كما أخذ أنصار بنى أمية يختلقونها ضد العباسيين . وأنصار بنى العباس يختلقونها ضد العلويين

وضد الأمويين . حتى قيل فى زمن متأخر ان الجاحظ أوتى عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث فى مقتل على . وتدخلت أطراف أخرى فى النزاع . المعتزلة وغيرهم يختلقون ضد الخوارج ويختلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعا : كما دس خصوم الاسلام أحاديث كثيرة على النبى . ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسى أو الدينى . بل نحم المال والملق بين الأسباب ، فأصبحت الأحاديث تختلق للحلفاء وللأفراد ولكل شىء . فتسمع أحاديث عن تطيير الحمام عن التمر والعجوة !

ولم يسلم أبو هريرة رضى الله عنه من نقد ابن عمر . روى مسلم أن النبى أمر بقتل الكلاب الا كلب صيد أو كلب ماشية . وأخبروا ابن عمر أن أبا هريرة يزيد . أو كلب زرع .. فقال : « ان أبا هريرة كانت له أرض يزرعها » .

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين الى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب ! فى المدح والقدح ، والترغيب والترهيب ، وفى صياغة الفلسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع فى زمن لا حق أن يقول انه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله تعالى » ! فلما سئل أبو عصمة نوح ابن مريم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال « رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى بن اسحق فوضعتها حسبة » !.

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث فى الحجاز ، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا الى نهاية القرن ، كما ساعدت شدة الحاجة الى النصوص لحل المشاكل ، على هذا التفريخ العجيب للأحاديث . حتى ليروى عن الزهرى أحد مفاخر المدينة أنه قال عن أهل العراق « يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى العراق ذراعا » .

حدث ابن ماجه عن رسـول الله « ما قيـل من قول حسن فأناقلته » فليسب الوضاعون اذن كل الأقوال الحسنة الى الرسول ! دلك ما عبر عنه أحـد المستشرقين تعبيرا غريبا بقوله « انهـم يضعون أوراقهم على المائدة ولسان حالهم يقول « هذا حق ، ولا مأخذ عليه من ناحية الدين ، بل هو مستحب والنبي كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة في الأمصار بعد وفاة النبي واشتجرت الآراء بينهم في الفتاوى تبعا لمبلغ علمهم بالأحاديث والسنن واقبالهم على ابداء الرأى وتأثر البلدان التى استوطنوها فى آرائهم وتقليدهم ومن ثم جاءت خلافات المدينة من ناحيه وسائر الأمصار فى النواحي الأخرى وبخاصة فى الكوفة . اذ لم يكن مستطاعا أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل المدينة وقد شاهدوها وشاركوا فى تطبيقها جيلا بعد جيل .

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافا .

ولم تصل السنة الى الأمصار الا على مهل . فلم تظهر فى الحياة العامة فى العراق الا فى سنة ١٦٠ . بل فى سجستان — فى أواخـر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع — كان الرواج يعقد فى أوضاع تخالف السنة حتى طبقها الاصطخرى قاضى « قم » . وفى خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوى هو النضر بن شميل ضيعه قومه فخرج من البصره يلتمس الرزق فشيعه ثلاثة آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين فلمـا اجتمعوا قال « يعز على فراقكم . والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى (مكيال فول) ما فارقتكم » فلم يتكلف له دلك أحد من سامعيه ومودعيه !! وسار حتى وصل الى مرو وخراسان حيث جالس المأمون فى اقامته بمرو عليه خلقـان فأجز بثمانين ألف درهم لتصحيحه حديثا واحدا فى مجلسه .

ولم تكن السنن فى كتاب ذى مناهج يعرف الناس ونصوصه ومدى تطبيقه ، ولا كان الولاة يعنون بتعلمهم . بل ان الولاة كانوا فى شغل بالدنيا عن الدين .

كان بنو أمية ملوكا دنيويين لا خلفاء دينيين . اعترض أبو الدرداء على رأس البيت الأموى معاوية ، لبيعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها

ذهبا . قال . سمعت رسول الله ينهى عن مثل ذلك قال معاوية « ما أرى بهذا بأسا » . قال أبو الدرداء « من يعذرنى من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويخبرنى عن رأيه . لا أساكنك أرض » .

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المخربة دون أن يخترقوا ظلامها بسهام من النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعا للنظر فى المصالح وتعقل النصوص يزدري الامعات الطائعة ويقول « أغد عالما أو متعلما ولا تغد امعة فيما بين ذلك » فالاستقلال والاجتهاد فى الفقه ميراث أهل الكوفه يتوارثونه كابرا عن كابر .

ففيم الخضوع للمسلمات اذا لم يؤيدها الدليل الناهض ؟ واذا سبقت الفكره ففيم ينحنى المفكر أمام المفكر ! واذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ واذا سيق الحديث فمن رواة الحديث ؟ واذا انفتح الباب للبحث عن الرواه ، كان لزاما أن يسير الباحث الى النهايه ، فتدرس الرواية مثلما يدرس الرواية .

وهذا الفقيه الذى أتيحت له حقبة نادره من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولتين الأمويه والعباسيه الكبرى ، وتجرى بين يديه التيارات الفكرية الخطره فى تاريخ الحضاره الاسلاميه وهو عاكف على تلامذته يسبح سبحاته معهم فى آفاق هذا الكون الحافل ، حيث كل شيء حائل ومتقلب الا هؤلاء ، الثابتين الصادقين عن أسباب التنحاء والسخائم ، يجودون بنشاط جسمى وفكرى عجيب ، تشحذ عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة . فلتسحب هو وتلاميذه الى الصوت الذى لا يخفت فى ضجة المذابح وفوضى التخليط ، والذى يهيب بالمؤسسين أن ضعوا حدا للفوضى . وارسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام . والخطوط التفصيلية للقواعد التى يتطلبها عالم تترامى أطرافه بين الصين والمحيط الأطلسى ، فلم تعد جزيرة العرب الا نواه أو مركزا للدائرة .

واذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة فى عالم السياسه هو الحضارة الفكرية ، فلقد كان جواب المدرسه الجديدة فى عالم التشريع

هو فقــه أبي حيفة القائم على الاجتهــاد وعلى التحرى الدقيق للروايات .
فليافتس كل شيء حتى لا تذيع الآراء الرائعه وتدهب قواعد البنيان التشريعى
الذى تأوى اليه الحضارة .

افترى كاب للمدينة المنوره فى وسط الجزيره ، وهى قلب العــالم
الاسلامى ، تصبر على هده الحركة الثوريه ؟

ان للمدينة سلطانها الديني والتاريخى الذى تعنو له الجباه . فهنالك
أوم النبي وهنالك يثــوى جسمانه وهــنالك عاشت الكثرة الغــالبه من
الصحابة وأمهات المؤمنين تتصدرهن الزاوية النابعه عائشــة بنت أبى بكر .
وهنالك الرواة من هؤلاء والرواه عنهــم ، يقتفون آثار زعيمى الحجــاز
عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس . فمن مثل هؤلاء زكانة ومكانة والماما
بعهد الرسول وغزواته وفعاله وكلمــاته » وبأحاديث الخلفاء الراشــدين
والصحابة الأقربين . وأي بلدة طيبة كالمدينة تعيش فى أجواء من البــركة
والكرامة ، تضفى على كل شيء فيها فيوضا من التجلة والاكبار .

كانت المدينــة كعبة القصاد لمن شــاء أن يتفقه فى الدين والتاريخ
والتفسير وما اليها ، وكان عبــد الملك بن مروان أحــد فقهائها الاثنى عشر
المعدودين ـــ بارحها الى الشام لىكون خليفة المسلمين ومعه زميله فى الدرس
قبيصة بن دؤيب ليجعله على خاتمه .

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به الى المدينة ليعود
ثانى العمرين اللذين يهز الاسلام بمفاخرهما أعطافه .

وكان فى عهد أبى حنيفة امامها العظيم مالك بن أنس ، الذى لا يفتى
وهو فى المدينة ، حفيد أبى عامر الأصبحى صاحب رسول الله ولم يكن من
طراز رجل الكوفه يصايح التلاميذ من حــوله أو يخطئونه وجاها بل كان
رجل تقاليد بحق . يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ، ولا يرفع أحــد
صوته فى مجلسه . وبلغت مكانته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور
معه المهدى فى سنة ١٦٠ فى بناء البيت الحرام ولمــا هم أبو جعفر أن يبنى

البت على ما بناه ابن الزبير على قواعد ابراهيم ساوره فقال « أنشدك يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره الا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس » .فصرفه عن رأيه

وفي سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك : ناقش أبا يوسف . فأبى مالك وتنزه عنه وهو العلم بمكانة أبي يوسف من العلم . بل قال الرشيد « ها هنا فتيان من قريش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين . »

كان للمدينة من السلطان الروحي ما عبر عنه مالك لليث بن سعد بقوله « ان الناس لأهل المدينة التي اليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » .

وكانت حضارتها بسيطة غير معقدة ولا مشوبة تتخلط . المتشاكل فيها قلائل ، والوقائع تتشابه وتتشاكل . فاذا عرضت مسألة فان لها أشباها في السوابق وحكما في النصوص يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصنعوا خيرا مما صنع آباؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبوعون . ومن عقيدة التابع أنه ليس كالمتبوع وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أي جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة فهي ذلك الأقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تك مادة الفقه والأحاديث والسنن هي الهواء الذي يتنفس الناس فيه في كل مكان كالمدينة، فاذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا في تسامح المحيط الواسع الذي ينادي بالاجتهاد وبالرأي ، حيث الناس من كل الأجناس ، يقبلون على الدين الجديد تؤسسهم مدينة كبيرة ، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج في كل وقت الى الرأي الجديد ، لا تغني عنه النصوص القليلة المتداولة . جاؤا يدلون بدلوهم في الدلاء ، يتحرون ويقررون : لم تكد تهدأ رحلتهم بعد ، ولم تكن لتهدأ الا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادي والفكري أو يعتورها الكلال والهرم .

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد في تاريخ الاسلام ، وتحالف الركود الفكري والركود العسكري النسبي من ألف عام .

قامت مدرسة الكوفه تعول بالحلق والابتكار واستعصم أبو حنيفه فيها بالرأى وبالتشدد فى قبول الأحاديث ورواتها وعارض فقهاء المدينة وأشياعهم . ثم تطاول الخلاف الفقهى فتحول الى خصام ، وأعلنت حرب المذاهب ، بين كلمات قارصه كقول القائل « وضع أبو حنيفة أشياء فى العلم ، مضغ الماء أحسن منها . » ومستشنعات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد وعدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المعقد ...

عرب الوالى الى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرم على الناس أن تلقاه فكانت تأتيه المنيان على حمير يكرونها على الرغم من أمر الأمير . فجاءوا به فقال له الأمير « أى عدو الله . طردتك من حرم الله فصرت الى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق فقال : « أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدونى قالوا « بيننا وبينه واحده » قال « ما هى » قالوا : نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات فان لم تقصد الى بيته لما تعرف من اتيان الحراب والسفهاء ، فالقول ما قال » . قال الأمير ان فى هذا لدليلا . « وأتى بالحمير . فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله قال الأمير : ما بعدها شىء جردوه . فلما نظر الى السياط . قال اضرب فوالله ما فى هذا شىء أشد على من تسخر منا أهل العراق فيقولوا أهل مكه يجيزون شهاده الحمير !! فضحك الأمير وقال « والله ما أصرلك اليوم » وأمر بتخلية سبيله .

وفى أواخر القرن الثانى كان بمصر قاض حنفى هو اسماعيل بن اليسع الكندى يقضى برأى أبى حنيفه فى ابطال الوقف فذهب اليه الليث بن سعد يقول « جئت مخاصما لك فى ابطالك أحباس المسلمين (أوقافهم) » . ثم بعث الى الخليفة يطلب عزله وهو يقول « انك ولينا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . على أننا ما علمناه فى الدرهم والدينار الا خيرا » . وعزل الخليفة قاضيا كل جريرته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب فى الوقف مذهب أبى حنيفة .

وشارك الشعر بأوزانه فى الملحمة . قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية) :

كنا من الدين قبــل اليوم فى سعة حتى ابتلينا بأصــحاب المقــاييس
قاموا من السوق اد قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأى عند الفقر والبوس

وكان شرشبر المدنى يعيب أبا حيفه . فمال شاعر الكوفة .

عندى مســائل لا شرشير يعلمهــا عند السؤال ولا ـــــب سرسير
ولا يصب فصــوص الحق يعلمها الا حيفية كوفيــــة الــــدور

بلى . كان هــاك حنيفية وكوفيه فى جــانب ومديون فى الجاب الآخر . بل كان ثمه مديسان تبارياں . وان شئت فقل مدنيتين أو فكرتين الجديده المسوفزه الراغبة فى الخلق والاندفاع والقديمة الهادئة الراغبة عن الابتداع ، وبذلك بدأت المعركة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد وتأرجح المفكرون بين الآراء ، فرأينا رجلا كالنصر بن شميل كان يمدح فى أبى حنيفه فى مجلس المأمون بعد أن كان يمدحه يعود مره أخرى فيقول لا تروعنا كل ما يقول فى أبى حنيفة فانا نقول عند الغضب أشياء ليس لها حقيقة » وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروى الطحاوى ـــ وهو من أئمه الحنفية ـــ أنه كان يذاكر فى بعض المسائل أبا عبد الله بن الحسن بن حرب المشهور « بحربويه » قاضى مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه ما هذا قول أبى حنيفة . فقال « أيها القاضى أو كلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » قال « ما ظننتك الا مقلدا » فقــال الطحاوى « وهل يقلد الا عصبى ؟ » قال « أوغبى » وطارت الكلمة فصارت مثلا .

ولما قامت مدرسه الشافعى بعــد نصف قرن من موت أبى حنيفه برز خصم شديد . وتطاحنت المذاهب أيما تطاحن . واذا بملكين بل والد وولده هما العادل سيف الدين بن ايوب صــاحب دمشق يقول لابنــه عيسى شرف الدين « يا بنى كيف اتخــذت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شــافعية ؟ » فيجيبه ابنه قائلا « أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد ! » وانزلق القوم الى هوه الحقد فتدهور المندفعون الى حيث تعمى القلوب واذا برجلين من « الحنابلة » يستفتى أحدهما الآخر فى أن يشهد على شافعى بالكذب

فمقتيه بقوله ألست تعتقد أن دمه حلال ؟ فما دون دلك دمه فاشهد ! وادفع فساده عن المسلمين ...!!

وداب يوم أمر قاضي الحـارث بن مسكين باخراج أصـحاب أبى حنيفة وأصحاب الشافعى جميعا من المسجد .

وفى الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوما بن يدى السلطان فسألهم فى بساطه من أين أبو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟ قالوا : من المدينة قال « عالم دار الهجرة يكفينا » وأمر باخراج أصـحاب أبى حنيفه وقال « لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان »

وأخيرا دهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس فى الأرض وأنزل الله على قلوب الحرس سكينه وأمنا فكانت نار الخلاف بردا وسلاما وغدت وجوه النزاع سباقا لنصرة الدين . وكنوزا نقلبها بين أيدينا لنأخذ منها مثلما نأخذ من وهج الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب ، فوى خالقه جبارة تأتى بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق (اختلاف أصحاب محمد رحمة (ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال « ما سرنى باختلاف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حمر النعم » وأنه قال « ما سرنى أن أصـحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » . ولما قال الرشـد لمالك ليكتب « الموطأ » ويفرقه فى الآفاق . ليحمل الناس عليه كقانون مدون . قال يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة . كل يتبع ما صح عنده وكل على هدى وكل يريد الله تعالى » .

وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا ولا ينجم العداء الفكرى الا بين الحمقى والمتنطعين : ألا هلك المتنطعون .

الباب الثامن

في الفقه

« اني أرى، لا أكثر . وأومن لا أقل »

« أما مستقبلي فلا أضعه نصب عيني »

فيكتور هجو

« انى أرى وأومن . لا أكثر ولا أقل » . تلك قواعد تفكير أبى حنيفة فى كلمة جامعة مانعه أما الناس أو التقاليد ، أما السخط أو الرضا ، فانها أمور تجىء فى المحل الثانى أو لا تجىء أبدا .

مصدر التشريع الاسلامى هو القرآن ، غير أن آيات الأحكام فيه نحو مائتى آية من ستة آلاف كانت تنزل على النبى فى المناسبات ، فتعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلى لا جزئى ، وهو مما شرف الله به هذه الأمة ، اذ لم يهمل عقولها ولم يلقنها الجزئيات تفصيلا ، وكان الرسول يتولى تطبيق هذه الآيات على الحوادث والأشخاص مع بيان وجوه العمل بهـا ، بالقول أو بالفعل أو بالاجازه ، وهو ما اصطلحوا على تسميته بالسنة وصار بطبيعته مصدرا ثانيا للتشريع .

فى عهد الخلفاء الراشـدين ، كانت تقع حـوادث لم يعلم للنبى فى نظائرها آراء ، فكانت سياستهم فيها تتحصل فيما أثر عن الفاروق ، وهو يولى شريحا قضاء الكوفة ، اذ قال « أنظر ما تبين لك فى كتاب الله ولا تسأل أحدا ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنن رسول الله وما لم يتبين لك فى السنة، فاجتهد فيه رأيك » ، وفيما كتبه الى ابى موسى الأشعرى من أن « القضاء فريضه محكمة أو سنة .. الفهم الفهم فيما تلجلج فيه صدرك مما ليس فى كتاب أو سنة ، أعرف الأشباه والنظائر . وقس الأمور عند ذلك » .

ولم يكن ثمة اجتهاد بالرأى الا لضروره ملجئة ، كتب كاتب لعمـر : « هذا رأى الله ورأى عمر » فصاح به « بئسما قلت . هذا رأى عمر . فان يك صوابا فمن الله وان يك خطأ فمن عمر ... »

ولما أفتى ابن مسعود فى صداق امرأة مات زوجها قبل أن يدخل بها ولم يفرض لها صداقا ، قضى بأن يكون لها مهر مثلها من نسائها ، وأضاف « فان يك صوابا فمن الله ، وان يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان .. »

الى هـذا الحد بلغ تحـرج الرجلين اللذين همـا زعيما الرأى فى الاسلام ...!

كان الخلفاء الراشدين يستشيرون عمـاء الفكر من الصـحابة اذا استغلت وجـوه الأمور ، وكان عددهم محصـورا ، فكان الاجمـاع ميسورا ، وكان لأبي بكر ما يشبه مجلس الشورى يدعو اليه رجـالا من المهاجرين والأنصار منهم عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت فلما خلفه عمر كانوا في طليعة مستشاريه .

ولم يكن عمر يتردد في الرجوع عن أخطائه ، فضى في عام من الأعوام بحرمان الأخوة الأشقاء مع الأخوه لأم والزوج في الميراث ، وفي عام آخر أشركهم جميعـا في ثلث المـال ، وقال : ذاك على ما قضينا وهـذا على ما نقض ... ولم ينقض حجـه « الشيء المحكوم فيه » كما يسمونها في الفقه الحديث .

ورفعت اليه جارية سوداء متهمة بالزنا فخفقها بالدرة خفقات وقال « أى لكاع زنيت .. قالت مرعوش بدرهمين « تريد صاحبها الـذى صنع بها والمهر الذى أعطاها » قال عمر : ما ترون .؟. وكان عنده عثمـان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، قال على : أرى أن ترجمها ، قال عبد الرحمن . أرى مثل ما أرى أحوط فقال لعثمان ما ترى ؟ فقال انما حد الله عز وجل على من علم أمر الله . قال : صدقت . ورد على الجماعة ، وأسقط الحد وبين أنها تجهل ما صنعت فلا يجب عليها الحد .

ورفعت اليه قصة رجل قتله امرأة أبيه وخليلهـا فتردد ... هل يقتـل الكثير بالواحد ؟ فقـال على : أرأيت لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال : فكذلك . فكتب عمـر الى عامله أن اقتلهما فوالله لو اشترك فيـه أهل صنعاء كلهـم لقتلتهم .

ولما فتح المسلمون الأمصـار طلب الفاتحون أربعة أخمـاس الغنيمة مستندين الى ظاهر النص في الآية ، ومؤداه أن يأخذوا أربعة أخماس البلد الذى يفتحونه ويبقى الخمس للمنفعة العامة لكن عمر تساءل : كيف آخذ أرض الناس منهم ؟ قال مندوبو الفاتحين هذا ما أفاء الله علينـا بأسيافنا قال عمر هذا رأيى . قالوا : استشر .. وأشار عبد الرحمن بن عوف برأيهم وأشار

عثمان وعلى وطلحه وابن عمر برأى عمر . فدعى عشره من الأنصار قال فيما قال « قد سمعتم قول هؤلاء القـوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ... أرأيتم هذه الثغور التى لا بد من رجـال يلزمونها ... لا بد لها أن تشحن بالجيوش وادرار العطـاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء ..؟ » وأشـار برأيه المستشارون .

وفى ذلك يقول أبو يوسف « والذى رأى عمر رضى الله عنه من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقا من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم » ـ ذلك بأن الخراج انمـا يصرف فى شئون الدولة . فيعـم به النفع كافة المسلمين بطريق غير مباشر .

هذه السياسة العمرية هى التى نشرت الاســلام فى الأمصار ، فلو استولى الغزاة على الأرض من دونها لجرد الناس من أموالهم ومتاعهم ، ولقابلت أسماعهم بالصمم صوت الحق ، مروعين بما يصاحبه من عنف مخرب يطغى على الهداية التى تبسطها الحنيفية السمحة بجناحيها على العاملين .

وفى عام المجاعة عطل عمر حد السرقة ، ولم يقطع يد الغلمان الذين سرقوا الناقة بل غرم وليهم ثمنها مضاعفا لأنه يجيع غلمانه .

وفى الصدقات أسقط حق المؤلفة قلوبهم لأن الاسلام بلغ عزه فلم يعد بحاجة الى تأليف القلوب بالعطاء .

وفيما لا نص فيـه كم كانت لابن الخطاب اجتهادات .. فهو يعهـد بالخـلافة على غير عهد أبى بكر ، ويوصى بانتخاب الخليفة من ستة عينهم ، ويفرض العشور على الصادر والوارد ، ويفرق بين المهاجرين والأنصار فى العطاء .

واجتهد عثمان فجدد أذانا ثانيا لفريضة الجمعة لما اتسعت رقاع المدن ، وجمع الناس على قراءة مصحف واحد ، هو المصحف الامام ، مع ما هـو معلوم من أن القرآن نزل على سبعة أحرف . وانما خشى عثمان الفتنة لتفريق

الحفاظ واستشهادهم وتباعد أطراف البلاد ، واجتهد على كاجتهاده فى حد قتل الزنادقة فجعله بالحريق فى الأخاديد اذ رأى المصلحة فى الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشديد واجتهد فى قضائه الذى كان مضرب الأمثال .

وفى عهد بنى أمية تفرق الصحابة فى الأمصار فكان بكل مصر من الصحابة والتابعين رجال يتولون الفتيا ويعلمون الناس القراءة والأحاديث والمغازى . فلما نجمت الخلافات السياسية التى المنا بها فى الباب السابق نجم معها شر مستطير ، فاذا بالخوارج ولهم فتاوى والشيعة ولهم فتاوى ولسائر الأمة فتاوى — واذا بقبس من النور يتراءى فى اجتهادات بعض الفقهاء ، لكن الغلبة كانت للقائلين بعدم الاجتهاد التزاما لظاهر النص فى الآية ، وظاهر اللفظ فى الحديث ، خشية الزلل بل ذهب البعض الى القول بأنه لا فتوى لديه اذا لم يكن النص بين يديه .

قالوا أدرك عبد الرحمن بن أبى ليلى عشرين ومائة صحابى ما منهم رجل يسأل عن شيء الا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثا الا ود أن أخاه كفاه .

ومن الفقهاء من كان يمتنع أن يفتى فى مسائل بذاتها كسفيان بن عيينه لم يك يفتى فى الطلاق ويقول « من يحسن هذا .. ؟ » ولذا أعجب به ابن حنبل قال فيه « ما رأيت مثل ابن عيينه فى الفتوى أحسن فتيا منه كان أهون عليه أن يقول لا أدرى » .

ولم يكن سعيد بن المسيب يكاد يفتى الا وهو يقول « اللهم سلمنى وسلم منى » بل هؤلاء بعض أهل العلم يقولون · تعلم لا أدرى فانك ان قلت لا أدرى علموك حتى تدرى ، ولو قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى ..'

سأل رجل من العرب مالك بن أنس فقال . لا أدرى قال السائل تقول : لا أدرى قال نعم . فأبلغ من وراءك لا أدرى ... '

وذات يوم سئل فقال . لا أدرى . فقال السائل انها مسألة خفيفة سهلة وانما أريد أن أعلم بها الأمير — وكان السائل ذا قدر — فغضب مالك

وقال (مسألة خفيفة سهلة ! ليس فى العلم شىء خفيف أما سمعت قول الله تعالى . « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ..)

وقال مالك يوما انى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى الى الآن .

وسئل أربعين سؤالا فقال عن سنة وثلاثين سؤالا منها : لا أدرى .

وكان علامه التابعين الشعبى يقول « لا أدرى نصف العلم » قال : لا أدرى يوما ، فقال له السائل : ألا تستحى من قولك لا أدرى وأنت فقيه العراق ؟ قال لكن الملائكة لم تستح أن تقول لله « لا علم لنا الا ما علمتنا » .

كانت أطراف الامبراطورية الاسلامية قد ترامت الى أقصى أقطار العالم المعمور . فلم تك امبراطورية القياصرة ولا امبراطورية الأكاسرة الا بعض أجزائها . لقد عبرت الممالك الاسلامية الى البرزخ الذى يحمل مفاتيح البحر الأبيض لدى المحيط وشرفت كالسهم تخترق آسيا الى أقطار الصين ، وتضاعفت المسائل والمشاكل والأشخاص والأشياء ، فكيف تغنى نصوص بلغت من الندرة ما أحصينا ، وتحرج من الافتاء بلغ من الضيق ما بينا ، وسيادة لنظرية « اللا أدرى » توحى بتعطيل الفتيا .. !

لم تكن الحضاره التى يجنها ضمير الغيب للاسلام ، والفتوح السياسة والفكرية التى أزهرت فى عهد بنى العباسى ، لتنم أو تزدهر فى أجواء هذا الحرج الفكرى الذى يضطرب فى صدور الفقهاء .

كانت بالعراق قوى عارمة تسبق الزمان وتستبق حضاره بنى العباس قبل أن تقوم دولة بني العباس ، فلم يك للأمة غنى عن رجال يهيئون بأفكارهم للمستقبل أصولا تشريعية صالحة لقيام نهضة علمية واجتماعية واقتصادية يرتبط المسلمون فيها بالفقه كما يرتبطون بالدين نفسه على أساس من فهمه والايمان به ، والقدرة التى هى شرط التكليف .

فهل استجابت قوى الأمة الى ماجاش فى صدرها من خلجات وحاجات ؟ هل فسحت المجال الحيوى لمواهب بنيها لتربى وتنتشر وتطر

فى كل مكان ورمان على أحرف الهجاء ، كما يطر الصوب على ألف جناح وجناح من موجاب الهواء ؟ وبعباره أخرى هل قدمت هـــذه الأمة الدليل على قوتها وحيويها وأصالة حضارتها ؟ فالدولة الحية كالجسم الحى اذا حربهـا الأمور بص قلبهـا أقوى بصاته وتحمعب قواها تجمع الأســد للوثوب فدفعب الى الوجود مں يملأون الفراغ كله ، ويحققون الرحــاء كله ، فيدفعونها الى الامام دائما وباستمرار .

بحسبنا أن نرجع البصر كره واحده لنرى مقدار ما استجابب المدنية الاسلامية الى دلك النداء الصامت عندما تجاوبب فى جنباتها أصداؤه ، ومدى رسوخ هذه الحنيفية السمحة وبعودها الى الأعماق ونرى الى جوار دلك فصـــل السبق الذى تفرد بقصبة الامام المجلى فى حلبة الفقه والعلم والذى نادته الحضارة الاسلامية فى كل عصورها بأنه « الامام الأعظم » .

ففى سنة ٨٠ ولد أبو حنفة ، وفى سنة ١٢٠ كان يلقى على النـــاس أصول مدرسة الكوفة ليدونها أبو يوسف وغيره من التلاميذ على ما أسلفنا من بيان ويسجلها من بعدهم رهط كبير من العلماء تلألأوا فى سماء الدولة العباسية التى لم تبدأ حيــاتها الا فى سنة ١٣٢ وازدهرب فيها الحضـــارة العلمية فى أيام الرشيد فى أواخر القرن ، وفى أيام المأمون وما تلاهـــا فى القرن الثالث للهجره .

أما الأوزاعى امام الشام فولد سنة ٨٨ ، ومالك بن أنس امام المدينة ولد فى سنه ٩٣ ، وزفر ابن الهذيل ولد فى سنة ١١٠ ، وأبو يوسف ولد فى سنه ١١٣ ، ومحمد ولد سنة ١٣٢ .

وفى سنة ١٥٠ و ٧٦٧ م هوى نجم وبزغ نجم فماب أبو حنيفة وولد الشافعى ، وفى سنة ١٦٤ ولد رابع الأئمة الأربعه ابن حنبل ، وفى سنة ١٧٩ (٧٩٥ م) ماب مالك ، وفى سنة ٢٠٢ ولد داود الظاهرى امام أهل الظاهر ، وفى سنة ٢٠٤ (٨٢٠) ماب الشافعى وفى سنة ٢٢٤ ولد الطبرى وفى سنة ٢٤١ (٨٥٥ م) ماب ابن حنبل .

ظهر هؤلاء الأئمه جميعا بعد أبى حنيفه بسنين وعشرات السنين ملبين لنداء الأمة ، مترسمين خطى الأستاذ الأول الذى استجابت على يديه العناية الالهية لهتاف الاسلام .

***

سئل أبو حنيفه عن خطته فى الفقه فأجاب « انى آخذ بكتاب الله ان وجدته ؛ فما لم أجد فيه أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التى فشت فى أيدى الثقات ، فاذا لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت : وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ، فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب — وعد عدة من مجتهدى التابعين وتابعيهم — فلى أن أجتهد كما اجتهدوا » .

والصحابة هم الذين كان لهم صحبة بالرسول طالت أو قصرت على ما رأى المحدثون أو الذين رأوه على ما يرى البخارى . أما التابعى فهو من رأى صحابيا ولقيه ، روى عنه أو لم يرو عنه .

لى أن أجتهد كما اجتهدوا ... !

تلك هى المسألة الأولى لأبى حنيفة .

واذا كان أبو حنيفة ينحنى أمام رأى الرسول ورأى الصحابة فيقول : ان مقام أحدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة خير من عمل أحدنا جميع عمره وان طال » فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وكان أحدهم يرى الرأى فينزل القرآن بموافقته كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ونزل القرآن بموافقته ، ورأى أن تحجب نساء النبى ونزل القرآن بموافقته . ورأى أن عبد الله بن أبى منافق ونزل القرآن بموافقته وموافقات عمر للقرآن والوحى ، تبلغ بضعة عشر موضعا .

وحقيق بمن كانوا كذلك أن تكون لآرائهم خير المنازل . قال أستاذ الكوفة ابن مسعود « من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا ... »

لكن أبا حنيفة اذ يحنى أمام أصحاب الرسول لا ينحنى لسواهم من التابعين ولا تابعي التابعين فأولئك لم يمسسهم من بركات الصحبة مثل ما قدر للأولين .

ولما سأل لاس كاراس نابليون فى سنت هيلين بعد ألف عام من وفاة أبي حنيفة . لماذا لم تأخذ سيف فردريك الكبير منذ كنت فى برلين ؟ أجاب « لقد كان معى سيفى . » .

كان فقــه الكوفة مطبوعا بطابع ابن مسعود وكان كعمر يجتهد فيرى الرأى حيث لا يوجد النص . وبلغ اجتهاده أن قال عنه ابراهيم النخعى « انه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود اذا اجتمعا فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه ألطف » .

سئل أبو حنيفة : اذا قلت قولا وكتــاب الله يخالف قولك ؟ قال أترك قولي لكتاب الله . قيل فاذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ؟ قال « أترك قولي بخبر رسول الله » . قيل فاذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ قال : « أترك قــولى بقول الصــحابى » . قيل : فاذا كان قول التــابعى يخالف قولك .

قال « اذا كان التابعى رجلا فأنا رجل ... »

أجل هو رجل والرجال قليل .

انه يجتهد رأيه ، فيحكم عقله ، كمــا كان بعض زعمــاء الفكر من الصحابة يحكمون عقولهم فيصدرون فتاواهم على قواعد الاسلام العــامة كقوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله : « دع ما يريبك » أو قوله « أدرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله فان الامام ان يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » أو قوله اذا امرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أو قوله تعــالى « لا اكراه فى

الدين » . أو قوله سبحانه « ولا تزر وازره وزر أخرى » وغير هذه القواعد الكليات .

تلك المسألة الأساسية فى فكر أبى حنيفه كانت نقطة التحول فى الاتجاه العلمى للمجتهدين .

فليقدح أبو حنيفة زناد الفكر الانسانى وليسبر أغواره . ولتقلب النصوص بين يديه فى جساره لا تهاب الافناء ، فاذا أصاب فهو مأجور ومأجور ، واذا لم يصب فالعصمة لله جميعا .

قال صاحب التشريعه . اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر . وقاله لصاحبيه الصديق والفاروق (قولا فانى فيما لم يوح الى مثلكما) ، ولما أخذ رأى صاحبه يوم وقعه بدر فى المكان الذى يرابط فيه أخذ يقول له (.. يا رسول الله ان هذا المكان الذى أنت فيه ليس بمنزل ، انطلق بنا الى أدنى ماء القوم فانى عالم بها وبقلبها ، بها قليب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح ثم نبنى عليه حوضا فتشرب ونقاتل .. فنهض ففعل ذلك .

ان لأبى حنيفة برسول الله أسوة حسنة ، فالمجتهد دائما مثاب ، لأن الاجتهاد فى ذاته صواب أو كما قال أبو حنيفة « المجتهدان مصيبان والحق فى واحد » وكما قال الشافعى « المجتهدان مصيب ومخطىء معفو عنه » واذا تحاض المسلمون على الجهاد فى سبل الدين ، فلنحاض العلماء على الاجتهاد فى سبيل العلم .

وليفع أجر أبى حنيفة على الله مصيبا ومخطئا ، ولنشق للناس هذه الطرائق المعبدة التى يسيرون فيها بأمان واطمئنان ، يحسبونها خلقت موطأة الأكناف كما هى الآن ، وكانت من قبل أضيق من سم الخياط وأكثر ترويعا من المسبعة .

ان الكشوف العظمى التى نجد منها العالمأبجديات حضارته اليوم كانت فى ظلمات الجهل الانسانى أعداما ، وكان العالم حريا أن يظل سادرا فى جهالته بها أزمانا لو لم تكشف له .

فلسس بهس عمل أبى حيفة فى اعمال الرأى اذا كنا الآن نأتى بالرأى فى كل شأن ، فان هذه الحرية الفكرية لم تتقرر الا بعد أن خط لناثلة من العباقره مسالكنا فى الشعاب واقتفت آثارهم نخبة الطلائع ، وجاءت فى أعقابهم عصور الاحياء فى الغرب وتورات دينية وفكرية لولاها لما بلغ الناس ما بلغوه من حريه التفكير والتعسر .

أما أبو حنيفة فقض الحجب واستطاع من ألف ومائتى عام أن يقول : انى أرى .

وفى السنن والاحتجاج بها كان لأبى حنيفة شئون أخرى .

السنة هى الطريقه .

وهى فى الفقه ما جاء عن رسول الله من أقوال أو أفعال أو اقرار لأقوال أو أفعال صدرت من سواه . وتطلق على عمل الصحابة لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل الينا ، أو اجتهادا مجمعا عليه منهم أو من خلفائهم .

قال عليه الصلاه والسلام « عليكم بسنتى وسنة خلفائى الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » .

والاحتجاج بالسنه يكون بالأحاديث التى تصدر بشأنها .

كانت الكثرة الغالبة من رواه الأحاديث بالمدينة كما أسلفنا . وكانت طريق الوثوق بالخبر فى أمور التشريع أن يعمل أئمة الصحابة أو فقهاؤهم بما يوافقه أو يجرى عليه عملهم لا يختلفون فيه ؛ لأنه عن مشاهده جيل لمن قبله حتى عهد الرسول فهو من باب السنه العمليه ، أما أفعال النبى الشخصية كالحرب أو معاملته لزوجاته ، فتلك أمور خاصة به وبالدنيا وهو يقول « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

لكن حالة الأمة والخلافات التى نشبت حرصت على اختراع الأحاديث أسلحة للحرب الداخلية ، وكان كل حزب يزكى رأيه بالحديث الصحيح

والحديث المخترع ، وكثرت أسباب الاختلاق كما بينا من قبل . وأصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب — كما قال الدارقطني — كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وفتش في الكوفة الفالاف لكثرة التسفاق ، وقلة الرواة ، ولأن الثوراب لم تكد يفرخ روعها بعد ، حتى كان مالك يسميها دار الضرب « ضرب العملة » ، اذ تسك الأحاديث كما تسك النقود .

وكان التماه من الرواة يختلفون في النصوص عن الحديث الواحد منهم من يختار كلمة تؤدي معنى بدلا من أخرى تحيرها غيره ، كحديث خطبة الوداع ولا خلاف فيه ، جاء في نصه الخلاف بين الرواة ولم تكن الأحاديث كلها نقــلا عن النبي بل كان يشترك في بعضها الصحابة وكانت لغة الناقلين متغايرة ونظمهم مختلفا فنتج من ذلك اختلاف كبير بعضه بحسن نية الناقلين باهمال ، وكثير منه خال من الاخلاص ولم يك أحد ، حتى الصديق والفاروق يستطيع الاحاطة بجمع الأحاديث ، ثم ان من الأحاديث ما لم يثبت عند محدثه أو محدث محدثه ، ثم آفة النسيان . فالفاروق نفسه نسي فذكره عمار فلم يذكر .. !

سئل عن الرجل يجنب في السفر فلا يجد الماء فقال لا يصلي حتى يجد الماء فقال له عمار يا أمير المؤمنين أما تذكر اذ كنت أنا وأنت في الابل فأجنبنا أما أنا فتمرغت كما تمرغ الدابه ، وأما أنت فلم تصل فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال انما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بها وجهه وكفيه فقال عمر اتق الله يا عمار . فقال عمار : ان شئت لم أحدث به . قال عمر : بل نوليك من ذلك ما توليت

من أجل ذلك كان عمر لا يقبل الحديث اذا رواه واحد الا اذا استشهد على روايته شاهدين . وكان علي يستحلف الراوي ، أما ابن مسعود فكان اذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلته الرعدة وقال هكذا .. أو نحوذا أو قريب من ذا .. وكان ابراهيم النخعي لا يقول قال النبي وانما يقول قال ابن مسعود أو قال علقمة .. وكان الشعبي يقول « كره الأولون الصالحون الاكثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما حدثت الا بما أجمع عليه أهل الحديث »

واذا كان ذلك شأن الخلفاء قبل أن يستفحل الشر ، فهل يخضع له أبو حنيفة بعـــد أن بلغ السيل الزبى ، وهـــو الذى لا حجة عنده للثابت الصحيح

أفيمنعى معصوب العينين أمام هذه الأحاديث التى بلغت مئات الألوف ، دون أن يعمل فيها قواعده ! أفقبل قول أهل المدينة ان الوسيلة لتحقيق صحة الحديث هى أن يعملوا بها وأن يردوا الأحاديث التى لم يجر العمل عليها لديهم كما صنع مالك مع أبى يوسف وهو قاضى القضاة !.

سأل أبو يوسف مالكا عن الأذان ، فسأله بدوره عن الأذان لديهم فذكر مذهبهم فيه فقال مالك · من أين لكم هذا ؟ فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سألوه أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر فقال مالك ما أدرى ما أذان يوم . وما صلاة يوم . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤذنون فى حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين بعده ! يشير الى أن ما جرى عليه العمل عند أهل المدينة أولى بالاتباع .

ان أبا حنيفة يوجب البحث عن طريق الثقة بالسنة ، ويجب لذلك عنده أن تكون متواترة والا فمشهورة ، واذا وجد النص فيجب أن يكون فهمه على وجه يتفق وعلل الشريعة وأحكامها .

وسبيل التواتر أن يروى الحديث جماعة عن جماعة حتى يؤمن التواطؤ . وأكثر السنة المتواترة فى الأفعال كالشعائر والعبادات ، تناقلها الأجيـــال . وسبب ذلك أن أعمال الرسول هى وسيلة تطبيق الأحكام وردت فى القرآن يحاكيها الناس ، فيتعلمونها ويتوارثونها كأسلوب الصـــلاة والوضوء وشعائر الحج .

وقل أن يوجد حديث قولى متواتر

فان لم يكن الحديث متواترا فيجب أن يكون الراوى عدلا موثوقا به ينقل عن عدل موثوق به ، وأن تكون الأمـــة والفقهاء وبعض الصحابة قد عملوا به دون أن يخالفهم أحد فيه لأن هذا يدل على اقرارهم لهم ، اذ لو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، ومن هذا النوع كانت الأحاديث التى آلت الينا

عن عمرو بن مسعود ، روتها عنهم جماعه بعد جماعه ومنها حديث .. (لا ضرر ولا ضرار) وحديث (انما الأعمال بالنيات) .

أما ما يخالف القرآن من السنه فليس منها !

وأما أحاديث الآحاد التى يرويها واحد عن الرسول أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر عن واحد عن الرسول — وما أكثرها — فلا يطمئن اليها أبو حنيفة وان كان الكثير منها فى نواح أخرى من المسلمات .

وهو يعرض الحديث على عمومات الكتاب وظواهره ، والسنه ، فان خالف ظاهر القرآن استبعدها وأخذ بالقرآن ، وان خالف السنة المشهورة استبعدها ، لأن القوى لا ينسخه الضعيف وان طعن فيها السلف رفضها . وكذلك يرفضها اذا خالف العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين ، واذا جاءت أخبار الآحاد مخالفة لقاعدة من قواعد الشرع فلا يعمل بها ، ولا يعملها فى الحدود لأنها تدرأ بالشبهات ، ولا فى الكفارات ، ولا يقبل حديثا عمل راويه بعد روايته بخلافه ، ولا يقبله فيما تعم به البلوى ، أو اذا عارضه آخر مثله ، وتأيد المعارض بالقياس .

كان الصحابة الذين أقاموا بالعراقين قلائل أمرهم عمـر لا يحدثوا الناس . واليك مثلا : كان حذيفة بالمدائن وكان واليها سلمان وكان حذيفه يذكر أشياء قالها الرسول لأناس من أصحابه فى الغضب ، فينطلق أناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان فيذكرون ذلك فيقول سلمان : حذيفه أعلم بما يقول وعاتب حذيفة سلمان على هذا العسر فتهدده سلمان بقوله : فوالله لتنتهين أو لأكتبن لعمر !

لقد كانوا يهابون الدره فى يده ! ويعلمون أنه حبس ثلاثة من الصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن الرسول .

سئل أبو هريرة يوما أكنت تحدث الناس فى زمان عمر هكذا ؟ قال . لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقته .

فلا عجب اذا كانت ظروف العراق توجب الاحتياط فى تلقى الأحاديث . ولا عجب اذن فى أن يقول أبو حنيفة « عندى صناديق من الحديث ماأخرجت

منها الا السير الذى يسمع به . » ولا عجب أن كان يروى أربعة آلاف حديث ألفين منها عن حماد ، وألفين عن غيره ، وأنه كان اذا هبط الكوفة محدث بعث أصحابه على أثره ينظرون هل عنده شيء من الحديث . ولا عجب مع هذا كله اذا انحصر المتفق عليه عند الحنفية فى قليل جدا من الأحاديث .

كان مالك بن أنس يحصر أحاديثه فى الموطأ ينقصها عاما بعد عام ، وكان نهى ابن وهب تلميذه عن الاكثار من السماع الذى لا يحدث به ، بل انه ندم على ألا يكون طرح من الأحاديث أكثر مما طرح ، ولما مات وجـد فى تركته حديث لم يحدث به .

وهذا وأمثاله رد الفعل لحالة طال عليها العمر بعد أبى حنيفة حتى ليقال ان البخارى اختار أحاديثه سبعة الآلاف — ومنها نحو ثلاثة آلاف مكررة — من ستمائة ألف حديث كانت متداولة عندما وضع صحيح البخارى . ! ! !

بل قال حنبل بن اسحق عن عمه الامام أحمد بن حنبل « جمعنا عمى : وقرأ علينا المسند .. وقال لنا ان هذا الكتاب جمعته من أكثر من سبعمائة ستين ألفا .. » .

بل ويقول أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث » فيسأله الرجل وما يدريك ؟ فيجيب ذاكرته . فأخذت عليه الأبواب ! ! !

ولم يكن مسند ابن حنبل يزيد على أربعين ألفا من الأحاديث !

فكيف بدولة المحدثين وقد جاء أبو حنيفة ينقصها من أطرافها ، يغربلها وينخلهـا ، حتى ليروى بعض المؤرخين أن ما صـح عنده سبعة أحاديث متواتره .. ! أو كما قال ابن خلدون : « ان أبا حنيفه رضى الله تعالى عنه بلغت روايته الى سبعه عشر حديثا أو نحوها » . ! ! !

والصحيح أن أبا حنيفة انفرد بمائتى حديث وخمسة عشر حديثا غير ما اشترك فى اخراجه مع سائر الأئمة . وله مسند روى فيه فى الصلاة وحدها ٢١٨ حديثا ولما جمع أبو المؤيد الخوارزمى مسندا له وقع فى ٨٠٠ صفحة .

من أجل ذلك – وتلقاء ما لم يثبت عنده من العدد الضخم من الأحاديث – كانت قواعد أبي حنيفة قنبلة لا يحس أثرها القارىء بقدر ما أحسه الشهود ، أي المعاصرون . وقدر ما نزل بالمصابين وهم الرواة . لقد زلزلت دولة المحدثين زلزالها أمام تلك الغزاة الفكرية ، المقبلة من المشرق مع الدولة المقبلة من العراق ، حتى جاء الشافعي يرد اليها مكانتها بجداله العبقرى في بغداد والحجاز وفى الفسطاط وهيأ لذلك الصاحبان نفسهما ، بعد اذ مات الشيخ فى بغداد وتبعهما الشافعى بأسلوبه القوى فاعتزت به دولة المحدثين أيما اعتزاز .

حمى أبو حنيفة الاسلام من أن يقصر الفقه دون مطالبه ، فأدخل فيه الاجتهاد ، وحمى الفقه نفسه من أن يبيد ، بالمبادرة الى تدوينه ، فنقل الى الأجيال اللاحقة فقهه وفقه السابقين .

وقف أبو بكر عندما ارتد العرب وقفته المشهودة فجرد لقتال المرتدين من استطاع تجريدهم من المسلمين الأولين وسقط فى هذا القتال كثيرون من الحفاظ ، فراح عمر يقول له فى اثر واقعة اليمامة وان القتل قد استحر يوم اليمامه بالناس . وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه وانى لأرى أن تجمع القرآن » .

ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك ، ورأى عمر ، فجمعت الصحف ثم صارت « المصحف الامام » فى خلافه عثمان بن عفان . أبقيت منها نسخة واحدة لديه ، ووزعت خمسة في الأقطار فى مكة والمدينة والكوفة والبصره والشام .

أما السنة فلم تجمع ، وان كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجاز جمعها .

روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه .. فنهتنى قريش فقالوا . انك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الغضب والرضا . فأمسكت عن

الكتاب فدكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . « آكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى الا حق » . وصحيفة عبد الله هده هى المسماة « بالصادقة » .

ولما خيف تحريف الأحاديث بعد وفاة الرسول جمع أبو بكر الناس وقال « انكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافا . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » .

حتى اذا ولى عمر هم بجمع الأحاديث ، ثم أصبح يوما فقال للناس انى كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا ألبس كتاب الله بشىء .

وأبى ابن الخطاب أن يجمع الأحاديث مع أنه صاحب الرأى فى جمع الكتاب العزيز

كان الصحابة لا يذكرون أحاديث الرسول الا مقلين على ما أسلفنا من بيان ، ولما بعث عمر بعثه الأول الى الكوفة قال للمبعوثين (ان أهل العراق لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بـرواية الأحاديث وأنا شريككم) .

وقديما كان من شرائع أسبرطة ألا تدون القوانين الا فى القلوب وأن يتمرس بها فى حياتهم وتدرب الناشئة عليها فى أيامها الأولى ، لتكون الأفئدة وعاءها لا النصوص . فمنع « ليكرج » تدوين الشرائع وكانت فلسفة التدوين عنده تتحصل فيما عبر به من فلسفته فى القيود والحدود حيث قال « ليست بغير سور هذه المدينة التى لا سور لها اذا كانت تحميها قلوب الشجعان » وما تزال أمم كانجلترا دستورها غير مكتوب ، تقوم على حياطته مهج ليس أرخص عندها من أن تسيل فى سبيله . وكانت حضارة الصدر الأول من الاسلام روحية خالصة ، وبهذا نستطيع أن نفهم تردد الناس فى التدوين وقلة حاجتهم اليه ، وقال القائل ان اثبات السنن بعد جمعها ليس أصلح منه قبل ذلك .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز هم بجمع السنة وتدوينها على يد ابن شهاب الزهرى وأبى بكر محمد بن عمرو .

كانت كل الأشياء تلح على الأمه للتدوين سواء فى الحديث أو الفقه أو التاريخ أو الشعر أو العلوم ، وكانت أشد حاجة الأمه الحاحا حاجة فهمها الى التسجيل حتى لا ينهار بين أيدى الشعب المتحادلة ، وحتى يتمكن الكافة منها تلك الوسيلة التى لا رسول مثلها بين الأجيال نعنى بها الكتابة والغذاء الفكرى لا يقدم للعقل البشرى — بحق — الا فى وعاء من الورق فى كتاب .

لم تكن الوراقة تكاد تعرف بعد ، وكان الورق بعيد المنال . حتى أن الدوله فى عهد المنصور (سنه ١٣٦ — ١٥٨) كانت تكنز القراطيس مخافة نفادها ، وفى ذات يوم وقف المنصور على كثرة القراطيس بخزائنه فأمر ببيعها وان لم يعط عن كل طومار الا دانقا (١/٦ درهم) وكان الطومار فى ذاك الوقت بدرهم ، وفى الغداه عدل عن رأيه واستبقى القراطيس مخافة أن يقع بمصر حادث تنقطع القراطيس بسببه ، ولهذه العله كان الفرس يكتبون فى الجلود والرق تخلصا من الحاجة الى ورق لا يصنعونه فى بلادهم .

وكان أبو جعفر يأمر كتابه بجمع الخط حتى لا يسرف كاتبه فى القرطاس .

وأول من كتب فى الطوامير الخليفه الوليد بن عبد الملك وفى خاتمة القرن الأول كتب عمر بن عبد العزيز الى عامل بعث اليه بطلب قراطيس « دقق القلم وأقلل كلامك تكتف بما عندك من القراطيس » .

وكان ما يكتب فى الدواوين يثبت فى صحف ، فلما جاء خالد بن برمك وزير السفاح (١٣٢ — ١٣٦) أمر باثباته فى دفاتر

لكن الكتابة كانت تشغل مدرسة أبى حنيفه فى عهد المنصور ، وقبل ختام ذلك العهد بسنين وعشرات السنين ، كانت المسائل تدون فى الحلقة على ما أسلفنا منذ رأسها ، وكان هو يدون لنفسه المسائل وهو تلميذ فى حلقة حماد ، كما كان الأئمة والمجتهدون ينظرون فى كتبه فى حياته ، ولم

يتأكد لنا التدوين الفقهى عند غيره من فقهاء الجمهور الاسلامى الا بعد أن كان أبو حنيفة قد أبلغ رسالته فى الكوفة وفى مكة والمدينة وفى كل مكان ، وسجلها تلاميده فى كتبهم ، ثم تحرك دولاب العلم .

واستخدمت أداه التدوين ، فساعد التدوين على الوراقة ، وساعدت الوراقة على التدوين وأخذنا نسمع أن العلماء (أصحاب المحابر) ـ وبدأ التاريخ بسجل فصل أبى حنيفة اذا صح ما قيل فربط اسمه بالقلم والدواة .

فمن أينْ هذه الكنية للنعمان بن ثابت « أبى حنيفة » ؟.

المعول عليه أن التاريخ لا يعرف له من البنين الا حمادا ، وان التاريخ لنذكر نحو التلاثين من العلماء كنوا بهذه الكنية بعده كالايفانى والديون صاحب كتاب البناب ، والبخارى ، والفارسى الملجمى (من فقهاء الشافعية) والمغربى (النعمان من فقهاء المالكية) ، ثم ان حنيفة احدى القبائل التى عرض الرسول نفسه عليها ، فأبو حنيفة لنسب من جراء أبوة لصاة ، ولذلك قال البعض ان سبب هذه الكنية هو أن حنيفة مؤنث حنيف ، والحنيف هو المائل الى الدين قال تعالى « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » وقال جل شأنه (فأقم وجهك للدين حنيفا) ولذلك تسمى الشريعة بالحنيفية السمحة كما قال عليه الصلاه والسلام (بعث بالحنيفية السمحة) .

ولكن المرء يتساءل لماذا لم تكن أبا حنيف بدلا من أبى حنيفة واذا أنت الحنيف فى شأن من كنوا بكنيته تتسها به فلماذا أنث كنيته هو ؟

ولهذا سمل الى قول آخر قاله (الكافيجى) ، وأورده ابن حجر ورده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة ، لأن الدواه تسمى حنيفه بلغة أهل العراق ...

وسواء أصح القول أم لم يصح فانه يصل بنا وبين عقيدة ثبتت فى التاريخ عن ارتباطه بالدواه أو ارتباط اسمه بها وارتبـاط مذهبه بالتدوين والتحرير .

وهذه هى اليد الكبرى لأبى حنيفة على الاسـلام فاذا كان لأبى بكر وعمر الفضل فى تدوين الكتاب العزيز ، أو كان لعمر بن عبد العزيز فضل

التفكير فى تدوين السنن دون أن يتم له ما أراد ، فان لأبى حنيفة فضل تدوين الفقه الاسلامى ، وتدريسه بابا بابا ، وترتيب دراساته والأمر بتدوينها ساعة تدريسها ، فدون فى حياته وتضخم بعد وفاته ، فخلقت البحوث الصافية التى شغلت بها المدرسة ثلاثين عاما أو تزيد ، وتلقاها الصاحبان وتلاميذها وخلفاؤهم ، ثم تسلمها الشافعى وتلاميذه ، ومالك وتلاميذه وابن حنبل وتلاميذه وغيرهم من المجتهدين والمقلدين ، فبنوا لنا ذلك الصرح الممرد الذى يقف الرائى ازاءه مشدوها تروعه ضخامته قدر ما تبهره متانته .

ولئن كان قد دون تفسير بعض الآيات لابن عباس من قبل ، أو جمعت بعض السنن ، ان ذلك كان خاصا بالمفسر والسنة ، وكان فيما يتعلق بالأحاديث شخصيا لا يقصد به نفع الجمهور كصحيفة ابن عمرو المسماه بالصادقة أو صحف الزهرى .

ولئن قال بعض الفقهاء بأن تدوين السنن كان فى سنة بضع وأربعين ومائة ، أو حددها البعض بسنة ثلاثة وأربعين ومائة ! انها جميعا تواريخ لاحقة لرياسة أبى حنيفة لحلقة الكوفة ببضعة وعشرين عاما .

ولقد يكون حقا ما قيل من أن على بن أبى طالب كان يجمع فى قراب سيفه بعض أحكام الفقه ، وأن بعض الشيعة دونت لهم كتب لكن التدوين والتأليف للجمهور الاسلامى على نطاق شامل . لم يبدأ الا على يد أبى حنيفة .

قيل ان مالكا جمع الموطأ فى ذلك العصر . لكن الموطأ كان كتاب سنة قبل أن يكون كتاب فقه يحتوى عرضا وشرحا ، وفروضا وحلولا وأصولا وتفاريع وأسئلة واجابات . ثم ان مالكا لم يكن قد تخطى السابعة والعشرين عندما كان أبو حنيفة فى رياسة الحلقة الكبرى بمسجد الكوفة بعد نحو عشرين عاما من النجابة والصدارة فى حلقة حماد ، وبعد أن كان يكتب المسائل قبل وفاة أستاذه بعشر سنين ، وكان أبو حنيفة فى حلقة حماد تلازمه كنيته التى تحدثنا عنها .

قالوا انه لما استقامت الأمور لأبى جعفر خرج حاجا الى مكة سنة ١٤٨ فكان فيمن دخل عليه مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله انى رأيت أنى

أجالسك فى هذا البيت فسكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على علمك ، وأعهد الى أهـل الأمصار يوفدون اليك وفدهم . لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق فقال مالك « يا أمير المؤمنين ان أهل العـراق قد قالوا قولا تعدوا فيه طورهم . فان رأى أمير المؤمنين اقرارهم على فليفعل ... فأعفنى ... فأعفاه »

وذكروا أن مالكا حج فى سنة لاحقة فقال له أبو جعفر يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودون منه كتبا ... واقصد الى أواسط الأمور وما اجمع عليه الأئمه والصحابة لنحمل الناس ان شـاء الله على علمك وكتبك ... فقال مالك . أصلح الله الأمير . ان أهل العراق لا يرضون علمـا ولا يرون فى علمهم رأيا فقال أبو جعفر . يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف .. فعجل بذلك وضعها فسيأتيك ابنى المهدى العام القابل ان شاء الله الى المدينة يسمعها منك » وذكروا أن مالكا لما أخذ فى تدوين كتبه قدم عليه المهدى فأتاه بكتب الموطأ فأمر المهدى بانتساخها وأمر له بأربعة آلاف دينار ... ولابنه بألف .

لم يكن مالك يحب الكتابة فقيـل له . ماذا نصنع ؟ قال تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاجون الى الكتابة !

وكان ابن حنبل مثله يكره أن يكتب كلامه . وهى ظاهرة نعرف أسبابها من جواب جابر بن يزيد اذ قيل له انهم يكتبون ما يسمعونه منك فقـال . « انا لله وانا اليه راجعون . يكتبونه وأنا أرجع عنه غدا !. »

والذى روى عن أبى جعفر فى تكليف مالك ، روى مثله عن الرشيد مع مالك ، وسواء أصح تكليف هذا له أو ذلك ، فانما كان بعد سنة ١٥٠ أو سنة ١٤٩ أو سنة ١٤٨ أى بعد أن أستأثر ثرى الكوفة بعظام أبى حنيفة ، أو بعد أن كان قد أدى رسالته وأمر بالتدوين تلامذته على النحو الذى شرحنا .

انمـا تنسب النهضة الرائعـة فى التدوين الى أبى حنيفة وتلاميذه وتلاميذهم ، الـذين أقبلوا على التـدوين مدفوعين بغريزة الأمة المشغوفة بالتأليف والتصنيف ، بالاملاء أو بالكتابة ، فى مجالس الافتاء أو فى مقاعد

الدرس حتى لنجد فى خاتمه القرن الرابع أو فاتحه القرن الخامس مجلســا للطب الصعلوكي يضع فيه التسخ فى وقت املائه أكثـــر من خمسمائة محبره

لم يضع الصحابه والتابعون فى علم التشريعه أبوابا مبوبة ولا كتبــا مرتبة ، وانما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ويجعلون قلوبهم صناديق علمهم ، وجاء أبو حنيفه بعدهم فرأى العلم منتشرا فخاف عليه الخلف الســوء أن يضيعوه ، فدونه ورتبه مبتدئا بالطهاره ثم بالصلاه ثم بسائر العبادات ، ثم ختم بكتب المواريث لأنها آخر أحوال الناس وهـــو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط .

رووا عن مالك أنه قال وضع أبو حنيفه ستين ألف مسأله فى الاسلام. وقيل ثلاثه وثمانين ألفا منها ثمانيه وثلاثون ألف أصل فى العبادات وخمسه وأربعون ألف أصل فى المعاملات وقيل بل ... خمسمائه الف ..

ورووا أن مالكا كتب الى خالد بن مخلد القطرانى يسأله أن يحمل اليه كتب ابى حنيفة ففعل .

وصنع ذلك الأوزاعى مع عبد الله بن المبارك بصدد كتب أبى حنيفة كما سنرى بعد . وصنعه الشافعى عن طريق محمد بن الحسن .

وصنعه سفيان الثورى فرأى الرائى تحت رأسه كتابا استأذنه فى قراءته فاذا هو كتاب أبى حنيفة فى الرهن فسأله أتنظر فى كتبه ؟ قال وددت أنها كلها مجتمعة عندى .

صنع هؤلاء الأئمه ذلك وصنعه الفقهاء والمجتهدون والمقلدون والناس جميعا .

الباب التا

إمام أهل الرأى

« علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه »

« ابو حنيفة »

كان أبو حيفة فياسا « يقيس المسألة على أخرى ليردها الى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فحتهد ويدور حول الاتباع » كما قال

أو كما قال فى وصته لنوح بن مريم عندما ولى نوح القضاء بمرو « ان أبواب القضاء لا يدركها الا العالم النحرير ... فادا أشكل علىك شيء من دلك فارحل الى الكتاب والسة والاجماع ، فان وجدت دلك طاهرا فاعمل به ، فان لم تجده ظاهرا فرده الى النظائر واستشهد عليه الأصول ، تم اعمل بما كان الى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذى سال منه فقه أبى حنيفة فبلغ هذا الشأن البعيد من التفصل والشمول والانتشار ، وأضحى فى متناول الكافة حلول لكل ما يعرض لهم من شئون المعاش والعادات .

لم يكن من ذلك بد ، فالناس فى بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون الى معالم تعس حدوده وأدوات تتيح لراكبيه أن يسبحوا فيه ، ولا غنى فى تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذى له نهاية لا يضبط شيئا بلا نهاية .

فاما أن يترك الناس مع أهوائهم فى المتاهات ، واما أن يقفوا تلقاءها جامدين ، فلا يكون بد من الوقف المؤدى الى تعطيل التكالف أو الى مالا يطاق ، واما أن يؤدن الناس بالاجتهاد ، لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفى بلد متحضر كالعراق ، حت تجمعت قوى الاسلام لنطق فى مصمار الحضارة ، كانت تقع أمور داب بال تدفع الفقه الى الاىكار فلا معدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضي والكافة باستنباط القواعد العامة من الشريعة لتقاس عليها المسائل التى تحدث للناس .

والقياس فى كتاب الله كثير ، من ذلك قوله تعالى « ولو ردوه الى الرسول والىأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وأول أبواب الاستنباط وأعلاها هو القياس .

وفى السنة اجتهادات وقضايا كثيرة : قصد الى الرسول رجل ينكر ولدا له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام « هل لك ابل ؟ » قال نعم قال ما ألوانها ؟ قال حمر . قال هل فيها من أورق ؟ قال : نعم . قال فمن أين ؟ قال الرجل لعله نزعه عرق قال وهذا لعله نزعه عرق . »

قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر قرنا ويقوله العلم الآن .

واجتهد النبى اجتهادات صححها القرآن وفى بعض ذلك قوله سبحانه (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك) ولما أذن للمنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك نزل قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

بل ان من اجتهاداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم كيوم نزوله فى بدر دون الماء فقيل له بوحى أم برأى .

أما اجتهادات الصحابة ؛ فكانت كالعلامات التى تشير الى ما تحت الثرى من كنوز ؛ أمر النبى صحبه يوم الأحزاب أن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، فاجتهد بعضهم فصلاها فى الطريق . قائلين ان النبى أراد السرعة ؛ وأبى آخرون الا أن يصلوها فى بنى قريظة فصلوا هنالك ليلا — وهؤلاء هم سلف أهل الظاهر — الذين يتمسكون بظاهر النصوص أما الأولون فهم الآباء المفكرون لأصحاب القياس والاجتهاد .

ولما كان على بن أبى طالب باليمن اختصم اليه ثلاثة نفر فى غلام وقعوا على أمه فى طهر واحد فقال لاثنين منهم . طيبا بالولد لهذا قالا : لا قال لاثنين منهما الثالث طيبا بالولد لهذا قالا . لا قال . أنتم شركاء متشاكسون انى مقرع بينكم فقرع بينهم وجعل الولد للقارع وجعل عليه للرجلين ثلثى الدية .

فبلغ ذلك الحكم النبى فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء على .

واجتهد صحابيان خرجا فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما النبى وقال للذى لم يعد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين .

ولما قتل حالد بن الوليد قوما قالوا . صبأنا قال النبي : (اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد) ووداهم من مال المسلمين لا من مال خالد وعذره لاجتهاده .

لكن الصحابة لم يكونوا كلهم عليا ولا عمر وأمثالهما فكانوا يتحرجون دون القياس أو الاجتهاد ، وكان التابعون كمثلهم بل أشد حرجا ... كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى لسمى سعيدبن المسيب الجرىء،فكان الرجل يدخل فيسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس الى مجلس حتى يدفع الى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال « انما يفتى الناس أحد ثلاثة رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه وأمير لا يجد بدا أو أحمق متكلف » فقال ابن سيرين . فأنا لست أحد هذين فأرجو أن لا أكون أحمق متكلفا .

حتى اذا جاء أبو حنيفة ووضع يده على تلك الأداة بشتى أسمائها (القياس . أو الاستنباط ، أو الاجتهاد . أو الرأى) وقلبها فى كفه كعصا موسى ، فجاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على غراره وجرى المجتهدون فى غباره ، اللهم الا أشياع داود الأصفهانى (الظاهرى) الذين يقولون بأن العمدة على ظاهر النص ، وان فى عمومات النصوص كفاية للأمه ، وقد درس مذهبهم .

واذا بتلك الثروة الضخمة من التشريع الاسلامى تربو وتنمو حتى ترفع الفقه الاسلامى الى مستواه الرفيع العالى بين مستويات الشرائع المعاصرة تطلع اليه فى قممه الشوامخ ذلك الفضل من الله آتاه أبا حنيفة ، وهو الذى جعل الشافعى يهتف بذكراه قائلا (من أراد أن يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه فان الناس كلهم عيال عليه فى الفقه) .

وانتقلت هذه العصا السحرية الى اللغة والنحو كما ينتقل الخبر ، وينتشر النور ، وتنتقل الصحة — والصحة تعدى كما يعدى المرض — فاذا بالناس فى البصرة والكوفة يهبون اللغة العربية طرازات كأنها الاختراعات .. فلو كنت من أهل البوادى فى ذلك الزمان ممن يعولون فى اللغة على السماع وحده كهؤلاء الذين كانوا يعولون فى الفقه على النصوص وحدها ، ثم جئت الى

مصر أو الى الشام بله العراق ــ بعد أن أعمل علمــاء الكوفة والبصرة فى اللغة آلة القياس ــ لظنت أن العربية التى تسمعها ليست هى العربية التى تعهدها .

كان أبو حنيفة منطقيا ، والمنطق جوهرة القياس ، فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته .

واذا كانت الشريعة معقولة المعنى ، فلمــاذا لا يتعرف المجتهد باستقراء الأحكام الشرعيه وجوه المصلحة فى النصوص ليستخرج منها القواعد العامة التى يقوم الشرع عليها ويلحق مالا نص فيه بما فيه نص لاتحاد علة الحكم فى الأمرين ؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلا بد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالقيــاس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودا وعدما ، كما أن المعقول دائر مع أخبارها وجودا وعدما ، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل وعلى ذلك ففى كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للاسلام سواء بنص أو باجتهــاد حيث لا نص .

واذن فليعمل المفكرون فكرهم فى تعرف العلل واضــافة الأحــكام اليها وضبط السائح ، وتفريع الفروع فى فهم واحاطة لخلق الأحكام وابتكار الآراء ، وفى ذلك تتفاوت الملكات ، وتتميز الكفايات من الكفايات ، تتميز الزجاج من البللور وتميز البللور من الماس ، ذلك يخترقه الشعاع بلا حائل وذلك يعكس الأضواء بعض الانعكاس ، أما الماس فهــو الماس ، يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فيضا من النور والبهجة والائتلاق .

لقد طالما نزل أبو حنيفه الى معارك المتكلمين فى صدر شبابه فخلف هذا النزال أثره فى ملكة الجدال ، وربط خاصره بناصيته فى حيــاة عملية ذات ألوان وأحداث .

والجدال هو العده الأولى للعقل الفقهى سواء فى الفقه أو القضــاء أو الدفاع لأنهــا جميعا تقــوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أى على القياس .

لم يك أبو حنيفة الا غلاما طرى الاهاب عندما صحب الشعبي في سفينة فسمع الشعبي يقول (لا ندر في معصية ولا كفارة فيه) ؛ فاستوى الفتى الرشيق الفهم ، مناضلا راشق السهم . يقول : (بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الظهار الكفارة بعد أن جعله معصية فقال « وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا » وقد أوجب فيه الكفارة .)فلم يحر رغم المحدثين جوابا سوى أن قال أقياس أنت ؟

والظهار لغة هو أن يظاهر الرجل من امرأته اذ قال لها ، أنت على كظهر أمي ، وشرعا هو تشبيه المسلم زوجه أو جزءا منها بمحرم عليه ، مؤبدا .

وقد امتد الاجل بالشعبي أعواما لحاءته الأيام بالجواب .

وانه لفي المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه في مسألة يديرونها بينهم اذ صاح من ناحية المسجد في آخره الحلق التشكيك فقال ما هذه المقاسيات ؟ دعوها فأول من قاس ابليس . فلم يغضب أبو حنيفة لأن الغضب جنة لسلب الحجة ، بل أقبل على الفتى يكبته بآي الكتاب . فذلك أدنى ألا يرتاب . قال يا هذا وضعت الكلام في غير موضعه ، ابليس رد على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » . وقال تبارك وتعالى «فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين » . وهذا القياس الذي نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأنا نرده الى أصله أمر الله تعالى في كتابه ، أو الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فاتبعنا أيضا في ردنا كتاب الله وسنة رسوله والاجماع، فنحن ندور حول الاتباع فنعمل بأمر الله تعالى، فابليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى ورده فكيف يستويان ؟.

أنب الفتى هذه الحجج نبعة قيهية ، وكأنما أحاطت به خطيئاته فرأى العذاب وتقطعت به الأسباب وراح يقول : غلطت يا أبا حنيفة وتبت ، نور الله قلبك كما نورت قلبي ...

كان من رأيه أن قراءة المصلين خلف الامام في الصلاة تكفي عنها قراءة الامام فقصد اليه رهط من أهل المدينة يحاجونه ، قال لا يمكنني مناظرة

الجمع فونوا أعلمكم ، فاحذروا لحداثه أعلمهم . قال وهل اذا ناظرته أكون قد ناظرتكم ؟ قالوا بلى قال ان ناظرته لزمكم الحجه لأنكم تحترسون فجعلتم كلامه كلامكم وهكذا نحن احترنا الامام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا فأمروا بالالزام

كان يبحث عن علل النصوص فيجري الحكم الشرعي على مقتضاه لا على ظاهر الألفاظ . فاذا سمع حديث النبي عن الزكاه أن في كل أربعين شاه شاه — رأى أن مراد الحديث أن يتصدق صاحب الأربعين بشاه من الأربعين أو بما يعدل ثمن شاه وأذا طبق حديث صدقة الفطر صاع من تمر أو شعير قال انما يراد به أن يتصدق المرء بصاع أو بثمن صاع أو بدفع الصاع

واذا فسر روايه أبي هريره لحديث الرسول عن رد الشاة المصراه بعد احلابها ورد صاع من تمر (وهي الشاه التي تربط ضرعها قبل البيع حتى يظن المشتري بها غزاره اللبن) فالمقصود عنده هو الصاع أو ثمن الصاع . ذلك لأن أبا حنيفه يرى أن ضمان التلف في الشريعة هو أن يرد المثل ان كان التالف من دواب الأمثال أو القيمه ان كان من دواب القيمه .

أما المدرسه الأخرى فترى أنه لا يجزىء عن شيء من ذلك ثمنه أو مثله

قالوا انه يترك النصوص والأحاديث لأقيسته ! والحق غير ذلك فأبو حنيفه هو القائل (وكل شيء تكلم به عليه السلام فعلى الرأس والعين قد آمنا به وشهدنا بأنه كذلك . ونشهد بأنه عليه الصلاه والسلام لم يأمر بشيء يخالف أمر الله . ولم يتقول عن ما قاله الله تعالى وما كان من المتكلفين قال تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله») وان كتب أبي حنيفه ملأى بترك القياس الى الحديث .

قال زفر لا تلتفتوا الى كلام المخالفين فان أبا حنيفة وأصحابنا لم يقولوا في مسأله الا من الكتاب والسنة والأقاويل الصحيحة ، ثم قاسوا بعد عليها .

والشافعي نفسه يقول « أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة

رسول الله صلى الله علبه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعدرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به ... »

انما كان الأمر عند أبي حنيفة وصحبه أمر ثبوت للسنة أو عدم ثبوت .

قال ابن خلدون : (واعلم أيضا أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا في الاكثار من هذه البضاعة . وقد تقول بعض المبعضين المتعسفين الى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، فلهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الأئمة .. وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها ...) .

وقديما قدم على ابن أبي طالب القياس على خبر الواحد .

قال أبو يوسف . (ما خالفت أبا حنيفة في شيء فتدبرته الا رأيت مذهبه الذي ذهب اليه أنجى في الآخرة وكنت ربما ملت الى الحديث وكان هو أبصر بالحديث مني ..)

وفي سبيل الاستيثاق من الروايات اعترت مدرسة الكوفة وأسنادها بسلسلة الكوفة ورواتها .

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي بدار الحناطين بمكة ، فسألة الأوزاعي عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع في الصلاه وعند الرفع منه ، فأجابه لأنه لم يصح عن النبي شيء فيه . قال الأوزاعي كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاه وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة حدثنا حماد عن ابراهيم عن علقمه والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه الا عند افتتاح الصلاة ولا يعود الى شيء من ذلك .

قال الأوزاعي أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن ابراهيم ؟

فأجاب أبو حنيفة كان حماد أفقه من الزهري .

وكان ابراهيم أفقه من سالم .

وان كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبه ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله !

أما عن سلسلة الأوزاعى : فالزهرى هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ وكان عبد الله كثير الاتباع للآثار ينزل منازل الرسول حيث كان يصلى ، ويتعهد الشجرة التى جلس تحتها الرسول حتى لا تيبس ، لكنه كما قال عنه الشعبى وهو أحد خصوم الرأى . كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه

أما سلسلة أبى حنيفة فهى سلسلة الكوفة حماد هو أستاذه حماد وابراهيم هو ابراهيم النخعى ، وعلقمة هو علقمة النخعى الذى قال عنه ابن مسعود انه ما قرأ شيئا أو علمه الا قرأه علقمة أو علمه ، والأسود هو الأسود ابن يزيد بن أخى علقمة وتلميذ معاذ وابن مسعود وأما عبد الله فهو عبد الله ابن مسعود العظيم

ولقد كان الأوزاعى يجادل فى أبى حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة .

قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوزاعى فرأيته ببيروت فقال لى : يا خراسانى من هذا المبتدع الذى خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت الى بيتى فأقبلت على كتب أبى حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت فى ذلك ثلاثة أيام فجئت يوم الثالثة وهو مؤذن مسجدهم وامامهم والكتاب فى يدى فقال : أى شىء هذا الكتاب ؟ فناولته فنظر فى مسألة منها ... فما زال قائما بعدما أذن حتى قرأ قدرا من الكتاب ثم وضع الكتاب فى كمه ثم قام وصلى ثم أخرج الكتاب ، حتى أتى عليها ثم قال لى : يا خراسانى من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت شيخ لقيته بالعراق . فقال : هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه قلت . هذا أبو حنيفة الذى نهيت »

فلما اجتمعا بمكة حاوره فى تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك ولما افترقا قال الأوزاعى لابن المبارك . « غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت فى غلط ظاهر . الزم الرجل فانه بخلاف ما بلغنى عنه . »

وكان كشف الأمور للامام « الأوزاعى » كان يكشفها للامام «الثورى» جاءه رجل يفيمه الهم ويقعده قال: حلف بالطلاق لا أكلم امرأتى قبل

ن تكلمني . قالت والعاق لازم لا أكلمك قبل أن تكلمني – فكيف أصنع ؟
قال اذهب فكلمها ولا حنث عليكما ؛ فذهب الرجل الى « سفيان الثورى »
فهرول سفيان الى ابى حنيفه يقول « أنسح الفروج » ! قال أبو حنيفة
« هو كذا انها لما قالت له وعلي العتاق الخ .. شافهته بالكلام فانحلت
يمينه فاذا كلمها لم يقع الطلاق » .
قال الثورى . انك لتكشف ما كنا عنه غافلين .
حقا كم كان صحيحا قول الشافعى (قول أبى حنيفة أعظم من أن
يدفع بالهوينا . وقول عبد الله بن المبارك رأيت الأكابر فى مجلس أبى حنيفه
صغارا وما رأيت أحدا جاور أبا حنيفة الا رحمه) .
بل قوله هاتوا لى مثله والا فدعونا ولا تعذبونا .

ويتصل بمذهب أبى حنيفه فى القياس مذهبه فى الاستحسان وهو
الأخذ بمصلحه جزئيه فى مقابل دليل كلى يلجأ اليه اذا كانت نتائج القياس
لا تستساغ . بأن كان طرد القياس يؤدى الى غلو فى الحكم ومبالغة فيه
فيعدل عنه فى بعض المواضع ويفتى المجتهد بما يحس وقعه فى النفس فى
تلك الحالة بذاتها ، فيفرد للوصف الذى تحس به نفسه حكما غير ما ينتجه
القياس .

قال عليه الصلاه والسلام . (استفت قلبك وان أفتاك المفتون ...)
ولقد نعوا على أبى حنيفه تركه القياس الى الاستحسان ، قولا بأنه
خروج منه عن قاعدته الكبرى وهي القياس ، لكن الذين آخذوه على
الاستحسان طالما كانوا يستحسنون .

بل كيف يقف المجتهدون دون الفتوى اذا ساء القياس بأن قبحت
نتيجة . رووا عن مالك أنه قال : (تسعة أعشار العلم الاستحسان) .
ان القياس أداة تحركها عين باصرة ويذكلها احساس • والمفكر الذى
كانه أبو حنيفة ليس هو الذى تستعبده أدواته . ومن يصنع شيئا لا يستعبد
به ، والرجل الذى بطبعه الحسن فى ذاته ، وفى كل أسباب حياته ، لم يكن
ليجتنبه فى مقولاته .

قال محمد بن الحسن كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينتصفون منه ويعارضونه حتى اذا قال استحسن لم يلحقه واحد منهم لكثرة ما يورد في الاستحسان فيدعونه جميعا ويسلمون له . وقال ابن شبرمة ان كان لا يجوز لأحد أن يتكلم في دين الله برأيه فأبو حنيفة اذا قال

مع العشاء وليمة رجل زوج ابنيه من أخوين فخرج الولي وهو يقول . أدركنا مصيبة عظيمة ، غلطنا فزف الى كل واحد غير امرأته وأصيب . قال سفيان لا بأس بذلك كما حكم به علي كرم الله وجهه ... فقال أرى أن على كل المهر بما أصاب من المرأة وترجع كل الى زوجها. فاستحسن الناس منه ذلك وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر قل فيها . قال سفيان وما عسى أن يقول خلاف هذا ... قال أبو حنيفة علي بالغلامين . فأحضرا ، فقال لكل واحد منهما أتحب أن تكون عندك التي زفت اليك ؟ قال نعم ، قال فما اسم امرأتك التي عند أخيك ؟ قال . هي فلانة ، قال قل هي طالق مني . ثم زوج كلا المرأة التي مسها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر . فعجب الناس من قضاه بذلك حتى قام مسعر فقبله وقال ، تلوموني على حبه . . وسفيان ساكت لا يقول شيئا .

وكلا الحكمين حق فحكم علي حكم الوطأ بشبهة وهو يجب فيه المهر ولا يرفع النكاح . .

وحكم أبي حنيفة حكم يدرأ ما يترتب من القسوة بعد اذ أفضت كل امرأة الى رجل بما أفضت من محاسنها مما تعلق به الأنفس . ولو صارت تحت غيره . فكان حكم أبي حنيفة الهاما موفقا . لأن لصاحب عدة الوطء بشبهة أن يعقد بالموطوءة فيها . وفي ذلك من المصلحة ما أسكت سفيان وجعل ا يقبله .

* * *

قال أبو حنيفة يوما لتلميذه داود الطائي عن العلم أما الآلة فقد أحكمناها! قال داود وهل بقي شيء ؟ قال الامام العمل .

فلنتقل عنه هذا التصوير للعلم الى الآلة التى صيرت علمه مذهبا فى العالمين وهى أداة الاجتهاد أو أداة القياس .

وضع أبو حنيفة يده على تينك الآلتين فاختلطا فى يده وصارتا كالمولد العظيم للقوى ، وجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما (الرأى) أو كما قال الشافعى أصبحا اسمين لمعنى واحد ، ذلك بأن الاجتهاد لا يكون الا بدلائل والدلائل هى القياس ، واذا بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب فى كل الآلات والمحركات ، واذا بحلقات الفقه تضحى كمعامل الانتاج الكبير حتى تكاد الآذان تسمع وقع العجلات ودق الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثنى عشر ، واذا بهذا الروح الخالق يهب الحياة للانتاج الهائل الذى خلفه لنا القرنان الثانى والثالث وما زال يهب الفقه حياته كلها الى الآن .

حقا ان هاتين الآلتين لم تكونا من مخترعاته لأن النبى والصحابة قد اجتهدوا وقاسوا لكن الرسول اذ يشرع هو صاحب الشريعة واجتهادات ابن الخطاب عمريات ليس يقدر عليها سوى الفاروق ، كذلك كانت اجتهادات أبى بكر وعلى . وما عداها من اجتهادات الصحابة والخلفاء لم تك الا ومضات خاطفة لمعت فى المناسبات ، أما الفتى الخزار كما يسميه ابن أبى ليلى ، فلم يكن أميرا للمؤمنين ولا واليا ولا قاضيا ، لكنه جعل هذه الومضات العابرة شمسا تغمر الأكوان كلها بالنور واتخذ منها تمثالا شامخا يربط كل ما فى الوجود الى قاعدته بخيوط من الشعاع الذهبى المسمى بالفكر ، فيتحكم فيما حدث وفيما سيحدث وفيما قد لا يحدث من الأمور

وأية جسارة كانت هذه الجسارة !

لقد كان أبو بكر يقول (أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى اذا قلت فى القرآن مالا أعلم) وهو مقال ينم عن خطورة التعرض لتطبيق أحكام الكتاب وتفسير آياته

سئل أبى بن كعب وهو من فقهاء الصحابة المقدمين عن شىء فقال . أكان هذا ؟ قال السائل : لا . قال : فأجمنا حتى يكون فاذا كان اجتهدنا لك رأيا .

وروى عن رمله ريد بن ثابت أنه كان اذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فان قيل له وقعت أفتى فيها . وان قيل له لم تقع قال دعها حتى تكون .

وكان عبد الله بن عمر لا يكثر من الفتوى تورعا منه ، رغم أنه تصدى لافتاء الناس ستين عاما وأن أهل الشام مالوا الى توليه الخلافة فزهد فيها .

كان التابعون يرفضون الجواب عما لم يقع كأن فى الافتراض نجاة أو رجما بالغيب أو تحديا للمستقبل ، مخافة أن يحللوا حراما أو يحرموا حلالا دون الملم تام بالظروف .

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال لم أسمع فى هذا شيئا . قال السائل فأخبرنى أصلحك الله برأيك . قال . لا . ثم أعاد عليه . فقال : أرضى برأيك . فقال سالم . انى لعلى ان أخبرتك رأيى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا فلا أجدك .

قال ابن سيرين أول من قاس ابليس . وماعبدوا الشمس والقمر الا بالمقاييس وروى الليث بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهرى بشيء من الرأى فقبض وجهه كالكاره ثم جاءه بأحاديث من السنن فتهلل وجهه وقال . اذا جئتنى فأتنى بهذا .

وكان الشعبى يقول (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت · القرآن والروح والرأى) .

ويقول احفظ عنى ثلاثا لها شان اذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك أرأيت (أى لا تفترض) فان الله تعالى قال فى كتابة (أرأيت من اتخذ الهه هواه ...) واذ اسئلت عن مسأله فلا تقس شيئا بشيء فربما حرمت حلالا أو حللت حراما ، واذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك .

كان ذلك قبل أن يظهر علم أبى حنيفه ، وكان الأمر كذلك من بعد ظهوره . روى أسد ابن الفرات بعد اذ قدم الى المدينة على مالك (وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلونى أسأله فاذا أجاب يقولون قل له : فاذا كان كذا فضاق على يوما فقال لى هذه سليسلة بنت سليسلة ، ان أردت هذا فعليك بالعراق)

وفى كلمه مختصره كان أهـل الأثر لا يأخذون بالرأى الا اضطرارا مكرهين عليه اكراها . ولا يستخرجون أحكاما لمسائل لم تقع بل لا يفتون الا بقع

لكن أبا حنيفه اذ يقدم للناس أداه الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم يقع . لا يرى مما قدمت يداه بل يعرضها على الفقهاء عرضا ؛ ويهيب بالكافة أن يهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها ؛ ثم يقف الى جانبها جبارا يملأ العين والسمع ويرحم حواس الناس أجمعين عقودا ثلاثه أو أربعه من القرن الثانى للهجره معلنا للملأ أنها أداته التى يحلق بها مالا يعلمون ، وأن العقل والنقل أو الفكر والنص ، هـذا الأساس الذى تبنى عليه أصـول الفقه الاسلامى وفروعه ؛ حتى اذا سجلوا عليه وزر هذه الأداه باهى بمـا سجلوا به وكافح فى سبيله

ذلك الرجل اذا لم يك مخترع هذه الأداه فانه كاشفها الذى جمع الفطر فصيره من فيض عقله بحـارا ؛ والكشوف العلميه لم تخـترع المكتشفات اختراعا . وانما يضرب بها بين المجاهل . والرسـالات الفكريه كالكشوف يهتدى الى الحق الكائن بعد أن يسبقها التمهيد والاعداد والارتياد .

لم تكن الكهرباء ابداعا ، ولا الراديوم ؛ ولا البسره (المعقم على طريقه باستور) ولا أمثالها وانما هى كشـوف هدت اليها الصدفه حينا والكدح والضنى أحيانا . . وكذلك كان كشف المولد الذى قدمته مدرسة الكوفه الى العالم الفقهى ، أثرا لجهد ناصب دام أربعين عاما فى عهـد أبى حنيفه . بعد أن ظل قرنا كاملا من الزمان جنينا يضطرب فى بطون التاريخ الاسلامى حتى قدمته يد أبى حنيفه الى الوجود .

ترى ماذا كان مصير التشريعه الاسلامية اذ هى وقفت فى حدود ظاهر النصوص أو اكتفت بمدلولاتها المباشره . سواء فى المائتى آيه أو العـدد القليل المسلم به من الأحاديث أو غير المسلم به منها أو بذلت الاجتهاد الفردى فى مسائل العرضى ! ترى ماذا كان مصير هذه الحضاره الاسـلاميه اذا لم تستند الى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفيه السمحة التى يهدف الى نشرها هذا الدين ؟؟ ماذا كانت صانعه هذه الآلاف من الملايين

وهذه الهزات الفكريه وهذه الحياه الدائبه المتجدده ، وهذا العالم المتدين المغاير . وهذه القرون التى تحمل كل منها طوابعه : وهذه البقاع والأجناس والحضارات ، من أسيويه الى أندلسيه ومغربيه وهنديه وصينيه وآوربيه ومصريه وغيرها ! ومن حضاره القرون الأولى الى حضاره القرون الوسطى الى حضاره الآلات

انما يرجع الفضل فى سداد الشريعه الاسلاميه لمطالب الحضاره الاسلاميه الى هذا المولد . الدائم التولد ، مثله كمثل - -- سنابل فى كل سنبله مائه حبه تضاعف نباتها دواليك حتى تكسف العمران ، أو كالمتواليات الهندسيه التى تجعل العدد البسيط (١٠ مثلا) مائه مليون فى ثلاث عمليات فحسب ، أو كالجواهر الأصليه التى تخرج منها كل المركبات وتستجيب لجميع الحاجات .

لكأنما كان أبو حنيفه يعنى نفسه حين يقول (من يطلب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلانى يجمع الأدويه ولا يدرى لأى داء هى كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجىء الفقيه) والذى يقوله عن طالب الحديث هو القول الصحيح فمن لا يتصرفون فى النصوص . فأولاء يلترمون النصوص كأولئك يختزنون الدواء ، لا ينفعون به ولا ينفعون عجزوا عن أن يجعلوا من العقارات الناجعه ، مركبات نافعه ، تلاءم فى كمياتها وعناصرها مع أشخاص المرضى وأصناف الداء ، اما الطب الحق فيأخذ من كل عقار ما يشفى الداء كما شاء خالصا أو ممزوجا أو متفاعلا .

بهذا المولد الدائم : وبالفكر النافذ ، لم يتردد أبو حنيفه عن أن يقول « أرى » و « رأيت » ويحكم على المستقبل ويرفع سماء الفقه على عمد الحريه . فلم تبق فى الأمه مشاكل بلا حلول ، ولم يعد الفقه الأسلامى محجورا عليه أن يملأ كل فراغ فى مستقبل الزمان ، لأن العلماء كما قال أبو حنيفه (يستعدون للبلاء ويتحررون منه قبل نزوله ليعرفوا طريق الدخول فيه والخروج منه) .

فيا للفكاهه التى زعموا عن الشافعى تعويضا نكث أبى حنيفه وتلاميذه عندما سبق الشافعى ليحاكم فى بلاط الرشيد حيث قال (.. قدمنا على

هرون ... ومعى حمسون دينارا ... ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقه فأنفق الحمسين دينارا على كتبهم، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم ، مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ وكان يحمل الدهن فى زق له ، فكان اذا قيل له . عندك فرشان ! قال نعم فان قيل له عندك رئبق ! قال نعم . فان قيل له عندك خيرى ! قال : نعم ، فاذا قيل له أرنى ؟ وللزق رءوس كثيره ، فيخرج له من تلك الرءوس ! وانما هى دهن واحد ! كذلك وجدت كتاب أبى حنيفة انما يقولون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وانما هم مخالفون له ...)

بلى هو دهن واحد حقا كما سبقوا القول الى فتى قريش العظيم ، لكنه أصول الشرع الاسلامى وقواعد الفكر المسلم ، وهو دهن يخرج الزئبق والخيرى والفرشان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل الألوان ، كما أخرج هو منه كل شيء بعد قليل من الزمن ، واذا كان كتاب أبى حنيفة قد خالفوا الشافعى فى فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المنافسين أجمعين .

سمع ابن سريج رجلا يتكلم عن أبى حنيفة فقال : يا هذا انه . فان ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالاجماع والربع الرابع لا يسلمه لهم ، قال وكيف ؟ قال . لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم ثم أجاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ فاذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقى ، والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمه لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حسن السؤال نصف العلم) وعلى هذا الحديث فرع الملك عيسى الأيوبى فقال مقالة ابن سريج .

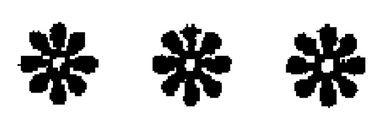
وفى الحق ان الأسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظرى للمشاكل التى تحتاج الى حلول ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف الاستعراض وهو ما يسمى بضعف السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن البعض قوة السؤال وضعف الجواب ومن أجل هذا كان للأسئلة رجال وللأجوبة رجال

قيل عن الحسن بن زياد انه أحسن الناس سؤالا ولم يكن جوابه على قدر سؤاله .

أما أبويوسف فقدقيل انهأحسن الناس سؤالا وجوابا . ولما مدح الشافعى محمد بن الحسن أثنى عليه « لسانه وتثبته فى السؤال والجواب والاستماع » أما محمد فقال عن الشافعى (ان كان أحد يخالفنا وثبت له فالشافعى رضى الله عنه) قيل ولم ؟ قال « لتأنيه وتثبته فى السؤال والاستماع » .

ولكل من الضعف فى السؤال أو فى الجواب أسباب ليس سبيل شرحها ، فحسبنا التنبه الى أن هذه المدرسة أول من استعرض مسائل الفقه استعراضها الشامل وأجاب على فروضها الاجابات الصافية ، فكان لها فيما أصاب فضل السؤال وفضل الجواب وفيما أخطأت فضل السؤال وفضل الاجتهاد . وكان لها فوق هذه الأفضال جميعا فضل السبق فى التدوين والترتيب والتبويب .

أنجب الفقه الاسلامى هذا الانجاب ، وتبارى فى مضماره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحمى نحو قرنين من الزمان ، وقف بعدهما التيار اذ أوفى على التمام ، حتى اذ مات الطبرى سنة ٣١٠ ذهب بموته آخر الأولين ، وأصبح الناس من بعد وقد تهيأت أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجش المغص . أن قد أقفل باب الاجتهاد ! وانفتح باب التقليد ، وسرت عدوا كالوباء تخطى القرون والقارات ، وانطبع العلم بطابع الجمود : ومسخت روحه وأصبحت قضاياه كالألغاز .



ستذكر الانسانية هذه اليد لأبى حنيفة عليها وعلى الاسلام فتسلكه فى سلك المخلصين المتلألئين فى ظلمات الاضطهاد ، كلما صب فوق رؤوسهم من عذاب الجحيم برزت كالعسجد الحر مزاياهم . وتميزوا من الناس كما يتميز الماس من الفحم — وهما من أصل واحد — لأن الماس يتحمل الضغط العالى ولا يمسه الحريق وكلما صبت عليه النار ردها أنوارا ، أما الفحم فهو الفحم ، طبقات بعضها فوق بعض . لا يصبر على الضغط وصلاحيته الأولى للوقود .

ستذكر المؤرخون ذلك الاضطهاد على أنه مجد الامام الأعظم ، فلو لم يعض الله الحمقى رؤوسهم لدلوا على أنه لا وزن لعلمه ولا لعمله فيقدر ما

يورث الرجل في ميزان الرجال يورث له من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع ولا حب اذا كان الرجل صاحب الرأي هو الرجل صاحب الخصوم .

والعبقريات الهائلة التي خلد بها مجد الاسلام لم تمنع أن تكون للفاروق خصماء رأوا في وجهاته السريعة واجتهاداته بعدا عما ذهبوا اليه من التمسك بظاهر الكتاب والسنة ، وهو هو عمر الذي كان في يده من كنوز الامبراطورية الاسلامية ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ولكنه لم يك يملك الا قميصه ودموعه وتقواه ..

وقف عليه اعرابي فقال يا عمر الخير جزيت الجنة . اكس بناتي وأمهن .

قال عمر فان لم أفعل ماذا يكون ؟

قال الاعرابي والله عنهن لتسألنه اما الى نار واما الى جنة .

فبكى حتى أخضل لحيته ؛ وقال لغلامه يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم « يوم السؤال والحساب » لا لشعره .

ثم قال والله ما أملك غيره .

ولم يشفع لعمر القاطع شهادة الرسول له أنه لم ير عبقريا يفري فريه ، أي يصنع صنعه . وأن (عمر معي . والحق مع عمر حيثما كان) و (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) .

ولم يك أبو حنيفة عاطلا من الفضل العمري وأشباهه بل هو كان قطب الزمان ؛ زهادة وعبادة . وقوة ايمان وسداد رأي . وزعامة فكر ، وهي جميعا أسباب خصومة لأنها أسباب كرامة !

ونسي الناس ما سال في هذه الحرب من جراحات اللسان والقلم فأبو حنيفة الامام الأعظم لأهل السنة في علوم القرآن والحديث والتفسير لا يعرف اللغة العربية ! فلا يجر المجرور ؛ وان كانت تجره حروف الجر الغلاظ ... !

قال الليث بن سعد « بلغني أن أبا حنيفة يريد الحج فخرجت اليه قاصدا فلقيته بمكة فسألته عن مسائل كثيرة في أبواب متفرقة وسألته عن

مسائل الحاباب وعن قبل الخطأ وشبه العمد فقال لي في بعض ما أحاسي ، (وان صرنه بأبو قبس) ـــ حل أبي قبس ـــ وفي روايةأخرى بأباقبس ، فمصينا المناسك ورجعنا ، ثم بلغني بعد ذلك أنه يريد الحج فخرجت اليه قاصدا فأردت أن آخذ عليه حرفا واحدا ما قدرت عليا ؛ فما أدري أنذرت منه تلك الكلمة أو تكلم نحوه »

فما لأدب اللبيب وبا لحماقه الخصوم ! انها لم تدر من أبي حنيفه وانما تكلم بحجه فقد نكون نكلم عن أبي قبس باعتباره علما والعلم لا يغير . وابدال الواو في « أبو قبس » باء عند الحر أو آلما عند النصب واجب يعرفه الأحداث فلا نجادل فيه امام الأمه الأعظم ، المفسر الكاتب ، المتكلم الأستاذ ، الفقيه .

تلك واحد ففي اللغه ، وهذه أمثالها في العقيده .

فأبو حنيفه مرجيء اذ يقول ان العمل ليس ركنا للايمان .

وأبو حنيفه زنديق ، تاب ، ثم فسق عن أمر ربه فتزندق مره أخرى ، ثم تاب . وانه كافر تاب من الكفر مرات !

بل هذا رجل يقول أراه كان يهوديا !

وهؤلاء آخرون يقولون كان جهميا !

فلندع قولهم انه كان زنديقا أو كافرا أو يهوديا .

أما أنه كان من أشياع جهم بن صفوان الذي كان يقول ان الانسان مسير لا مخير وينفي صفات الذات الالهيه ولا يشترط للايمان النطق به ، فحسبه تكذيبا أن جهما قصد اليه يجادله فأجابه بقوله (الكلام معك عار والخوض فيما أنت فيه نار .) ثم طفق يفرع حججه واحده اثر واحده حتى فصل عنه جهم وهو يقول « لقد أوقعت في الخلد شيئا فسأرجع اليك » .

وكيف يكون جهميا من كان مذهبه أن الصلاه خلف الجهمي لا تجوز .

أما أن أبا حنيفه مرجيء : فلعلها من بهتم الخوارج أو المعتزله الذين لا يقولون بالارجاء فليس ثمه ريب في أن عامه المسلمين مرجئون على المعنى

الذى شرحناه من قبل لا يكفرون مرتكب المعصية كالخوارج ولا يجعلونه فى منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة ، وانما يرون له التوبة والمغفره ويتركون حسابه الى الله .

قال عمر بن حماد بن أبى حنيفة « أقمت عند مالك مده فلمـا أردت الرجوع قلت لعل الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهبه فان كان فيه رضاك فذاك والا فعظنى . ان الامام كان لا يخرج أحدا من الايمان بذنب قال أصاب . قلت : وكان لا يكفر قاتل النفس . قال : أصاب فمن قال غير هذا فقد كذب وأخطأ . قال بلغنى أنه كان يقول ايمانى كايمان جبريل . قلت بلغك الباطل كان يقول ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام الى النبى صلى عليه وسلم كما بعثه الى من قبله فأمره أن يدعو الناس الى الايمان فالايمان ايمان واحد لا ايمانان أو ثلاثة ، ولا ايمان هذا واقراره غير ايمان ذا واقرار ذا . فتبسم كالراضى به ولم يقل شيئا . قلت : وكان ينكر الشك فى الايمان . قال : وما الشـك فيه ؟ قلت عنـدنا أقوام لا يقولون انا مؤمنون حتى يستثنوا أو يقول أحدهم لا أدرى أنا مؤمن أم لا . فأنكر وقال من يقول هذا . »

ذلك قول مالك فى قول أبى حنيفه .

والناس يرون أبا حنيفة بأعينهم رجلا هو المثل العالى همة فى الدين ، يحيا حياه طويله لسبب فى عداد الزمان ، الا سجده مخلصة لله ، ولا يبقى من ماله الضخم الا النفقة ، ويسمعونه بآدابهم فى المسجد ، وفى كل مكان ، يجاهد بقلبه ولسانه وبيده حتى تكون كلمة الله هى العليـا ، وهم يقرأون ويستمعون الى كتبه « العالم والمتعلم » و « الفقه الأكبر » وكتابه فى الأرجاء الى عالم البصره عثمان البتى والى القواعد الوارده فى الوصية المعزوه اليه وفيها جميعا الحجج الباهره على أهل الالحاد والبدع . وهم يعرفون افحامه لأهل الالحاد ويتناقلون تمثيله للعالم بالسفينه ، ولخالقه بالسفان حيث يسائل المشككين . (... ما تقولون فى رجـل يقول لكم ان سـفينه مشحونة بالاحمال ، مملوءه بالأمتعة والأثقال قد احتوتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها .

هل يجوز دلك في العمل ؟ ففالوا لا ، قال · فيا سبحان الله ادا لم يجز فى العقل وجود سفنة تجرى مسوية من عير متعهد ولا محر فكنف يحوز قيام هذه الدنيا على اخلاف أحوالها من عير صابع وحافظ ومحدث لها ..؟)

فلم يىق الا التهمة التقليديه التى وجهت من قبل الى السد المسيح وهى أن أبا حنفة يحرص على عدم التعاون مع السلطان ! لكن السلطان ليس أدنا لهم ، فلا يلف لمهم ، ولا تمع الواقعة . فلم يعد فى جعبة السهام الا أحبها : سهام القدف والكلم الموارص .

فأبو حنيفه من أبناء السبايا ... ومن الدجاجلة ، .. بل انه ليروى عن شريك أنه قال

(لأن يكون فى حى من الأحياء حمار خير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبى حنيفة) وانه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم منه على الاسلام ... وهو كان جربا يراه الرجل مقبلا نحوه فى المسجد فيقوم قائلا لأصحابه ، قوموا لا يعرنا بجربه ... فيقومون ... وهو لا يثق بنفسه فيحض تلميذه أبا يوسف على الشك فى مقولاته بقوله · لا تروعنى فانى والله لا أدرى أمخطىء أنا أم مصيب ! ثم انه أجرأ الرجال على الرجال . قالوا ... ان رجلا جاءه من خراسان يقول عندى مائة ألف مسألة أريد أن أسألك عنها قال أبو حنيفة . هاتها . وتساءلوا فيما بينهم أسمعتم أجرأ من هذا ؟

والجواب أن الجرىء على الحق لسى هذا المحب وانما دلك السائل الوافد من خراسان لا يعرف عنه الا انه امعة من الامعات ، ومع دلك يزعم أنه يعى مائة ألف مسألة ! فمن أين له المائة ألف ؟ ومن أين له عقل يحفظها أو لسان يبسطها !! ولماذا لم يجىء دلك اللودعى بمسأله أو بضع مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات اعجازه الكبرى ؟.

لقد كان جواب أبى حنيفة له جواب أستاذ عذب الروح يسمو على الأغلوطات

ومن قبل أبى حنيفة كان ابن سيرين ادا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل أمسكها حتى تسأل عنها أخاك ابليس !

والأعلوطات ــ كمـــا فسر الأوراعى بهى السى عن الأعلوطات ــ هى ب المسائل .

سأل عمر بن قسن مالك بن أنس عن محرم نزع نابى ثعلب فلم برد عليه شيئا .

أما أبو حنيفه فلم يسفه السائل بالكلام كاس سرس ولا بالامساع عن الكلام كاس أنس لكنه أطاش حلم السائل بأن جعل نفسه رهن أمره فسفه الرجل نفسه وأخزاه الله .

وأما عن الرد على مائه ألف من المسائل فان قواعد أبى حنيفه وفروعها تحوى أكثر من ذلك وأمثاله لمن تشاء

يا لله أصحيح أنه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم من أبى حنيفه على الأسلام !! أصحيح أن وجود أبى يوسف أو محمـــد أو داود الطائى أو زفر وأمثالهم فى حى من الأحياء شر عليه من وجود حمار ينع فيه سن الجان !

أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام « ويل لعالم أمر من جاهله »

أم أنه المجـــد وارتفاع المقام بعينه محمـــد بن الحسن اذ سمع قدح الخصوم فى أستاذه فقول :

محـــدود وشر الناس منزله من كان فى الناس يوما غير محسود

أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك .

حسدوا أن رأوك فضلك الله بمـــا فضلت به النجباء

أو كما قال هو ذات يوم اذ أقبل عليه رجل ، فسأله من أين أقبلت ؟ قال من عند شريك وكانت بينهما وحشة كما رأيت ــ فرفع رأسه وقال

ان يحســـدونى فانى غير لائمهـــم عنرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهـــم ما بى وما بهمـــو ومات أكثرنا غيظا بمـــا يجـــد

لقد كانت قاعده (أن السلف لا يخالفون) فى قدسيها عندما أعمل فيها معاوله ؛ ولم يك شاع فى الوسط العلمى أن أحكام المعـــادلات ليست تعبدية ، وعزيز على أنفس المعنس أن يفلوا الاتجاه الماضى على ما ألفوه

دون ان سحمعوا صـــده ، أو يصبروا على الجهر والالحــاح والتحـــدى بأن رأي اسان من الأناسى نعسر مصـــدرا للحكم على حاضرهم وماضيهم ومستقبلهم !

أم أنه لسى الحسد ، ولس الجهل ؛ ولا التعصب هى التى جعلت على قلوبهم أكنه أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ؛ وانمــا هى الخصومه القــديمة الضاربه بجرانها بين القديم والجديد .

لم تك هذه التهم الا تهما تقليديه يلقاها الباحثون على صفحات التاريخ فى كل زمان ومكان !. شنشـــنه عرفها رجال الفكر من أعدائه ومن أدعيائه ، تدعى أيا ما تدعى ، بأسماء مختلفه أو متشابكه ، لكنها لمسمى واحد قــد يسمى فى المشرق بالزندقه . تحويرا لتعبير فارسى يراد به الالحاد . ويسمى فى الغـــرب بالهرطقه Hérésie يراد به ـــ فى الواقع ـــ أعداء الكبيسة فى الاعتقاد .

لكأنما تضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء النابغين وان كانت الدنيا لا تضيق بأجسادهم ! والا فلم لا تضق الناس فناء المجد الا بعد أن يزايل صاحبه دنياهم . فيصبح معنى من المعانى وذكرا فى الزمن !

وكأنما ترسل الشمس القـــويه على الأرض شـــعاعا تعشى من صبابته الأبصار ، فاذا صعدت الى بارئها تنفس الصعداء هؤلاء الملتصقون بالثرى . وفتحوا أعينهم فى أفق أوسع وألمع !.

هنالك تابع الأحياء موتاهم ويقيمون التمـــاثيل لمن أحلى مكانه فى الوجود فاذا بايعوا الأحياء بايعوهم مجبرين عن مخازن ، ورضوا بهم كما يرضون بقضاء الله الذى لا يرد ، وبظواهر الطبيعه التى لا تقاوم .

لا جديد تحت الشمس ، ولا جديد فيما فارقه خصوم ابى حنيفه فى عهده ، ولا فيما صنعه خصوم الفكر من قبله ومن بعده ! لقد فقد (لسكرح) من ألفى عام قبل ذلك احدى عينيه من جراء احدى شرائعه !

انما الجديد فى صدد أبى حنيفه أن الولاه لم يسمعوا ولم ينخدعوا ، على فرط ما استمعوا وما انخدعوا فى حوادث الايقاع سواه . فلعلها بركة

السنة على امام أهل السنة الأعظم ، فلم تسمل له عين ولم تقطع له دراع ، ولم تصبه محاكم التفتيش ولا مدابح العقائد ، وحمى التاريخ مدرسة الكوفة وامامها . فلم يقع فيها ما وقع فى أثنا وروما وبيزنطه ومدريد وباريس وبغداد وغيرها فى الشرق والغرب ، فى عهد الحضاره الأولى أو فى القرون الوسطى أو الحديثة .

هنا لك ترى فى العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالاعدام خمسمائه قاض من الجماهير . لانه يفسد عقائد الأثينيين ! وأرسطو يهرب خوفا من تهديد مواطنيه ويموت فى مهربه !!

وترى فى مطلع العصر الحديث ، بين مصدق ومكذب ، (كلفن) زعيم الاصلاح الدينى بعد مارتن لوثر ، فارس الحلبة لاتهام برونو بحجه الهرطقة !

وهناك حوكمت القديسه جان دارك وسرفاتس وكثيرون جد كثيرين من رواد العقل البشرى !

وهنا تجد المعتصم — بطل عموريه — وأخا المأمون المقبه — يجلد ابن حنبل بالسياط والجالد والمجلود صائمان ... ! وابن عبد القدوس ، والبويطى واحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح ، وابن تيمية وأمثالهم .

هنا وهنالك لقى الفكر الانسانى من العذاب ما تندى له الحياه ...

لقد صعد هذا الفكر الانسانى درجات المشنقه ، وهوت عليه المقصلة ؛ وشرد ، وجرد ، وحرم الألقاب ، وذاق عذاب الحريق ، لكنه كان يبعث شعاعه على عمد المقصله ويملأ الأرجاء بالاشراق .

وكانت غاية السحر له أولى درجات الخلود .

الباب العا،

في القضـــاء

« كن من السلطان كما أنت من النار ، تنفع منها وتباعد عنها ولا تدن منها فانك تحرق »

(أبو حنيفة)

كان وضعه الحكم فى الكوفه عملا لا نعطى عليه من وسد الأمر اليه ، وكان هم الولاه المقيم المقعد أن يستقصوا عليها أفقه الفقهاء .

هذا قلب الصفحات الماضيه من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز العالى ...

ولى « شريح » القضاء فيها لعمر بن الخطاب ، فلعثمان بن عفان فلعلى بن أبى طالب ؛ لظفر منه بقوله « أنت أقضى العرب » . وتولاه لمن جاء بعده فظل نحو ثلثى قرن فى عمله لم ينقطع الا ثلاثة أعوام فى فتنة ابن الزبير حين استقال الحجاج وأقاله . ومات فى العشرين بعد المائة من العمر وفى الثمانين من الهجره

وتلاه « الشعبى » . وما أدراك من الشعبى ! بعثه عبد الملك بن مروان الى ملك الروم فلما قفل راجعا سلمه الملك خطابا الى أمير المؤمنين وقرأ عبد الملك الخطاب فاذا فيه « عجبا من أهل ديارك ! كيف لم يستخلفوا رسولك !! » قال الشعبى « يا أمير المؤمنين أراد أن يغريك بقتلى حسدا ... »

وبلغ ذلك ملك الروم فقال لله در أبيه ، ما أردت الا هذا .

جلس الشعبى للقضاء نحوا من ربع قرن حتى مات سنه ١٠٤ فخلف من بعده (الأستاذ الأول لأبى يوسف) محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حتى سنة ١٤٧

وكان طبيعيا أن تشرئب الأعناق الى أبى حنيفه ليتولى منصب القضاء ، بعد أن جلس مجلس ابن مسعود فى الافتاء ، فاتجه اليه يزيد ابن هبيره عامل مروان على العراق (١٢٧ — ١٣٢) حين قامت الفتن بالعراق فى آخريات أيام بنى أميه .

جمع يزيد ببابه ابن أبى ليلى ، وابن شبرمه ، وداود بن هند وولى كل واحد منهم صدرا من عمله ، ونازل لأبى حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون فى يده خاتم الدوله يختم به كل أمر ، وجعل له حق انفاذ الأحكام التى يصدرها القضاه والخراج أيضا وختم أوامر الوالى ، فرفض أبو حنيفه ، وألح

يريد وأسار أصحاب أبي حنيفة عليه بالقبول فقال « لو أراد أعدّه أبواب مسجد واسط لم أدخل في ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب ، فو الله لا أدخل في ذلك أبدا .. »

قال ابن أبي ليلى . دعوا صاحبكم فانه هو المصيب .

وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط ، فقيل ضربوه مائة سوط وعشرة كل يوم عشرة أسواط فلم يرده العذاب الا ثباتا .

لكن للدولة مآرب أخرى في رضى الأستاذ ، فان لم تفلح في أن تضمه الى رجال الحكم فلتمدد اليه بسبب من الأسباب . وعرض عليه يزيد أن يسلكه في الطراز ـ (بيت المال) ـ لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء ، وأغنى عن الخلفاء فأبى .

وقيل انه ترك الكوفة الى مكة سنة ١٣٠ وبقي الى جوار بيت الله بضع سنين حتى تولى الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق اقليما ثائرا على ما وصفنا وكانت الكوفة عنوانه . لا يقتصر شغبها على الخلفاء والأمراء بل يتعداهم الى الولاة والقضاة .

روى الشعبي عن شريح أن قد جاءته امرأة تخاصم رجلا فأرسلت عينيها فقال له يا أبا أمية ما أخال هذه البائسة الا مظلومة ! قال يا شعبي ان اخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون !!

وكان ذلك أيام لم يألف الناس أن يباكي الظالمون كما يباكون في القرن العشرين ، كتماسيح المزن . دمع ولا حزن

ودخل على الشعبي في مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجة بحجتها وكانت بارعة الجمال فلما فرغت من شأنها التفت القاضي الى المدعى عليه يسأله وما دفاعك ؟.

فرد الشيطان على عبر استحياء بهذه الأبيات :

فتن الشعبي لما رفع الطرف الىها
بدلال وبخطي حاجبيها

قال للجلواز قربها وأحضر شاهديها
فقضى جورا على الحصم ولم يقض عليها

والجلواز فى الفارسيه ، هو الحاجب فى العربيه أو الشرطى .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان فى دمشق فلما دخل عليه الشعبى ذات يوم ضحك بالرجل ؟ قال : الشعبى لما رفع الطرف اليها ... » وسأل القاضى . ماذا فعلت بالرجل ؟ قال أوجعته ضربا يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتى فى مجلس الحكومة وما افترى به على ، قال أحسنت .

كان المنصور يقول لحاصته : ما أحوجني الى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال . هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، والآخر صاحب شرطه ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى و لايظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى ، والرابع .. صاحب بريد يكتب الى بخبر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاة البريد فى الآفاق يكتبون اليه أيام خلافته سعر القمح وكل مأكول وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وما يرد بيت المال . وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب . ويكتبون اليه بما كان فى كل ليلة اذا صلوا الغداه . فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الأسعار على حالها أمسك . وان تغير شيء عن حاله كتب الى الوالى والعامل . وان شك فى شيء مما قضى به القاضى كتب اليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان أنكر شيئا عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه .

تغير العراق فى الدوله الجديده فأضحى مركز الدائره بعد اذ كان مجرد قطر من الأقطار ، ولقد بويع السفاح فى سنة ١٣٢ هـ — ٧٤٩م بالانبار ، ثم انتقل الى الهاشمية ، وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤م) فبدا له أن يبنى عاصمة للدوله غير الكوفه ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل الى موضع بغداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصناع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة

ايوان كسرى ويقض القصر الأبيض ليدخل الأنقاض في بناء بغداد ، ثم كف لكثرة التكاليف وتحر لها الأبواب من كل البلدان وبنى قصره (الخلد) في وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشر مليون دينار ، ثم حشر اليها العلماء والشعراء وأصحاب الآراء وأتاها الناس من كل فج حتى غدت تحق عاصمة الدنيا . وبلغ سكانها ، نحو المليونين في عهد حفيده الرشيد (١٧٠ — ١٩٣) — (٧٨٦ — ٨٠٨) .

هذه المدينة الكاملة التي أنشأها وهي بغداد كان يعوزها ما كمل مجد أسبارطة اسم كاسم « لكرج » وما حمل مجد أثينا ، مشرع مثل « صولون » .

كان يعوز رجال بغداد الرجل الذي يصنع تخوم الحضارة التشريعية عند أساطين مسجد الكوفة فأشخصه أبو جعفر الى بغداد فشخص اليها .

هنالك دعاه الى ولاية القضاء في بغداد ، وقيل في الرصافة التي بناها لولده المهدي . وقيل دعاه لتوليه قضاء القضاه فيخرج القضاة من تحت يده الى جميع كور الاسلام ، أي الى الوظيفة التي أنشئت لأبي يوسف في عهد الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم (القضاه ثلاثة قاض في الجنة ، وقاضيان في النار . قاض عمل بالحق في قضائه فهو في الجنه ، وقاضي علم الحق فجار متعمدا فذلك في النار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهذا في النار » كما كان يعلم حديثه عليه الصلاه والسلام (يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في ثمرة قط) ويعلم حديثه الآخر (ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للأمناء . ليتمنين أقوام يوم القيـامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا) .

وكان يعلم ما يناقله الرواه عن عثمان بن عفـان اذ نادى عبد الله ابن عمر (اذهب فاقض بين الناس) قال : أو تعافيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما تكره من ذلك ، وقد كان ابوك يقضي ؟ قال : (ان أبي كان يقضي فان أشكل

عليه شيء سأل رسول‌الله صلى‌الله عليه‌وسلم . فان أشكلّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سأل جبريل ؛ وانى لا أحد من أسأله .)

وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب ابن ضبة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب ، وكان ابن ضبه ، حكما فى الجاهلية فلما عرف ما دعى له قال (والله لا ينجيني الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعدأن نجانى الله منها) .

ورفض جابر بن شريح القضاء بمصر فجيء بالسيف والنطع فلما برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح داري وقداشتقت الى لقاء ربى ... ولما رأى الأمر اقباله على ربه خرجه من لقاه وأعفاه . ودعا أبا خزيمه فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمر عليه بأن يتولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبى الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضى البصره اياس ؛ قال اياس مرحبا وأهلا بأبى مطرف وأجلسه معه ثم قال له ما جاء بك ؟ قال لأشهد لفلان قال ومالك والشهاده ، انما يتشهد الموالى والتجار والسوقه ! قال (صدقت) وانصرف من مجلسه راضيا فقالوا له انه خدعك . انما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها !!

قال . « لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب »

وهكذا كان القاضى فى عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجه الى ذكاء اياس ــ مضرب المثل فى الذكاء ــ ليحتفظ باستقلاله !

كان التسيح يعلم ذلك . لكنه لا يتردد أمام تبعاته ، وان ما فيه من ركانه وعلو همه‌ليمنعه من التردد وان به لفطانة وسموا عن الهوى يحميان عقله أن يجور .

وما تبعات القضاء شيئا مذكورا اذا قيست الى تبعات الفقهاء ..
لقد كان شريح يقول (أنا أقضى ولا أفتى) فكان قاضيا لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتيا .

ولكل مقام رجال . فالقاضي يقضي في قضية بذاتها ؛ أما الفقيه فيشرع القواعد للقضاء وللقضاة أجمعين — ولهذا يربو خطأ الفقيه على خطأ القاضي مرات .

قال سحنون « أنا لله ما أشقى المفتي والحاكم » وقال : « هأنذا يتعلم مني ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق أما كنت عن هذا غنيا ؟ » ذلك بأن فتوى الفقيه — على حد تعبير ابن القيم — شريعة عامة تتعلق بالمستفتي وغيره أما الحاكم (القاضي) فحكمه فردي لا يتعدى إلى غير المحكوم له

إنما يقوم المفتي في الأمة مقام النبي ، وكما قال عليه الصلاة والسلام (إن العلماء ورثة الأنبياء والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم)

فليؤد العلماء إذن أماناتهم وليوزعوا في الناس ما ورثوا من الأنبياء فإنها لأمانة ينقض الظهور وتؤدد أقوى الأقوياء على القضاء وإذا صح قول الشافعي (من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق) فإن أبا حنيفة افتقر مع كثرة ماله وغنى بالله عن العالمين .

وإنما هي الوظيفة في خدمة السلطان يقف أمامها متسائلا
ماذا عن الغد ؟

إنما هي عظات الماضي ينشرها بين يديه . والماضي مرآة المستقبل .

ففي مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) قذف جندي بمصر رجلا من الأهالي فسجنه القاضي وأخرج الوالي الجندي السجين من سجنه فلم يك من القاضي إلا أن ترك وظيفته ومن قبل ذلك في مصر أيضا (سنة ٨٩) أقام القاضي ابن شراحيل الحسني الحد على كاتب الوالي لشربه الخمر فعطل الوالي قضاءه فاستقال

وكانت تسيل بالأنباء أعناق المطي في الصحراء ، مثلما تسيل الآن بالأنباء موجات الهواء واهتزازات الكهرباء ، كما كان ينقلها أعضاء المؤتمر العام . الذي يعقد كل عام ؛ إذ يلتقي الحجيج في جوار البيت الحرام .

واستعرض الامام الأعظم حوادث بصعه عشر ربيعا خلت من عمر الدوله العاسية لا يأدىون فىها بمحالفة من أمىر أو وزير ويأبون الا أن تكون كلمتهم هى العليا ... وهو أدرى الناس بما يجب للقضاء من استعلاء ، وما يلقاه رجله من ابتلاء ، وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم امام مرو عندما أعلمه أنه ابتلى بالقضاء « ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمه يعجز عنها الكبار من الناس وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجا ... » .

وعقب على ما فات بتلك الآيات التى يبعث بها القرن الثانى الى القضاة فى كل العصور « فاذا جلس الخصمان فسو بين الضعيف والقوى والشريف والوضيع فى المجلس والاقبال والكلام .. ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدون الا أن يأخذا فى فصل فمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات ورددهم مجالس لعلهم يصلحون » .

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكــر قوله (من جعــل قاضيا فهو كالغريق ، الى متى يسبح وان كان سابحا) .

وراجع نفسه كره أخرى اذ يقول لتلامذه فى داره (أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى قد أسرجت لكم الفقه وألجمته ... فسألتكم بالله بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم لما صنتموه عن ذل الاستئمار) .

وان منهم من سيرفض القضاء غدا لأبى جعفر كزفر ، وان منهم من سيرفضه بعد غد للرشيد كوكيع .

فلما دعا الرشـــيد تلميذى أبى حنيفة وكيعا وحفص بن غيـــاث ليليا القضاء أبى وكيع وقبل حفص فخاصم وكيع حفصا حتى مات .

استعرض الشيخ ذلك وأمثـــاله مجهرا مكبرا وفى سرعة « الأفلام » وراح يســـبط على طريقه ويمس ويستحسن ، واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر الى القضاه يلومهم اذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره ، واستوقفه أن يكتب عنهم ولاة البريد كمايكتبون عن العمال واسترجع قوله

عليه الصلاه والسلام (ان قليل العمل مع العلم كثير . كما أن كثيره مع الجهل قليل) . وقوله (تعلموا ما شئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا)

فلسع الأجر من الله بالعمل فى سبيل الله . لا فى سبيل الخليفة . واذا كان أبو جعفر يجاهر بإعجابه بالحجاج قائلا « ليت لى مثله » !. وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوثت به من قتل العلماء والتمثيل بهم حتى لنحرف عن القبلة سعيد بن جبير كى يصلى وتضرب عنقه .

اذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الخطر ، فان أبا حنيفة يتحدى بنفسه الخطر ، فحزم أمره واستخار به فخار له . ورفض ما طلبه اليه أمير المؤمنين . وأصر امام المسلمين وأصر أمير المؤمنين .

وحلف أبو جعفر ليفعلن . فحلف أبو حنيفه ألا يفعل . وقال . انى لا أصلح للقضاء قال الربيع ابن يونس الحاجب ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ قال أبو حنيفه أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه منى .

فأمر به أبو جعفر الى الحبس فى الوقت ثم دعا به . قال : أترغب عما نحن فيه ؟ قال أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء .
قال الخليفه كذبت .

فانطلق أبو حنيفه يقول قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه نسبنى الى الكذب فان كنت كاذبا فلا أصلح ، وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ...

وظنو أمير المؤمنين يشاركه فى الأمر وهو يقول . اتق الله ولا ترع أمانتك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك ... وكيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب !

قيل وداروا به فى الأسواق أياما كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه الى السجن . وقالوا ان الوزراء نصحوا أبا جعفر باخراجه من

السجن وجعله فى منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل ؛ فكانت تلك حالته الى أن مات بعد قليل من الزمان ، وقيل بعد أيام معدودات .

وقالوا انه ضرب مائة سوطا أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطا . حتى سال الدم على عقبه فقال عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفه للخليفه سللت على نفسك مائة ألف سيف . هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم . مكان كل سوط ألف درهم . فلما وضعت بين يديه رفضها فقيل له لو تصدقت بها . قال أيوجد عندهم الحلال ... ؟

وهكذا حبس الرجل الذى طلب الحريه نصف قرن اسما هو مسماه ، والذى عاش سبعين عاما يصنع الحريه بيده صنعا ويخلفها فى تلاميذه خلقا وفى تعاليمه . حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحبس نوره أحد ولن يحبسه قيد أو سجن .

ان مقاييس هذا العالم وقيوده للناس وللولاةولكنها ليستللعباقره .

تلك كانت القصية الأخيرة التى سمع فيها قول أبى حنيفة نقل التاريخ الينا منها جملة الواقعة ولم يغفل التفاصيل . وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا .

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلا كذابا ان صح قول الخليفة فاذا لم يصح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى .

كيف نولى القضاء رجل يقذفه أمير المؤمنين .

وكيف تسخر الدوله العلماء . وكيف يخدم الأئمة الخلفاء ؟

كانت قد أثقلته مفاخر السنين الطويلة التى حمل فيها كرامة العلماء فى عصره وكرامة الرأى الانسانى فى الأعصر كافه ، وكان أخوف ما يخافه على الفقهاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية . وما أفتك الطعنة اذا أصابت الرأس ، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء ..!

ولئن كان فى كنف السلطان رغبة تسيل اللعاب ، انها ليسيطر عليها الغلو والعذاب والاسرهاب .

قالوا دخل شريك يوما على المهدى فقال له المهدى : لا بد أن تجيبنى الى خصلة من ثلاث : أن تلى القضاء أو تحدث ولدى وتعلمهم أو تأكل عندى أكله . ففكر ساعة ثم قال الأكلة أخفها على نفسى . قال الفضل بن الربيع « فحدثهم والله وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .

لله در أبى حنيفه فيما قال لأبى يوسف عن السلطان اذ تعرض فيه أنه سلى القضاء .. (فكن منه كما أنت من النار تنتفع منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فانك تحترق وتتأذى منها ، فان السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه ...)

وما رمى أبى جعفر لأبى حنيفة بالكذب الا الخطوه الأولى . وقد خطاها ، فماذا كان يخفى له الغد من نزوات ، وأى نذر كانت تلك النذر ...!

لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر . وان التاريخ ليعرف أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة ، ويشهد أن الذى صدق هو الامام وأن الذى كذب هو الخليفه ..!

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عاليا ، ورفع صوته جهوريا مدويا — فلن يلقى أعلام الحرية تحت أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر الناس بأن يقول للمنصور ، ما قاله الزهرى من قبل لهشام بن عبد الملك . والله لو نادانى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يجر فى بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبى جعفر من النجاح ، ما قدر مع الرشيد لأبى يوسف . فلئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين الدين والدنيا وتعظيم السلطان ، لقد كلفه ذلك كثيرا من عبقرياته !

وكم كان من الفروق بين العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد ربع قرن .

لكن لأبى جعفر من الحق على التاريخ أن يز نرأيه التاريخ ، فلقد أهمته وظيفة القضاء ، على ما أسلفنا من المقال وما كان أعظم حاجة البلدة التى

تحمل اسمه (بغداد ــ مدينة المنصور) الى أبى حسمه فى حين لم يكن بأبى حسمة حاجة الى تلك البلدة أو الى الرجل الذى تحمل اسمه ، وفى عصر قال فيه ابن المقفع « الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك » وفى عهد كان يستباح فيه من أجل الدوله مالا يباح .

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البساله الزائل بمجد العداله الذى لا يزول . وفى سيرته من البدلى والسمو مالا مشابه له الا فى سير أفذاذ الساسه والمؤسسين كأنما يأبى السماء على الأرض أن تسوى أشباؤه وتبسط ، أو تأبى الطبيعة على النفس أن تستمر فى تحلقها السماوى فربطها بطبائع العاب والظفر والناب .

فى هذا الرجل عداله عمرية وفيه جانبات دونها الكثير من الجانبات ١.

اختلف مع زوجه (أروى) أم المهدى ، فجعل لها أن تختار قاضيا فى خصومتها واختارت قاضى مصر عوف بن سلمان فحمل القاضى الى العراق ووكل خادما لها ليخاصم الخليفه فى مجلس القضاء فقال عوف لأبى جعفر (ان رأى أمير المؤمنين أن يساوى الخصم فى مجلسه) فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها فى كتاب الصداق وقضى القاضى ضده .

وكتب الى سوار بن عبد الله قاضى البصره أن ينظر فى أرض اختصم عليها أحد قواده مع رجل من تجار البصره . وكانت الأرض فى يد التاجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها الى القائد فأبى القاضى فكتب اليه (والله الذى لا اله الا هو لتدفعها الى القائد) فكتب اليه سوار (والله الذى لا اله الا هو لا أخرجها من يده الا بحق) واستقبل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بنصاح الفرح فقال « ملأتها عدلا . وصارت قضاتى تردنى الى الحق . »

وكانت آيه اعجابه بحكم عوف بن سلمان أن أمر باحساسه لتولى قضاء الكوفه بدلا من قضاء مصر واعتذر عوف بغربته فرده الى ضفاف النيل .

واستقضى الليث بن سعد امام مصر بل قيل انه عرض عليه ولايتها فأبى .

واستقضى يحيى بن سعيد الأنصارى اذ استقدمه من المدينه الى الهاشميه .

واسقصى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتخذ منها مخبأ !...

فهدم الوالى عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ فى صحن الدار فناجاه « ألا تخرج الى الناس فتقضى بكتاب الله وسنة رسوله ! » فرفع رأسه وقال « الى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاه يحشرون مع السلاطين ؟ »

وسمع الناس ابن وهب يقول يارب يعدو عليك احوانى غدا علماء حكماء فقهاء وأقدم عليك قاضيا ، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض ...! »

وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله ليحملوا معه متاعب الحكم .

كان أبو جعفر بناء مثاليا من بناة الدول وافدا من الميدان ــ والسنة فى الميدان سنان ــ فيه عرامة الفتوه والنفاثات المحنك فأحدث يسراه تبطش بخصوم الدولة وانطلقت يمناه فى بسط وايناس تحمل ميزان المعدلة فى الناس ...

كان سخاؤه من أجل الدولة مضرب المثل ومن أجلها أيضا كان شحه مضرب الأمثال ، حتى لسمى بالدوانيقى أو (أبى الدوانيق) والدانق $\frac{1}{6}$ درهم .

طلب اليه سوار (القاضى) أن يسوى أجر كاتبين لسوار ــ مرتب أحدهما أربعون درهما ومرتب الآخر عشرون ــ فكتب أبو جعفر اليه أن ينقص ذا الأربعين عشره ، وأن يزيد ذا العشرين عشره ! وانما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين !!

ولما علم أن ابنه المهدى وهب عشرين الف درهم لشاعر ، استرجع من الشاعر ستة عشر ألفا !!

وقال له ان المهدى غر خدعه ولا يعرف قيمه المال !

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بنى العباس مليون درهم ليجعل له دارا ومكانا ...

وسما يصسح بأنه ملأ الأرص عدالة ، ويجمع حوله البواقس الى العلم وعتباق الحكمة ، ادا بمفسه تسول له أن يمص العهد الدى عاهد عليه يزيد س هبيره بعد مفاوصات ظل الشهود يحلفون فيها أربعين يوما ، فلما انصرف يزيد من مجلسه قال أبو جعفر عجبا ممن يأمرني بقتل مثل هذا ... !

لكن القائل أبو جعفر . فلا عجب اذا كان القاتل أبا جعفر ... لقد قتله وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (فى العهود وفاء لا غدر) !

ودعا الى قصره أبا مسلم الخراسانى الذى أخرجه وأخاه من مخبئهما فى الكوفة من بضع سنين لبمنحه ويمنح أخاه من قبله دولة تبقى الى سنة ٦٥٦هـ فى بغداد ، وخلافة تبقى الى سنة ٩٢٣ بمصر ، دعاه الى قصره مبيتا له بليل ، حتى اذا كان بين يديه وثب به عبيده فقتلوه .

ولما هزم عمه عبد الله بن على قائد الجيوش العباسية المظفرة احتمى عبد الله بأخيه سليمان بن على بالبصرة فأعطاه المنصور أمانا حتى سلم الأخ أخاه . لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع مخازى أماناته فكتب اليه (أما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو ؟ أأمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد اللهبن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ والسلام ...)

قيل له : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . قال : لأن بنى مروان لم تبل رممهم بعد ، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ، فليس يتمهد هيبتنا فى نفوسهم الا بنسيان العفو واستعمال العقوبة .

فهى السياسة اذن تدفعه الى البطش وتعميه عن المغفرة ، والغدر عنده مصلحة عليا والبطش عنده حكمة بالغة .

لكنه لم يك يخان ويغدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بعهده .

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . ولما هم بالزواج من سواها حجبه بعهده فكان يكتب للفقهاء ، بالحجاز والعراق يطلب فى كتاب الشرط رخصة فلا يجد . حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ! وفيما

بينه وبين الله صاحب عهد ! أما في السياسه فعهده للدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان ، فاذا أمن الأذى عليها تراءى لك البشر الذى يستقبل به العصاء ضده ، والنصح العنيف له ...

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزله بالترحاب وينشد فيه (كلكم يمشى رويد . كلكم طالب صيد . غير عمرو بن عبيد) وكان عمرو شيخا جريئا يطلق لسانه فى الملوك وفى الصحابة ! قال لأبى جعفر يوما « ان الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده ...) فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للخليفة « ان هذا وأشار الى الربيع ــ صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر فما أصنع ؟ قلت لك خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفنى قال عمرو لا . أدعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمه أردد منها شيئا نعلم أنك صادق ...

ودخل عليه سفيان الثورى فأغلظ له القول . فسأله أبو جعفر فأجاب ثم قال . فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغير اذنهم . وقد قال عمر فى حجة حجها وقد أنفق ستة عشر دينارا هو ومن معه . « ما أرانا الا وقد أجحفنا ببيت المال » وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه فى المجلس عن ابراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال « رب متخوض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غدا . » فقال له أبوعبيد الكاتب أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟ . فقال له سفيان « أسكت فانما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون » . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد : ألا تأمرني بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحدا أحق بالقتل منه . فقال أبو جعفر « اسكت يا أنوك (أحمق) فو الله ما بقى على الأرض أحد اليوم يستحى منه غير هذا ومالك بن أنس » .

كانت حالة أحكام عرفية فى دولة لم تكد تستقر بعد ، يحشد لها القوى من كل حدب وصوب ! ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع ، فهى عنده

الثوره ، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان . بل انه ليحلف على عدم تنفيد حلف الخلفة فهى عنده ثورات .

لقد كان يخطب في نفس العام الذي دعى فيه أبو حنيفه للقضاء فيقول انما أنا سلطان الله في الأرض !. لقد كان السلطان الذي في يده أضعاف ما كان بيد الملك الذي قال بعد قرون « أنا الدولة » ويعني به لويس الرابع عشر . وكانت خطبه ملأى بدعوى الحق الالهي في الخلافه . كان يطربه ويطرب بني العباس أن يقال للرجل منهم ابن عمك رسول الله !! حريصين على أن يكون ملكهم قائما على رضا الشعب لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد ، وأشدهم في هذا أبو جعفر حتى حني له بنو هاشم أنفسهم هامهم العوالي ..

قال مالك « دخلت على أبي جعفر ورأيت غير واحد من بني هاشم يقبل يده المرتين والثلاث ! ورزقني الله العافية من ذلك فلم أقبل له يدا ! »

ومن أجل ذلك نراه اذ قيل انه منح أبا حنيفة عشره آلاف فرفضها ، يرجو ألا يذيع في الناس أنباء العطاء والاباء ، ففي الرفض ثوره أو استعلاء وهو وهو لا يقبل الثوره ولا يطيق الاستعلاء ، فكيف يعرض عليه القضاء فيقف في وجهه مره اثر مره يقول : لا ...

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقا على أبي حنيفه أن يأبى وأن يصر على الاباء .

فالدولة التي لا تأذن بأن « يخضع السلاح للوشاح » كما يقول المثل اللاتيني ، ويضرب فيها القضاه هي أحرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . و (ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) . كما قال عليه الصلاة والسلام .

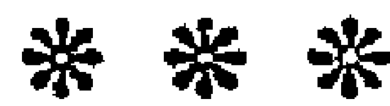
رفض أبو حنيفة القضاء بين يدي أبي جعفر وبين يدي ابن هبيرة وضرب بالسياط ، وكانت أمه الى جواره تقول . يا نعمان ان علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فأجابها « يا أمه لو أردت الدنيا

لوصلت اليها ولكني أردت أن يعلم الله أني صنت العلم ولم أعرض نفسي فيه للهلكة » .

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث الى ولده حماد يقول . قد علمت أن قوتي في الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) وقد حبسته عني فعجله .

ومكث في السجن أياما معدودات ثم صعدت روحه الى بارئها .

وهكذا تعدى أبو جعفر الالحاح الى الاكراه ، وتعدى الاكراه النفساني بالنفس ، الى الاكراه الجثماني بالسجن وتعدى ذلك كله الى التعذيب والضرب فأي جناية تلك يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ ... ومهما قيل عن نبالة الغاية فانها لا ترخص عنه الوصمة والمذمة . فاذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسي أو الجثماني قد سبب موت الشيخ وهو في السبعين فما هول ما يلقى به ربه أبو جعفر . . !



كان التجنيد للقضاء نهجا نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده ، وقديما كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل الى الشام (ان خروجه قد أخل المدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به) ولقد كلم أبا بكر في أن يحبسه لحاجة الناس اليه فأبى ذلك عليه ...

لكن عمر لم يفكر في سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أبا حنيفة ، وانما تداول الفاروق مع الصديق في ابقائه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة في الأمصار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينة (محتاجون اليه فيما يجدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند غيره) . والفرق بين الحبسين كالفرق بين التوفيق والاندفاع بين رجل الله ورجل الملك ؛ وبين خليفة الصديق وخليفة السفاح .

وعرض المأمون القضاء على تلميذ أبي يوسف ، معلى بن منصور غير مرة فأبى وعرض قضاء بغداد على تلميذ محمد ، موسى بن سليمان

الجوزجانى ، فامتنع فأجله سبعا وهدده ان لم يعبل ليعذبنه وليحبسنه فقال له « يا أمير المؤمنين : فد صح عندى أنك اد عرضت على أحـد الأحوين الصالحين سهل بن مزاحم حيث كنت بمـرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فملت لا أكره أحدا على العمل بعد دلك فرأيتك لا تكرهنى » . فجعل المأمون يمول أخوين صالحين بمرو. فمكر ساعة ثم قال للجورجانى . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقصاء فامتنع ، فرجاه فى أن يولى أخاه بدلا منه كما يستعين هو بأحه المعتصم ، فاستعفاه ابن معبد .

ولمد جرت ولاية القضاء فى الوسط العلمى على أنها ابتلاء يفزع منه العلمـاء ، فزع الأصحاء ، من الوباء ! كما جرت على الألسن العبـارات المللدية « أبتلى القضـاء . وامتحن بالقضـاء » . حتى لسترجع النـاس ويترحمون على من اختاره الوالى لقصائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولى عبد الرحمن بن حجيرة قضاء مصر وبلغ الخبر أباه فى فلسطين فقال انا لله وانا اليه راجعون ! هلك الرجل ..!

وهذا قاصيان ووال يتداولون فى شـأن القضاء على أنه (شـفير جهنم) !

كتب عمر بن عبد العزيز الى واليه ليجمع بين اياس بن معاويه والقاسم ابن ربيعة فيولى القضاء أنفذهما . فلما اجتمعا قال اياس للوالى أيها الرجل . سل عنى وعن القاسم فقيهى البصرة الحسن وابن سيرين . — وكان لا يجلس اليهما وكان القاسم يفعل دلك ــ فعلم القاسم أنهما ان سئلا أشارا اليه فقال . لا تسأل عنى ولا عنه . فوالله الدى لا اله الا هو ان اياسا أفقه منى وأعلم بالقضاء . فان كنت كاذبا فما ينبغى أن توليني . وان كنت صادقا فينبغى لك أن تعمل بقولى . قال اياس للوالى : انك جئت برجلى فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كادبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف فقال الوالى « أما اذا فهمتها فأنت لها .. » واستقضاه ..

وهذان مدهبان يتلاومان : ولى القضاء ابن سريج فعتب عليه ابن خيزان

بموله : « هذا الأمر لم يكن في أصحابنا .. وانما كان بلية فى أصحاب أبى حيفه » .

بل انه لس بلبه فحسب . ولا شفير جهم فحسب ولكنه (ذبح بغير سكين) .

ولى سحنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنه قال لها « اليوم ذبح أبوك بغير سكين » فعلم الناس قبوله القضاء .

ولئن عجب لاعتبار ولايه القضاء ذبحا بغير سكين ، ان العجب لنوفى على العاده من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير !

وهذا ابن مسكين ، من تلاميذ سحنون ، يتولى القضاء اذ تكاد السيوف سلمه للحتوف .

جلس ابراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين فسأله

ما تقول فى رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة ، فامتنع ؟ قال يلزمه أن يلى قال الأمير تمنع . قال : تجبره على ذلك بجلد . قال الأمير الداهيه « قم فأنت هو » ! قال : ما أنا بالذى وصفت وتمنع ! ! فأخذ الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره ، فتقدم بعد أمر عظيم واجماع الناس عليه على اختلاف مذاهبهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على المغيره بن عبد الرحمن فقيه المدينه بعد مالك ـ وكانت جائزته أربعه آلاف دينار ـ قال « والله يا أمير المؤمنين لأن يخنقني السلطان أحب الى من القضاء » . فقال الخليفه السمح ما بعد هذا شيء وأجازه بألفي دينار

وكذلك الذى يؤثر أن يخنقه السلطان ، هذا الذى قيل انه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله اليه .

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلى القضاء فامتنع فأراد أبوه أن

يكرهه عليه فسأله أن يمهله ثلاثة أيام يستخير الله تعالى . فمات في الأيام الثلاثة ! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه

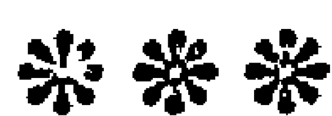
ودعى ابن خزان للقضاء فامتنع فختم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج الى الماء فلم يقدر عليه الا بمناولة الجيران من الكوه ! فقال الوزير الذى حبسه « ما أردنا بالشيخ أبى على الا خيرا أردنا أن يعلم الناس أن فى مملكتنا رجلا يعرض عليه القضاء شرقا وغربا وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل »

وعرضت الجوائز على الامام الطبرى فرفض ، وعرض عليه القضاء وولايه المظالم فرفض وأنكر عليه صحبه قائلين : لك فى هذا ثواب وتحيى سنة قد درست فنهرهم قائلا « كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك نهيتمونى عنه » .

ولما أبطأت عليه النفقه من مدينة آمل حيث كان أبوه يبعث اليه الشيء ، بعد الشيء ، آثر أن يفتق كمى قميصه فيبيعهما .

وأكره القائم بأمر الله الفيروز آبادى على أن يقلد له النظر فى الأحكام والمظالم شرقا وغربا فامتنع ، فوكل به ، فكتب اليه « ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكنى معك » فبكى القائم بأمر الله وقال هكذا فليكن العلماء ، انما أردنا أن يقال انه كان فى عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع وقد أعفيناه .

صنع العلماء ذلك — وأمثاله كثيرة فى التاريخ الاسلامى — خشيه أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطغى ، بل بلغ التحرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل اذا خرج لقدوم الأمير استمساكا بحرمة القضاء كى لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء .



هؤلاء العلماء الأفذاذ قد نشأتهم آثار الفضل التى خلفها لهم سلف صالح فى قمة أسمائه أبو حنيفه النعمان ، يحملون آثارهم فى وجه التاريخ مفاخرين ، كما حملوا رؤوسهم على أكفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حنيفة

فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمسبد الذى لا يغفر أن تعصى رعبه ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمه ! ..

قلم نكن عدلا لهذا الجبروت الا دلك الاستعلاء . ولا كفئا لهذا الطاغية العظيم الا دلك الامام الأعظم .

وبهذا كان الدرس رائعا ونافعا العلماء ولأئمه العلماء كلما دكره ابن حبل بكى وترحم على أبى حيفة بعد ما داق ابن حنبل من ارهاق فى محنة خلق القرآن .

هنالك وضع نفسه رابع الأئمة حبت وضع نصسه أول الأئمة .

لم يقبل ابن حبل أن يقول ان القرآن محلوق .. ودعا نائب المأمون الىه العلماء كما طلب المأمون سألهم فوروا ولم يجيبوا ، أما ابن حبن فقال هو كلام الله لا أريد على هدا . فوجه به الى المأمون بطرسوس ثم الى الرقه ، وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى حليفه المعتصم بأن يحمل الناس على القول بحلق القرآن ، فرد ابن حنبل الى بغداد مصفدا ومكث فى حبسه ثمانيه وعشرين شهرا وفى رجليه أربعة أصفاد .. وأخيرا حمل الى المعتصم والى جواره قاضيه ووزيره والمحرض الأكبر فى فتنه حلق القرآن أحمد بن أبى داؤد وطائفة من العلماء ليناظروه أياما ثلاثة ، فلما كان اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه ، كل منهم سوطين والمعتصم يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعتصم اليه يقول انى والله عليك لشفق .. ونخس ابن حنبل ناخس بالسيف، وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم .. !

وقال قائل يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى أقتله ؟ وجعل آخرون يقولون يا أمير المؤمنين أنت صائم . وأنت فى الشمس قائم !

كانوا يخشون صامه وقيامه ، ويخافون الشمس ، ولا يخافون جهنم التى يوعدون !

ثم قال المعتصم . ويحك يا أحمد ما تقول ! وعاد يقول للجلاد . أوجع

قطع الله يدك ! فجعلوا يوجعون . وعاد يقول . أجبنى . ويقول للجلادين أوجعوا .. حتى فقد ابن حنبل وعيه ، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فكت ، وقال له أحد الحاضرين انا كببناك على وجهك . وطرحناك على ظهرك ودسناك .. وجيء به والدم ينزف منه ، وكان صائما وأبى أن يشرب ، فقام وصلى حينما حضرت الصلاة فى الظهر والدم يسيل منه . قالوا كيف تصلى كذلك قال « صلى عمر وجرحه يثعب دما » .

تعلم ابن حنبل على أبى حنيفة ، وتعلم آخرون على ابن حنبل ، كزميله البويطى اذ حمل من مصر الى بغداد ليقول مثل ما دعى ليقوله ابن حنبل فأبى ومات فى أصفاده ، وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الاسلام فى كل مقام .

سمع عز الدين موسك من أمراء دولة بنى أيوب بمصر عن الامام القاسم الشاطبى امام القراءات فدعاه ليمثل أمامه فنزم الشاطبى بالدعوة وبعث اليه برقعة فيها .

قل للأمير نصيحة لا تركنن الى فقيه
اذا أتى أبوابكم لا

ترى هل يذكر الذاكرون اسم الشاطبى وهم يسلكون (شارع الموسكى) الى أقدم جامعة فى العالم ! نعنى الجامع الأزهر ! لكأنما خط يد التاريخ من ذلك الشارع تمثالا لكرامة العالم ، وان أطلق عليه اسم الأمير .

وفى عهد الأيوبيين أيضا ولى السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ الاسلام أبا محمد العز بن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتبارهم مماليك وتضاف أثمانهم الى بيت المال ! فهاجوا وأرادوا قتله ، لولا أن حمته منهم رعاية السماء وحمتهم منه عناية السلطان ، فاشتراهم السلطان بماله ودفع اليه الثمن ليصرفه فى وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضى الحنفى

فيجىء الى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه الا اذا جاء الى جنبه ، فلما طالبه بلعن الموفق (ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال ألا لعنة الله على الظالمين .

وقيل لابن طولون انما قصدك بهذا القول فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى أجازه بها فأخذها كما هى بخواتمها وسجنه فى دار اكتريت له فكان يجلس فى طاق ويحدث الناس باذن المسوء من ابن طولون .

فلما عرضت لابن طولون علته التى مات فيها وجه اليه يستحله ، فقال للرسول قل له أنا شيخ كبير وأنت عليل والملتقى قريب والله الحاجز بيننا .

ومات ابن طولون فكان بكار يقول مات البائس .

وكما اجتمع الناس حول بكار فى سجنه اجتمع آخرون ليملى عليهم السرخسى من حبسه فى جب السجن فى أوزجند اذ نصح الخاقان فأسخطه فحبسه

وتعالى العلم بالعلماء عن أن يحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج شيخ الحنفية ببغداد عبد الله بن الحسين الكرخى ، كتب أصحابه الى سيف الدوله فى حلب لعبنه وبكى الشيخ اذ علم ودعا الله قائلا · اللهم لا تجعل رزقى الا من حيث عودتنى .

واستجاب اليه ربه فمات قبل أن تصل اليه عشرة آلاف درهم .

وسأل السلطان على بن الحسن النيسابورى · لم لا تجىء عندى ؟ فقال « أردت أن تكون خير الملوك اذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الحيالى وأخبره الصدر الأعظم بتعيينه للدرس قال له شمس الدين « ان أعطيتنى وزارتك وأعطانى السلطان سلطنته لا أترك هذا السفر » ! .

الخاتمة

في التاريخ

« سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريقي
لأموت ، وأنتم في طريقكم لتعيشوا ،
والله يعلم أي الطريقين أهدى سبيلا »

(سقراط)

لم تكن حياة أبى حيفة وان طالت الا معركة واحده سلخ فيها الفكر الانسانى سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها عاية ولا وسيلة الا الحرية والسامح ، في كل أطوارها .

والعالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياه ، والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل الى عماره الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى .

وبعد أن ذاعت نظريات أبى حيفة فى الايمان وفى الحريه وفى الاجتهاد بالرأى استقل بامامه ثلثى الأمه عن سائر المذاهب والأفراق ورقى سلم المجد الى أسمى ذرواته ، لينزل فى التاريخ منزلة الامام الأعظم لأهل الاسلام

ولما ختم حياته في سبيل الحرية كان كالذى كشف الغيب فوضع نفسه ، حيث وضعته الأجيال ، وكان كالمؤلف يضع على مؤلفه بعد الفراغ منه عنوانه .

فهل صحيح ما قيل من أن حبسه كان لسبب سياسى هو تشيعه لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على أبى طالب) المسمى بالنفس الزكية أو لأخيه ابراهيم ؟ أم أنه لم يحبس الا من أجل القضاء . ؟

ان من المسلم أن محمدا وأخاه ابراهيم قتلا فى سنه ١٤٥ حين خرج محمد بالمدينة على أبى جعفر وبعد أن خرج عليه ابراهيم فى البصره .

واذا كان من المسلم به أن الأجل وافى أبا حنيفه عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠ فانه يكون عجيبا أن يشيع أبو حنيفة للموتى بعد اذ مأتوا بخمس سنين . وأعجب منه أن يرتاع رجـل شديد البأس ، قوى المراس ، كأبى جعفر ، من العطف على ذكريات الموتى ، لو جاز أن يشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاما !

لقد كان أبو حنيفه اذا سئل عن على ومعاويه وقتلى صفين أو خلافات الشيعه والأمويين يقول « أخاف الله أن أقدم على شىء يسألنى الله عنه . واذا أقامنى يوم القيامه بين يديه لا يسألنى عن شىء من أمورهم يسألنى عما كلفنى والاشتغال بذلك أولى » .

وكان المنصور من الناحيه الاخرى واسع الصدر بعيد النظر فى اراء خصومه . وأشياع خصومه سمع أن عمرو بن عبيـد زعيم المعتزله كاتب محمد بن عبد الله فسأله فما سمع فقال له عمـرو : انه يعرف رأيه فى السيف -- وهو أنه لا يرى الاستعانه بالقوه لتأييد أعراضه — فطلب اليه المنصور أن يحلف فقال (لئن كذبتك تقيه لأحلف لك تقية) فارتضى منه ذلك وقنع من زعيم المعنزلة بما كان حريا أن يقنع به من زعيم الفقهاء لو ثبت شيء ضده . أو قامت الشبهة فيه عنده .

ولئن قال نابوليون فى أعقاب (مسكوفا) « لا عدو بعد النصر » أو آمر مملوكه رستم بسقيا الجريح الروسى من الزاد الامبراطورى،فان المنصور كان يصنع صنيعه فى بعض من استيقن تشيعهم لمحمد وابراهيم .

وكان المفضل الضبى (صاحب المفضليات) من أنصار ابراهيم اذ خرج على المنصور . فلما أظفره الله بابراهيم ، وأمكنه من المفضل ، عفا المنصور عما سلف واستخلصه لنفسه وقربه نحبا ، فصار نجما فى البلاط ، وألقى اليه ولده المهدى يؤدبه ويرعاه .

وكان المنصور فى جلدا لا تروعه مدلهمات الخطوب يخرج عند الثورة على دابة يحارب الجموع وحده . فكيف ينقم على المقهورين أو على الموتى بعد اذ ماتوا وتصرمت على وفاتهم السنون ، وبعـد أن مكن لدولته فى مدينته . وملأ خزائنه بالمال ودواوينه بالرجال .

ولم يتم بنيان بغداد الا فى سنة ١٤٩ وان كان المنصور قد انتقل اليها سنة ١٤٦ . بل قـيل انه كلف أبا حنيفه بعد مافى سورها من آجر وضربوا مثلا على ذكاء أبى حنيفه ابتكاره طريقه الحساب بعد مافى الذراع من لبنات ومقاس ما فى السور من أذرع .

وقيل ان شقاقا شجر بين المنصور واحدى حليلاته فطلبت العدل بينها وبين سائرهن فسألها المنصور عمن ترضى للحكومة فى هـذه الخصومة . قالت بأبى حنيفة فأحضر ، وجلست تلك من وراء الستر قال فليتكلم أمير المؤمنين . قال أبو جعفر انها تخاصمنى ، كم يحل للرجـل أن يتزوج من

النســاء لنجمع بينهن ؟ قال أبو حنيفة أربع . قال أبو جعفر وكم يحل من الاماء ؟ قال : ما شاء ليس له من عدد . قال أبو جعفر : اسمعي يا هند قالت . قد سمعت . فانطلق امام أهل الرأي يقول . « يا أمير المؤمنين . أحل الله لأهل العدل . فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل فينبغي ألا يجاوز الواحدة قال الله تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فينبغي أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه . » وسكت أمير المؤمنين وطال سكوته ، وخرج أبو حنيفة فلما بلغ منزله جاءه غلام بهدية من السيدة التي أدب من أجلها أمير المؤمنين ذلك الأدب خمسين ألفا ، وجارية ، ودابة .

فقال للغلام « أقرئها سلامي وقل لها انما ناضلت عن ديني » وما مد يده الى شيء حتى حمل من بين يديه

دخل على أبي جعفر يوما والى جوار أبي جعفر الربيع بن يونس وفي رواية أغرى محمد بن اسحق صاحب المغازي وكان الربيع ينفس على أبي حنيفة مكانته ، فابتدره بقوله : يا أمير المؤمنين ، هذا أبو حنيفة يخالف جدك في الاستثناء المنفصل (فلقد كان جده عبد الله بن عباس يقول . اذا حلف الحالف ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين الى سنة في قول ، وأبدا في قول آخر ، جاز الاستثناء من اليمين ، في حين يرى أبو حنيفة أن الاستثناء لا يجوز الا متصلا باليمين ، والاستثناء عنده لا يصح اذا صدر القول باتا في المجلس) .

فلم يحزن أبا حنيفة قوله ، بل واجه العاصفة بالأعصار وقذف في وجه الربيع بآية من آياته . قال . يا أمير المؤمنين « ان الربيع يزعم انه ليس لك في رقاب جندك بيعة ! قال أبو جعفر وكيف ؟ قال أبو حنيفة . « يحلفون لك ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون فيبطل أيمانهم ! ! » وبهت الذي أثار الثائرة لأن أبا جعفر كان يلتمس البيعة من كل الأقطار .

وضحك أبو جعفر وقال يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة .

بلى . ولو أبيح الاستثناء المنفصل لم تكد تقع يمين . اذ كان الناس يستثنون بدلا من الكفارات ويستثنون حتى لا تطلق نساؤهم .

أبا العباس الطوسى — وكان سيء الرأى فيه — فقال لمن حوله فى صوت خفيض (اليوم أقتل أبا حنيفه) . وأقبل عليه يقول : يا أبا حنيفة ، ان أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل . لا يدرى ما هو أيسعه أن يضرب عنقه ؟ فأجابه الشيخ باحدى روائع القياس . قال . « أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل » ؟ قال الطوسى : بالحق . قال : « انفذ بالحق حيث كان ولا تسأل عنه » والتفت الى من قرب منه وقال (أراد أن يوثقنى فربطته) .

وأى رباط ! لقد وضع له الجواب من سؤاله . والسؤال عن وجه الحق لا يصدر الا من رجل لا يعرف أن الخليفة يأمر بالحق أم بالباطل . وبهذا سلم المسئول وانكشف السائل .

هذه الأنباء وأمثالها تدلنا على أن أبا حنيفه كان يدخل على المنصور بالهاشمية أو بمدينه السلام ، اماما رفيع المقام ، مسموع الكلام . قبل أن يدخلها فى طريقه الى السجن . وتدل على أن غضب الخليفة كان غضب الفجاءه لأسباب جاءت كذلك فجاءه .

وفى الحق أن مدينه المنصور كانت كل شيء للمنصور . وكان أبو حنيفة فى أخريات أيامه يحمل على معرفة عده من البيجان . فكيف تخلو المدينة الخالده من الرجل الذى كتب له الخلود .

كيف لا تزدهى به مثلما تزدهى به الكوفه . وكيف تسمع هذه البيجان التى تكلل هامه الامام الأعظم عن أن تنظم فى جواهر التاج الأكبر ! لقد كان عليه أن يقبل القضاء فى بغداد وأن يحنى رأسه للخليفة والا فان الرفض ذنب عند أبى جعفر لا يغفر .

كان أبو جعفر يحس احساس (تنزيه) اذ بنى أثينا ، واحساس رومولوس اذ شاد روما . والذى يشيد مدينة يعشقها فيهواها كهوى الغانيات بل أشد . لأنه يخلد فيها نفسه وأولاده ومفاخره وآراءه وحضاره جيله ، وفى

سبيل هذا الخليد هان على البائين كل التضحيات فهم لا يسسون مدائن فحسب وانما ينشئون مدنيات ودنى كامله ، أين منها الصروح الممرده والآثار .

ولقد كلف أبو جعفر بالبناء حتى لنعتبر أبا المدائن بحق . بنى بغداد للدنيا وأحاطها بالقطائع وبنى الرصافه لولده المهدى وبنى الكرخ ، وكلف المهدى ببناء الرافقة بل ان أبا جعفر هو الذى بنى الدولة العباسيه نفسها .

وانتقلت نزعه البناء الى الوزراء . قال يحيى بن خالد لولديه الفضل وجعفر « لا شيء أبقى ذكرا من البناء فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا » فاتخذ كل منهما لنفسه قصرا ، وقيل ان جعفر — فى عهد الرشيد — أنفق على عشرين مليون درهم غير الأثاث . !

ومند ألفى عام قبل المنصور تنازل « تنزيه » عن ملكه لشيء « أسا » ومند ثلاثه عشر قرنا قبله كان « رومولوس » لا يقتل الأعداء ولا يسبى النساء وانما يأمرهم بهدم قراهم ودساكرهم وأن يقدموا لتعمير « روما » . وكان « تنزيه » أول من تنازل عن الملك لحب الشعب كما قال سقراط وصار « رومولوس » فيما بعد الها يخر له الرومان سجدا الى الأذقان

وكان سلطان أبى جعفر أعظم من سلطان تنزيه ورومولوس معا فحسب أن يعمر بغداد وفق ما يهوى والويل لمن يقف فى الطريق .

فحبس أبى حنيفه انما كان فى سبيل أن يولى لأبى جعفر قضاء بغداد وأن يصدع بما يؤمر ولا يرد على الذهن أن يكون ذلك السبب اختراعا . لأن بغداد كان قد تم بناؤها . ولأن من السائغ أن يرى أبو جعفر أن الولايه على قضائها لم تك تصلح الا له ولیس تشييد مدينه السلام بحادث عادى انما هو الحادث الأعظم يدعوه الامام الأعظم وخليق لدى المستبد المطلق السلطان بأن ينزل به ما أنزل من العقاب فى نفس الزمان ونفس المكان

ولو كان الغضب من أجل محمد وابراهيم لأحدث فى أبى حنيفه آثاره أيامأحدث فيهما آثاره . فلم يكن الامام الأعظم نكره فنسى خمس سنوات أو عشر سنوات بعد أن نكل المنصوربالأخوين الشهيدين وبأبيهما وبأهليهما

لقد بدأ المنصور البحث عن محمد وابراهيم من سنة ١٤٠ ولما لم يعثر عليهما حج سنة ١٤٠ وطالب بهما أباهما فأنكر معرفته لمقرهما فحبسه وصادر أمواله ، فكيف ينام عن أبي حنيفه كل ذلك الزمان وليس من طبيعة أبي جعفر أن ينام

كان مالك في أوج مجده العلمي والديني في جوار النبي ، اذ قيل انه أفتى بأن بيعة الناس للمنصور كانت مكرهة أي غير ملزمة للناس ممالأة منه لمحمد بن عبد الله عند خروجه ، أو قيل انه سئل عن البغاه ، أيجوز قتالهم ؟ فقال « ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز » فقيل فان لم يكن مثله ؟ فأجاب « دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » فلم يحل ذلك المجد بين عامل أبي جعفر على المدينة وبين جلد مالك .

ولئن راجع أبو جعفر واليه فيما صنع لقد كان ذلك خوفا من الله لا خوفا من الناس . ذلك بأن أبا جعفر كان قد مكن للدولة فلم يكن يخاف ولم يكن يخفى والذي يحمي هو الذي يخاف ، كالذي يخاف هو الذي يخفي

فلو أخذ المنصور على أبي حنيفه مأخذا لناقشه الحساب من فوره جهرة مثلما أخذ محمدا وابراهيم جهره . وحبس أباهما في وضح النهار .

ولم يك أبو جعفر ليأمن جانب الكوفة . فيذر الامام الأعظم في مسجدها خمس سنوات طويلات يسكب في دروسه السخط المدمر — لو صح ما يقولون — وأبو جعفر أعلم الناس بمبلغ ما أحدثته الدعايه على يديه ويدي أخويه أبي العباس وابراهيم الامام وأشياعهم في الكوفه نفسها وفي خراسان وفي سائر البقاع

واذا روى عن تلميذ من تلاميذه أنه اعترض على أستاذه لخوضه في ذكر محمد أو ابراهيم فان ذلك لم يتأيد من مصادر متعددة وهو لا يثبت للمقارنه التاريخية للملابسات التي ألممنا بها في ايجاز .

وأبو حنيفة هو الامام الأعظم لأهل السنة . أما الشيعة فذات فقه خاص وأحاديث ومعتقدات خاصه ، تضمنتها مؤلفات ضخمه دون منها الكثير زيد بن

علي وجعفر الصادق وغيرهما . ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه روج لعمه الشيعة ، بل لم ينعكس على مرآته الصافية آثار فكر شيعي .

ولئن كان يعطف على الضحايا من أهل بيت النبي ان أفئده الأمه جمعاء تهوى اليهم ، لقد كان « صاحب الأغاني » حفيدا لمروان آخر خلفاء بني أمية . ومع ذلك كان شيعيا .. !

وليس معقولا أن يكون أبو حنيفة شيعيا بفعله أو قوله أو بهواه ، دون أن ينكشف الخبيء من أمره ، أو يعكس أثره على عمله ، في معاركه الخالدة مع الخوارج ومع المحدثين ومع الولاه ومع الحلفة وسواهم .

ولما خاصم ابن هبيره كان خصامهما حريا بأن يكشف أسرار غيبه . بل ان بني العباس كانوا مع الشيعه حتى بويع لأبي العباس في سنه ١٣٢ فهم العليمون حقا بأشياع الخلفاء

فكيف يكون من هؤلاء ، ولا يأخذ السفاح أو المنصور عليه سيئا مما أخذاه على زعماء أهل البيت في بضعة عشر ربيعا كانت كلها النكال للتشيعه .

واذا صح ما روى من صلاة المنصور على قبره بعد وفاته فان المنصور لا يصلي على من أراد اقتلاع دولته من الأعماق .

لقد رفض أبو حنيفة القضاء لبني أمية كما رفضه لبني العباس . ولو كان يدفعه الهوى والغضب لكان هواه مع الدولة المقبله من الشرق من بلاد أجداده ، وبخاصة وقد ناله من أذى العهد المنصرم ما كان قمينا بأن يصل أسبابه بالنظام الجديد ، لو كان أمر امتناعه راجعا الى الهوى ، أو الى الأذى ، أو الى النظام .



انما عافت نفس أبي حنيفة القضاء لأبي جعفر لأنه ليس القاضي المحسوب على الحكام والحاشية . وليس هذا القاضي الا ألعبانا يعرض على النظاره فنونا من الظلم على أنها العدل ، وما هي في الحق الا نتاج العبودية والمهانه والابتذال .

والفضاء المسحر كالفكر المشرى والقلم الأجير أتعس ما فى الأسواق من سلع وعروض .

والرأى هو العرض . يبيع عرضه من يبيع رأيه داك لشهواب الحس واللمس وهدا لشهوات الفكر والنفس . بل ان من يبيع رأيه يبيع حسده . فما الصمب أو النار . أو اللسان أو البنان ، الا أجزاء من جسم الانسان .

فى بيوع الفكر يعطى المتبايعان عقود الاسترقاق بشتى مظاهر الاستقلال والاحترام ويغلو الفقيه العبد كل الغلواء فى دعوى الاباء وحرية الآراء ، وبقدر ما يطلب من العطاء يحدث من الضوضاء وكلما دلت النفس استحكم مركب النقص ، فكبرت الدعوى وكثرت الأستار .

ما أتعس هذا الفقيه لو قدر لك أن تكشف الغطاء الجسدى عن تفكيره فى هواه أو هوى مولاه

هنالك لا تجد الأسماء ولكن ظلال الأشياء ولا تسمع الأصوات ولكن تسمع الأصداء وتجد حسابا لما ليس فى الحساب المعلوم يتحكم فيه المجهول ، والعلل يتحها المعلول ! وأسماء تعود المظلومون أن يسمعوها . كالمصلحة العامة والنظام وما هى الا تهمة الدنيا وهماهم العيش وفساد النسر .

هنالك تشهد الفقيه العبد فى شوهه ودمامته وانحلال شخصيته كالممثل الهزيل فى أعقاب الرواية هذه الذبذبة الدائمة وقبحه الاصطناع . فأمسى مسخا سائبا ترى دمامته كل الأنظار وهو لا يكاد يراها .

هنالك الأرض تحارب السماوى وتسمى بغير أسمائها الأشياء

هنالك تسيطر الأفكار الجارية ونزعات السوقة ، ويتحالف أهل الرذيلة على أهل الفضيلة وتأخذك العجب وتتساءل لماذا يتواصل أهل الرذيلة فى حين أن ذوى الفضل فى أبراجهم لا يتواصلون .

هناك النفوس الرديئة تحاول أن تطرد النفوس الجيدة . ويتعامل رجال الحكم ورجال العلم بقانون العرض والطلب ، والفضة ، والذهب ، والمصلحة

فى شتى صورها وعروضها ، كالوظيفة والرضاء ، والحياة الوادعة الساجية ، وما هى الا رشى مستوره من رغبة ورهبة أو منظورة دات لمعان ورنين .

رووا أن قاضيا من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه فوقعت قضية تفرد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى ، فأرجأ القاضى القضاء فيها حياء من جماعتهم . وردفته قضيه أخرى كتب بها الى يحيى فصرف يحيى رسوله وقال له : لا أشير عليه بشىء . فلما انصرف اليه رسوله وعرفه بقوله ركب من فوره الى يحيى وقال له : لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع وسوف أقضى له غدا ان شاء الله . فقال له يحيى . « وتفعل دلك صـــدقا ؟ » قال : نعم . قال له « فالآن هيجت غيظى . فانى ظننت اد خالفنى أصحابى أنك توقفت مستخيرا لله ، متخيرا فى الأقوال . فأما اذ صرت تتبع الهوى وتقضى برضى مخلوق ضعيف فلا خير فيما تجىء به ولا فى ان رضيته منك ، فاستعف من دلك ، والا رفعت فى عزلك »

فرفع يستعفى فعزل .

وهكذا طب الفقيه العظيم بدوائه قاضيا ممن عناهم « فولتير » بقوله عن قضاه « كالا » · لا تذكرونى بهؤلاء القضاه الدين نصفهم قرود ونصفهم قضاه . بل قاضيا ممن توعدهم عمر بقوله « ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء ، يوم يلقونه الا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا على رهب ، وجعل كتاب الله مرآه بين عينيه »

ليس أبو حنيفة هدا القاضى ولا دلك الفقيه : لقد قال له الأمير يوما لم لم تغشنا ؟ .

فقال . لأنه ليس عنـــدى ما أخافك علـــه وان قربنى فتننى وان أقصينى أخزنـ ى.

والذى يقول هدا للأمير هو الذى يقول للناس : « من كرمت علـيـه نفسه هانت عليه الدنيا وكل شدة فيها » .

لقد عاش حياته فى ذروة الفضل بين الناس وبين أقطاب الشرائع فلم يبق أمامه اما أن يموت ميتة تلق بهذه الحياة . كان قد عمر سبعين عاما ليست طويلة فى أقيســة الزمان ولكنها عريضة الذكر عميقة الأثر ، رفيعة المثل ، والحياه لا تقاس بالطول نقدر ما تقاس بالعرض والعمق وارتفاع المقام والفعال النابه .

ولقد قضى حياته يفرق فى الناس أرباح تجارته النافقه آلافا وعشرات آلاف ، آخذا نفسه بالتجرد اليومى من أعراض الدنيا فى زهادة ونســك وتعليم دونها الزهد كله والنسك كله والتعليم كله ، والذى يسلط على نفسه هذا التجريد اليومى من نعيم الحياة انما يسلط عليها سياط عذاب مستمر لا بالكف عن اللذات ولكن بالاقتطاع من صميم الذات ، وبالحرمان الفعلى لا النظرى . حرمانا مما فى يده فعلا وهوله . لا مما فى يد الناس ، ولا فضل عن الناس ، لمن تنازل عما فى يد الناس ، فانما هو يكسب لشخصه اذ يبرىء نفسه من أدى نفسه . أما من صبر على الامتحان اليومى ، وقدر على التطهر الكلى ، فقد سما بالوجود الانسانى عن مستواه البشرى ، وأضحى ينظر الى الدنيا من عل ، ويدنو من قرب أبواب السماء . ومن أجل ذلك يشعر الناس بقوى تلك النفس التى سمت على أنفس الناس جميعا .

وكما جمع العباده والزهاده ، قرن العلم بالعمل . فاذا رأى المنكر غيره بيده . يرى الشرطى يسخر رجلا ويذهب ليخلصه ويمتنع الشرطى فيبطش به ويدفع الناس الشرطى حتى يطلق الرجل .

ويرى أمير الكوفه خالد بن عبد الله القسرى يتشاغل على المنبر يوم الجمعة بقراءة كتب حتى يخشى على الصلاة فيصيح : الصلاة الصلاه . خرج الوقت ودخل آخر .

ذلك شأنه مع الشرطى ومع الأمير القسرى وهو شأنه مع ابن هبيرة أمــير العراق وهو هو شأنه مع المنصــور أمير المؤمنين . لا ينحنى أمــام السلطان فى أى مكان ، ولا يسمح بالعيب فى ذات العلم ولا يسهم فى الظلم كالشيطان الأخرس بالسكوت .

كان قد فرغ من شؤون مدرسته وفتح البـاب على مصراعيه لتسى المدارس التى أظهرت فقه الاسلام ، فسلط على الفكر الاسلامى شعاعا من النور هو حسبه . وحلق فى دنيا الفقه اسماء راسيات كأنها الأعلام ، وقضاة كالملوك ، وعلماء أثبت مجدا من الملوك فلم يك باقيا ، الا أن يضرب الضربة الكبرى فيهوى بالمادة ، وأعراضها وأصحابها الى الأعماق، ويحلق بالعلم وبالفكر فى طباق السموات ، وينظر الى الأجيال اللاحقة فكرته الخالدة عبر ألف جيل ويعلم الناس بالقدوة والفداء مثل ما علمهم بحياته .

وفى كلمة واحدة يعلمهم بمماته مثل ما علمهم بحياته .

لكنه لا يسوء منه « لسكرح » اذ أتم رســالته فى شرائع أسرطه ومجدها فحسم حياته منتحرا بالكف عن الطعـام اعتقادا بأن الزعيم الذى لم يبق له عمل فى أمته جدير بالاختفاء

ولقد كانت الأمة أحوج ما تكون الى امامها الأعظم ، ولم تشأ السماء أن تعطل خاتمة حياته من أكليلها اذا لم يدخل النـاس فى حسبانهم هذا العدوان عليه فقد سبق أن سطر عليه فى اللوح المحفوظ ذلك المصير الأذى هو الفداء المستمر لمواهب الرجل الحر ، والمعارضة هى فى الغالب رجع الصدى للرأى فأى أذى واعراض يجتمعان على الرجل اذا اجتمعت عنده الحرية والرأى وأى امتداد لذلك الناوش من بعيد ومن قريب يخالفه عند مماته بعد خمسين عاما فى معركة الحق فى مواجهة الناس ومجابهة الخليفة !

وكلما لقى من أمره عسرا تدفق من قلبه الاشراق لا الاحتراق ، كأن الشدائد مولد عظيم للقوى فى كيانه ، أو كأنها السلاح الذى تشق الأرض لتفجر الماء أو ليزداد الثرى بقلبه ثراء ! !

انما يعيش هؤلاء البشر فى مستوى أعلى من البشر . يلاقى عنـده الانسانى المحلق والربانى الذى يوحى به ، وفى هذه القمم الشواهق يستقبل الملهمون آيات السماء أول من يستقبل كأطراف السـحاب فى السماء وذرا الجبال فى الأرض أسبق ما يلقى شعاع الشمس وأول ما يتوهج فى الظلام المحيط .

انهم لا يحسون ما نحسه عذابا ، بل تتوتر أحاسيسهم الى أقصى حدود الوتر اذا عالجوا الصعاب ، وتتبلد الى حد العدم فى محيط العذاب ، فاذا رأو الأذى وردوه ، واسروحوه ، فمنهم من يقضى نحبه ومنهم من ينتظر ، فلا تطيب نفسه الا اذا أترعه كؤوس التضحيات ، وعندئذ يدرك أنه قد ارتوى من نحب الخلود .

انها لنعمه من السماء على الأرض أن يعذب أهل الأرض قوما كأنهم من أهل السماء فهؤلاء الشهداء يعلمون الناس بالأسوه الحسنة أن الحياة ليست البلهسه ولا الرفاهه . ولكنها كفاح دائم للحر تواق للكمال .

وسجل علماء الاسلام هده الحقائق بحروف من نور فقضى عليهم بارئهم أن يشقوا ليبعم البشر — فكان حلما اسلاما خالصا وقضى على الأئمة الأربعة أن يردوا المحنه تلو المحنه فى سبل آرائهم ويسبعوا بامامتهم الناس وتحملوا خطاياهم . سيق الشافعى من أقصى الجزيرة الى أقصاها ، عاشر عشره متهمين بالشيع لقوا مصارعهم على عتبته ونجا وحده ، وجلد مالك من أجل أيمان البيعة أو من أجل جوابه عن السؤال عن البغاة . وذاق ابن حنبل بعض الموت فى خلق القرآن . أما أستادهم أبو حنيفة فقد مات فى قضية القضايا : قضية الحرية ! أو قضيه القضاء . أو قضيه تسخير العلماء فى خدمة الحلماء ! فأظهر أن الزهد والعلم ليسا غايه الحياه وانما العمل هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة وكان المثل الحق لما يهدى اليه الوحى الذى أشاروا اليه من « أن الله سبحانه أوحى الى نبى من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيـــا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك الى فقد اكتسبت به العز . ولكن ماذا عملت فيما لى عليك ؟ فقال : يارب وأى شىء لك على ؟ قال هل واليت فى وليا أو عاديت فى عدوا »

انما تكون العبادة الحق بالجهاد للحق فى الخطوط الأولى للنار لا فى الرهبنه ولا فى الاعتزال . رووا عن الامام أحمد وغيره أثرا « أن الله سبحانه وتعالى أوحى الى ملك من الملائكه . أن اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال يا رب كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال : به فابدأ فانه لم يتمعر وجهه فى قط ! » .

بلى بلى . فالعمل الصالح أزكى من مطلق العباده ! هذا يحيى بن عمر يرجع من القيروان في تونس الى قرطبه فى الأندلس ليرد دانقا كان عليه وهو يقول : رد دانق على أهله أفضل من عباده سبعين سنة !

انها ضريبة الرضاء النفسانى يؤديها الزاهد أو العابد أو العالم يكد ويكدح ليبرك آثاره فيمن يحط به من العالمين .

واذا كان أبو حنيفه قد جانب الساسة فى حياته لأن رسالته كانت أكبر من السياسة ، فقد جانبها وهو يحتسم هذه الحياه ، لأن العالم الحق لا يفتن بما يفتتن به الناس ولا يلقى بذاته كرجال الدولة فيما هم فيه يعتركون ان رجل الدوله ، ليقذف بنفسه فى المهـالك يهمه أن يفور السور وتعلى به الصدور ، ليستخرج ما شاء من معقبات ونتائج .

فاذا هاجم البطش المفكر فى عقر داره ، أو فدح الخطب وعم البلوى أو هددت الحرية أو الفضيلة ، حق على رجل العلم أن يحمل تبعاته ويحمى حماه . انه لم يعد العالم ولم يبق الفقيه وانما غدا القدوة

ان هؤلاء الفقهاء يحملون من التبعات ما لا يحمل الساسه ولا الزعماء ، لما يستشفه ، الناس من أنهم ورثة الأنبياء ، فلا جرم اذا التمسوا النجاه عندهم والأمل فى روح الله لديهم .

لما والى الملك اسماعيل الافرنج أيام الحرب الصليبيه وسلم لهم صيداء وغيرها من الحصون ليجدوه على الملك نجم الدين أيوب أنكر عليه عز الدين بن عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزله واعتقله ثم بعث اليه يعده ويمنيه ، فقال له الرسول « تعاد اليك مناصبك وزياده ، وما عليك الا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده » . فما كان جواب الشيخ الا أن قال « والله ما أرضاه أن يقبل يدى ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد . »

سبق أبو حنيفة فضرب الأمثال للعلماء كما سبقهم فى ميدان الاجتهاد ، فواجه النوازل فى الفكر بالفكر ، والنوازل فى العمل بالعمل .

اختارت له السماء مجد الخلد على مجد الساعة ، ورضاء الله على رضاء

السلطان ، وآثر الآخرة على الأولى وسعى لها وهو مؤمن. واتخذ مكانه فى هذا الثبت الفردوسى الحافل بأسماء الصالحين والشهداء .

هنالك تتراءى لك الأعماق التى ينبع منها فكر هذا المجاهد الحر ، حلايه للبصر ، وتتجلى لك القمم العاليه التى ارتفعت اليها هذه الحـــاة عند ما ختمتها يده القدرة خاتمة أروع من الخيال ، ويتراءى لك فيما بين البدايه والنهاية حاة هى العمل ، ورسالة هى الخلق والابداع ، ليست هى تطبيقات كل يـــوم ، تلك التطبيقــات الدارجة ، والفتاوى المفردة ، أو فى خـــدمه السلطان .

انما كانت وظيفه أبى حنيفه وطنه الشارع نفسه ، لا وظيفه الذى ينفذ الشرائع والقضاء تنفيذ والتشريع خلق والمشرع يضع النظام والقاضى من حرسه وسدنته .

كانت وظيفه الامام الأعظم تتصل بالقرآن وبالحديث وبالعقل لاستنباط الأصول والحلول ودفعها فى الغداه الى القضاة والعلماء والحكام والخلفاء والناس كافه يتناولون بها جميعا شؤون الدنيا والدين ، ويمضى بها القضاه فى كل قضيه وكل دوله ، وكل جيل ، وكل مكان .

كانت رسالته انشاء المذاهب وانشـــاء الرجال ، والتوثيق بين العلم والحضاره .

كان هو نفسه الانبعاث التاريخى الذى خلد به الفقه الاسلامى نفسه . فأين منه ، بل أين من بعض منه ، كراسى القضاء . على ما فى وظيفة القضاء من اشراق وكرامة وعبادة .

لقد ساهم التاريخ فى توكيد تلك الحقائق . فلم يل وظيفه القضاء فى خدمة السلاطين واحد من الأئمة الأربعـــة الذى تقاسم مذاهبهم جمهــور المسلمين

تلك مكانة حصل الحديث فيها ابن وهب حيث قال « ان العلماء يحشرون مع الأنبياء وان القضاة يحشرون مع السلاطين » .

أجل وكما قال أبو حنيفه « ان لم يكن أوليـــاء الله تعالى فى الدنيا والآخرة العلماء فليس لله ولى »

واذا كان ذلك شأن العلماء فكيف بأئمه العلماء ، بل كيف بأحق رجل في الاسلام بما قيل عن أرسطو « معلم العلماء »

فأين أين أين الأمراء من الأسمـــاء وأين رجال القضــــاء من الفقهاء !

أين أبو جعفر قاضي القضاه ، أو قاضي الكوفه ، أو بغداد أو الرصافه ، لو قدر وكان ، من الامام الأعظم أبى حنيفه النعمان ؟

لقد زالت دوله بنى العباس ، ولم يذهب مذهب أبى حنيفه ونسى الناس أبا جعفر وأولاده وأحفاده لكن اسم أبى حنيفة ما يزال يذكر كلما صلى الناس أو صاموا بل كلما واجهوا أمرا من أمور الشرع فى شأن من شئون الدنيا أو الدين

***

أحس أبو حنيفه بالموت فسجد فصعدت روحه وهو ساجد فى رجب سنه ١٥٠ كأنما كان يسابق ملك الموت الى لقاء الله فى الصلاه .

جاءته الدعوه الى لقاء الله وهو بين يدى الله يصلى ، وبين يدى التاريخ وهو سجين ، وبين يدى الفكر الانسانى وهو يلقى العذاب من جرائه !

وأخرج من مكان حبسه فحمله خمسه أنفس فأتوا به الى مكان غسله فغسله الحسن بن عماره قاضى بغداد وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال « رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنه ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنه كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقربت اذ قربت الى خير وسنه وأتعبت من بعدك »

وما فرغوا من غسله الا وقد اجتمع من أهل بغداد خلق كثير لا يحصيهم الا الله تعالى ، حتى خرج من باب خراسان ، كأنمـــا نودى لهم بموته ،

فاجتمعوا وحزر من صلى عليه فبلغوا خمسين ألفا ، وقيل أكثر وأعيدت الصلاة عليه ست مرات وقيل ان المنصور جاء وصلى على قبره ؛ ولم يمكن دفنه الا بعد العصر لكثرة الزحام

ومكث الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوما ولما بلغ المنصور وصيته بأن يدفن بالخيزران لأنها أرض طيبة غير مغصوبة قال « من يعذرني منك حيا وميتا ! » .

وقال الحسن بن عمارة على القبر « كنت لنا خلفا ممن مضى . وما تركت بعدك خلفا . ان خلفوك في العلم الذي علمتهم لم يمكنهم أن يخلفوك في الورع الا بتوفيق » .

وأتى نبأ موته مكة ، فرثته البلدة المباركة على لسان فقيهها ابن جريج فاسترجع وتوجع ثم قال « أي علم ذهب ! »

ولما وقف تلميذه عبد الله بن المبارك على قبره ، قال « رحمك الله

مات ابراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وخلفا خلفا ، ومت أنت ولم تترك على وجه الأرض خلفا » وبكى بكاء شديدا

وفي منتصف القرن الخامس للهجرة (سنة ٤٥٩) بنى شرف الملوك أبو سعد محمد بن المنصور الخوارزمي (مستوفي مملكة عضد الدولة الب أرسلان محمد وابنه السلطان عضد الدولة ملك شاه السلجوقي) على قبر الامام مشهدا وقبة وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، وبني قبره مزارا للناس في طريقهم للحج وعودهم منه ودفن الى جواره جماعة من نخبة العلماء ، منهم الدامغاني شيخ العراقين وقاضي بغداد

ولما دخل الشافعي بغداد قصد الى مقابر الخيزران وصلى على قبر الامام الأعظم ركعتين ولم يرفع يديه — فسئل لماذا خرج عن قواعده ؟ فقال رضي الله عنه « أدبا من هذا الامام أن أظهر خلافه بحضرته »

وكان يجيء الى قبره كل يوم ويقول انى لأتبرك بأبي حنيفة .

بلى ، وأية بركة أصابت الشافعي وأصابها الاسلام ، أما الشافعي فقد

تلفى فقه أبى حنيفة مبوبا مؤصلا مقعدا ، كما يتلقى الجوهرى الصناع كنزا من اللآلىء والأعلاق . وأما الاسلام فهو يذكر لأبى حنيفة ما لا يذكره الا لمن جاء بعد النبى عليه الصلاه والسلام من صفوة الطبقة الأولى من صحبه المخلصين .

فالفقه الاسلامى فى المعاملات أو العبادات أعلى كنور الحضارة الاسلامية مكانة وأبعدها أثرا فى الأمة جيلا بعد جيل لاتصاله بالقرآن والحديث فى منابعه الأولى . ولئن كان للغة العربية وآدابها — وهى لغة القرآن — ذلك الشأن الجليل الذى تفاخر به كل اللغات : فان للفقه منها مكان الصداره .

هو الذى مكن للحضارة الاسلامية فى بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوربا وآسيا ، وحيث لم تصمد اللغه العربية صمد الفقه الاسلامى ، وسيطرت مبادئه فى نظام الأسرة والملكيه والحرية فى الرأى والعقيدة والأصول العامة للشريعة .

ولئن عزا الاسلام هذه الأمم بالسلاح ، فقد اسعر فيها بالشريعة .

لقد غلب السلاجقة المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى ولكنهم أسلموا . وغلب المغول المسلمين فى القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا أيضا .

ان الاسلام ينتصر وان هزم المسلمون !

وحتى وجد الاسلام وجد الفقه الاسلامى ووجد الفقهاء العالميون فى عبر جزيره العرب ممن سجلوه وخلدوه . يسابقون فى حلباته ذلك السباق المترامى فى حدود الوجود الزمانى والمكانى ، حتى اذا أقفل باب الاجتهاد فى عصور التقليد لم يسكت لهم صوت ولم تهدأ لهم حركة ولم يبرح انتاجهم يثير الاعجاب .

ولو عجز الفقه الاسلامى عن أن يستجيب لحاجات الأمه فى هذه الأقطار المترامية لخيف أن تعمد الى اطراحه لتعيش . واذن لبخعت الحضارة الاسلامية نفسها فى كل مكان !

فأى فصل على الأمة يلقى به ربه ويلقى به التاريخ رحل مكن للفقه الاسلامي أن يكون عصريا فى كل عصر . واقليميا فى كل اقليم ، فمكن للدين نفسه ووطد أركانه

لا عجب ان قال بعضهم ان النبي قد بشر به . فهو ان صح أو لم يصح ضرب من ضروب التمجيد وهو جدير بالتمجيد . جدير بتفسير المفسرين لحديث (لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس) وغيره ، تفسيرا ينظمه فى سلك المأمولين للاصلاح .وجدير بما قال بعض أئمة الزهد (يجب على أهل الاسلام أن يدعوا لأبى حنيفة فى صلاتهم لحفظه عليهم السنه والفقه) .

لقد كان صاحب الشريعه عليه الصلاة والسلام ينظر بنور الله يوم قال للمسلمين (اقتدوا بالدين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد) وكان عمر مؤمنا ممن عناهم النبى بقوله (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) .

فلقد جعل النبى عمارا وابن أم عبد (ابن مسعود) ركنين من أركان الأمة كأبى بكر وعمر .

واذا كان أبو بكر قضى على الردة ، وكان عمـــر أنشأ الامبراطورية الاسلامية فان رسوليه الى العراق — عمارا وابن أم عبد — قد أديا رسالتهما نعم الأداء ، كأنما بصر الرسول والفاروق ورسولا الفاروق من خلال السنين بما سيؤديه هذا الاقليم العظيم للعالم الاسلامى فيحفظ له أمانة الفقه ويشيع فى أرجائه الأسلوب الجديد ويحمى الشريعة الاسلامية من أن تصيبها آفة القصور عن مطالب العصور .

ولئن كان خالد بن الوليد قد حمى الاســـلام من الردة عند الصيحة الأولى على هدى من أبى بكر ، ان أبا حنيفة قد حمى الشريعة عند الصيحة الأولى اذ نادت بذلك الحـــوادث وهو على هدى من عمـــر وعهد من ابن مسعود .

ولقد نظر ابن مسعود بنور الله يوم ضرب الأمثـــال فى الاجتهاد عند

أساطين مسجد الكوفة ليئول مجلسه بعد قرن كامل الى أبى حنيفة الذى نهج نهجه وورث عهده ، ذلك العهد الذى أوصى به الرسول .

نفحات من السماء جاءت بأبى حنيفة فى أوانه ، كما جاءت بابن الوليد فى ابانه ، لتؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى صدق وعده ووفى عهده (.. انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

فى سنة ١٥٠ مات أبو حنيفة وولد الشافعى ، كأن السماء لم تشأ أن تحرم الأرض ذلك الامام الا اذا حبتها هذا الامام .

كان نابليون يقول عن نفسه (كل شيء يسمى على بعد ستة أقدام تحت الثرى) ولئن صدق هذا القول على رجال السياسة أو رجال الدنيا انه لا يصدق على المفكرين . فأولئك يبدأ كل شيء بالنسبة لهم عند ذلك . انهم يذرون أجسادهم تحت الثرى ويبعثون أفكارهم الى الأفلاك ، وأسماءهم الى الأزل ، لتصير حديثا فى فم التاريخ وطنينا فى سمع الزمن . أو كما قال هيجو . أيها العظماء : هل تريدون المجد ؟ .. موتوا !

استقبل أبو حنيفة وهو سجين فى السبعين من عمره ، حياة الخلود كما استقبلها سقراط من قبله بعشرة قرون ، فى السبعين من عمره ، محكوما عليه بالاعدام ، فنظر الى قضاته وقال (.. سيذهب كل منا فى طريقه ، أنا فى طريقى لأموت ، وأنتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا) .

الفهارس

فهرست المراجع المهمة

١	— مناقب الامام الأعظم	الموفق بن أحمد المكى
٢	— مناقب الامام الأعظم	ابن البزاز الكردى
٣	— عقود الجمان فى مناقب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان	الحافظ محمد بن يوسف بن على ابن يوسف الدمشقى الصالحى

مخطوط بدار الكتب المصريه تحت ن ١٠٧

٤	— الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان	ابن حجر
٥	— الانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء	للحافظ أبى عمر يوسف بن عبد البر
٦	— تاريخ بغداد	أبو بكر الخطيب
٧	— الرد على أبى بكر الخطيب	الملك أبى المظفر عيسى بن عبد الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب
٨	— تأنيب الخطيب على ما ساقه فى أبى حنيفة من الأكاذيب	محمد زاهد بن الحسن الكوثرى
٩	— احقاق الحق بابطال الباطل فى مغيث الخلق وأقوم المسالك فى بحث رواية مالك عن أبى حنيفة ورواية أبى حنيفة عن مالك	محمد زاهد بن الحسن الكوثرى
١٠	— حياة الامام أبى حنيفة	الأستاذ سيد عفيفى

١١	— الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى	الحجوى
١٢	— وفيات الأعيان	ابن حلكان
١٣	— الفوائد البهية فى تراجم الحنفية	اللكنوى
١٤	— طبقات الفقهاء	أبو اسحق الشيرازى
١٥	— طبقات الشافعية الكبرى	السبكى
١٦	— الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب	اس فرحون — المالكى
١٧	— نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعه	أحمد تيمور باشا
١٨	— فجر الاسلام	أحمد أمين بك
١٩	— ضحى الاسلام	أحمد أمين بك
٢٠	— تاريخ التشريع الاسلامى	الخضرى بك
٢١	— تاريخ التشريع الاسلامى	الأساتذه عبد اللطيف السبكى ومحمد على السايس ومحمد يوسف البربرى
٢٢	— تاريخ الفهه الاسلامى	دكتور على حسن عبد القادر
٢٣	— الموافقات فى أصول الشريعة	الشاطبى
٢٣	— اعلام الموقعين	اس القيم
٢٥	— مجموعة رسائل «فقه حنفى» مخطوط ن ٧٣٢ دار الكتب المصرية	مفتى زاده
٢٦	— مجموعه رسائل «فقه حنفى» مخطوط ن ٣٢٨ دار الكتب المصرية	عبد الغنى النابلسى

٢٧ — رفع الملام عن الأئمة الثـلاثه الأعلام (دار الكتب المصريه) — ابن تيمية
٢٨ — رسـالة فى مدى اسـتعمال حقوق الزوجيه — دكتور السـعد مصطفى السـعيد
٢٩ — علم أصول الفقه — الأسـتاذ عبد الوهاب خلاف
٣٠ — الاسلام وأصول الحـكم — الأستاذ على عبد الرازق
٣١ — السياسة الشرعيه — الأستاذ عبد الوهاب خلاف
٣٢ — السياسه الشـرعيه — الأستاذ محمد البنا
٣٣ — الفقه على المذاهب الأربعـه طبعة وزارة الأوقاف — الشيخ عبد الرحمن الجزيرى
٣٤ — رد المحتار على الدر المختار — ابن عابدين
٣٥ — المجموع شرح المهذب — محيى الدين بن شرف النووى
٣٦ — مجلة القـانون والاقتصـاد السنة الأولى — الأستاذ أحمد بك ابراهيم
٣٧ — مجله القـانون والاقتصـاد السنة الثانية — دكتور محمد كامل العمراوى
٣٨ — مجله القـانون والاقتصـاد السنة الخامسـة — الأستاذ محمد أحمد أبو زهره
٣٩ — مجلة القـانون والاقتصـاد السنة السادسة — الأسـتاذ عبـد الوهاب خـلاف
٤٠ — مجلة القـانون والاقتصـاد السنة السابعة — الأسـتاذ عبـد الوهاب خـلاف
٤١ — The moslem Creed Wensinck Cambridge 1932
٤٢ — Le Dogme de l'Islam. Godziher - Paris 1920
٤٣ — شرح الأحـكام الشرعيه — محمد زيد الأبيانى بك
٤٤ — الخراج — أبو يوسف
٤٥ — الفهرست .. . — ابن النديم

٤٦ —	تاريخ الطبرى	الطبرى
٤٧ —	تاريخ الدولة العباسيه	محمد الحصرى بك
٤٨ —	تاريخ الاسلام .	حسن ابراهيم حسن
٤٩ —	الطبقات الكبرى	ابن سعد
٥٠ —	فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب .	محمد لطفى جمعة
٥١ —	الامامة والسياسه	ابن قتيبة
٥٢ —	الكتاب والوزراء	الجهشيارى
٥٣ —	العقد الفريد	لابن عبد ربه
٥٤ —	دائره المعارف الاسلاميه	
٥٥ —	دائره معارف البستانى	
٥٦ —	الأمالى	أبو على القالى
٥٧ —	المقدمة	ابن خلدون
٥٨ —	Islamic Civilisation Khuda bukch University of Calcutta 1929	
٥٩ —	الحيوان	الجاحظ
٦٠ —	مناقب الامام الشافعى	محمد بن عمر الرازى
٦١ —	القضاء فى الاسلام	ابن عرنوس

فهرست